رواية

دوّامة الأوغاد

محمد فتحي المقداد

رواية

دوّامة الأوغاد

2016

محمد فتحي المقداد

ومنذ تلك اللحظة
غشيني استغراق فكري، قادني للتعمق كثيراً، فيما وراء ستارة الواقع الظاهر لنا، توصلت للنتيجة أن كل شيء يمكن عرضه للبيع، المزاد يقترب من الأفكار، و الأخلاق، و السلوكيات، يا للغرابة . . !!
في أيّ زمن صرنا .

لا شيء يُقدّم بلا ثمن، لا بدّ من تقديم الثّمن عاجلاً أم آجلاً، هل من المنتظر أن تكسب شيئاً يُقدّم لك مجاناً، أو يُقدّم إليك على طبق من ذهب، منْ أخذ توجّب عليه أن يدفع، أبداً لا شيء يُعطى بالمجان، هكذا هي لائحة العلاقات المرتبطة بالمصالح، من مدّ يده اليوم لتناول شيء ما، غداً عليه أن يمدّ يده لردّ المقابل

محمد فتحي المقداد

محمد فتحي المقداد

دوّامة الأوغاد

رواية

٢٠١٦

التصنيف

الرواية العربية\ العصر الحديث
محمد فتحي بن قاسم المقداد
(دوامة الأوغاد)

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/١١/٥٣٥٩)

تطلب الرواية من المؤلف (٠٠٩٦٢ ٧٩ ٧٨٥٢٦٩٦)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجّيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٢٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

❖ لوحة الغلاف للفنّان: يعقوب أحمد يعقوب (فلسطين).
❖ تصميم الغلاف: محمد طكّو (سوريا).

مقدمة

الغايات تختلق المبرّرات، وتستسيغها، وتزيّنها بالافْتِراءَات؛ لِتبتعِد موضوعيّةُ الطّرْح، وحِرْمَان الإنصاف من أن يأخذ حقّه في المَسَار الطبيعيّ، وانحناءاتها، وتخلط الأوراق؛ لِتخلِق حالةَ شَوَشٍ في الرؤية، و يَنحَسِر التّمحِيصُ للحَدِّ الأدنى، إلّا عند القِلّةِ القليلة من الناس. و يبقى الزّمن هو الكفيل بإيضاح الحقيقة، وتجْلِيَتها.

الكرك ـ الأردن

٢٠١٦\٩\٥

محمد فتحي المقداد

باقات حُبٍّ ..

إلى ذوي الفضل الفضلاء

الأديب و القاصّ: خليل النابلسي.

الشّاعر و الناقد: عبد الرّحيم جداية.

الشّاعر: طالب الفرّاية.

الدكتور: سلامة السّراحين.

القاص و الروائي: توفيق أحمد جاد.

لدورهم في تقويم مسار هذه الرّواية، بالقراءة، و المراجعة، و التدقيق..، والتشجيع، وفاءً مني لجهودهم. ومن لا يشكر الناس، لا يشكر اللّه.

(١)

ما إن بدأ الظلام يتسرّب رويدًا رويدًا، وتنسحب آخر خيوط النّهار متوارية هاربة من طغيان العتمة، لم تكتمل فرحتها بالبقاء، والعيش في الأجواء، إلاّ و بزغ القمر بدرًا مشرقًا بنوره، فعمّ ارتياح في النّفوس، لولا تكدّرها من الغيوم المتقطّعة؛ وهي تحجب نوره للحظات، ثمّ يعاود الظّهور من جديد.

خفتَت حركة النّاس في ساحة الحارة، وهي تُرسل جَلَبَةً، و ضوضاء الأولاد، وصراخهم لا يتوقّف، خاصّة، وهم يلعبون (الطّميمه) المفضّلة عندهم، يصمِتُون فقط عندما يذهبون للاختباء في الزوايا، وراء الجُدران القريبة من مكان الولد الذي يغطّي وجهه بأكمله كي لا يَرَاهم، وهو ملتصق بحجر مُعيّن، معلوم لدى أعضاء اللّعبة، هذا الولد يعلن للجميع انتهاء الوقت بتنازل العدِّ من عشرة إلى واحد، وعليه البحث عنهم، و الإمساك بمن استطاع منهم، والمحظوظ بالفوز، من يصل إلى الحجر المعروف، ويلمسه بيده، بذلك ينجو من أن يكون دور (الطّميمَه) عليه.

(نمس بن قرهود) اسمه غطّى على اسم أبيه، و النّمس هو الاسم الشّائع له، يجلس على سطح البيت داخل العريشة مَقَرّهُ الدّائم طيلة أشهر الصّيف، بعد انحسار موسم البَرْدِ الربيعيّ، ومجيء الدفء، العريشة تكون في البيدر، أو الكرم، أو على سطح البيت، جداران من الحجارة و الطين مُتَقابلان، وما بينهما مُشرَع على جهتيْن متقابلتيْن، وسقفٌ من الخشب و التّنَك، وبقايا الأغصان، مغطّاة بأكياس الخَيْش، إبريق الشّاي أمامه، لا ينقطع من شربه حتى آخر قطرة منه، يقف فجأة لمعاينة شَبَح ما يمرّ في الطّريق من جانب الكّرم، يعود لجلسته، لتيقنّه أنّه شخص ذاهب لعمله ممتطيًا حماره، هكذا هي حاله، لا ينام إلا قُبيل الفجر بقليل، لياليه يقضيها، بمراقبة مساحة كبيرة من الجغرافيا؛ لأنّ المكان مفتوح أمام ناظريْه، و لا شيء يحجب عنه الرؤية.

في ساحة الحارة، بعد العصر يخرج الجميع للجلوس في الساحة رجالًا، ونساءً، يتجاذبون أطراف الأحاديث للتّسلِية، قصصُ النّمس المتكرّرة، حفظتها النّساء قبل الرّجال، والبنات قبل الأولاد، من كثرة ما سمعوا تلك الأسطوانة بين فَيْنة وأخرى، الضّبع في يوم الثّلجة الكبيرة، عندما أمسك برقبته، وأناخه مُجبَرًا، تمهيدًا لضربه بالعصا، بعد أن شلّ حركته، عندما أضاء النّور في وجهه، مما جعله يستطيع السّيطرة عليه بسهولة، وأنّ القَنْوَه - (عصا السّنديان ذات كتلة دائريّة بأحد طرفيْها) - انكسرت من الضرب المبرّح للضّبع المسكين، ويقول: والله من يومها، وعضلات يديّ متورّمة، و متشنّجة، فقد هَدّنِي التّعب، لدرجة أنّني لم أعد أستطيع رفع يداي للأعلى، لمعاودة الضّرب حتّى أقضيَ عليه، فور عودتي للبيت خلعتُ الجاكيت المُلوّث بدماء الضّبع، وهي (تُزَعْطِط) كالنّافورة من جسمه، بعدها هَويْتُ عليه بالحجارة المتوافرة أمامي، رغم الظلام الدّامس، ولجأت لِسِنْسَالة (سياج) الكّرم، وأخذت منها العديد من الحجارة، تركته بعد ذلك، و قفلتُ عائدًا.

في البيت..

- لما رأتني زوجتي أم فرج على هذه الحال، قالت: خيرًا إن شاء الله، يا رجل، والله خائفة عليك أن تتأذّى من مُعَارَكَتِكَ لهذه الضّواري الكاسرة.

- ما الذي تقولينه يا حُرْمة، أنا النّمس، أنا وحدي، ولا أحد غيري، انظري لرجال، و شباب الحارة، ما فيهم الرّجل الذي نعتمد عليه إذا ما صارت مشكلة، أو جاءنا غزو خارجيّ، لا سمح الله.

- أم فرج: وهذا الجرح البليغ الظّاهر على يدِكَ، ما قصّته؟، ثمّ تساءلت، مستفسرة عن بقع الدم على الجاكيت، بعدما خلعها من أجل غسيلها، وتنظيفها.

- أما أخبرتكِ، إنّها دماء ذلك الضّبع اللّعين الذي قضيتُ عليه، تركتُهُ مُمَدّدًا هناك على أطراف الكروم، مُضرَّجًا بدمائه.

في السّاحة..

الأولاد يُنصتون باهتمام، بعدما توقّفوا عن اللّعب، وجلسوا يستمعون، لحكايات النّمس المُشَوّقة المحبّبة إلى قلوبهم، شِبْهُ هدوء في السّاحة، خيالاتهم سرحتْ

بهم بعيدًا، فتخيّلوا النّمس كأنّه شمشون الجبّار قوّة ومَنَعَة، و بأنّه أقوى رجل في العالم، فلا يستطيع أحدٌ قَهرَه أبدًا. بنظرهم هو من أعتى الرّجال.

***

هو يسرد حكايته مع الضّبع، أعينُهم تفيضُ غيظًا، وتزداد جُحوظًا، و تفرُّسًا في وجهه الأسمر المُدوّر، ورأسه الكبير، وهم يتخيّلون رأس (أبوالهول) المُشرئِبّ ناظرًا إلى الأفق البعيد المجهول، وعينيه الواسعتين، كأنّما يرقبُ شيئًا ما هناك، هذا الرّجل مَلَكَ عليهم أحاسيسهم، وسَلَبَ منهم وَلَعَهُم باللّعب، لصالح التّشويق في سرده لحكاياته الطّويلة، الغائِصَة في بحار الخيال المعقول، و اللامعقول، ومع ذلك يصدّقونه، ولا ينبري أحد منهم لمناقشته فيما يروي لهم.

إلاّ أنّ قصّته اليوم مع الضبع كانت مثيرة جدًّا، ومن شدّة حبِّه للاستطلاع، الولد ماجد، أعرب لأصدقائه من الأولاد، أنّه يشكُّ في قصّة النّمس والضّبع، جُملةً و تفصيلًا، وحَزَمَ أمرَه بعد مشاورات، على الاستيقاظ مُبكّرًا، و الذّهاب مع اثنين من رفاقه، وهما أنيس ومحمود لمعاينة جثّة الضّبع المُلقاة هناك، وقد صارع أنفاسه الأخيرة، بعد تلقّيه الضّربات الموجعة من النّمس، ارتفعت الشّمس في السّماء، و على مدار ساعتين من البحث الدّؤوب، لم يجدوا أثرًا لا لدماء، ولا لحجارة مأخوذة من السّنْسَالة (السّياج) الفاصلة مع جيرانه، ولا عصًا مكسورة، ولا جثّة للضّبع.

لعب الشّيطان في عقولهم، و أغراهم بفضح كذب النّمس على الملأ من أهل الحارة، وأنّه كذّب في اختراع بطولاته الوهميّة، مثل (دون كيشوت)، وطواحين الهواء، اتّخَذُوا قرارهم، بعدم الذهاب للمدرسة هذا اليوم؛ لتأخُرِهم عن موعد الثّامنة صباحًا في الدخول لقاعات الدّراسة.

رجعوا لبيوتهم مع انصراف التلاميذ من مدارسهم، وكأنّ شيئًا لم يكن من أمر غيابهم عن دوام يومهم المدرسيّ، أو غير ذلك، ونُسِيَ الأمر بالنّسبة لهم، سِيّما، وأنّ هذا اليوم كان الخميس، وهو نهاية الأسبوع، والجمعة عطلة بطبيعة الحال، حالفهم فيها كَسْبُ الحظّ بضياع مسألة غيابهم لدى إدارة المدرسة، ما بين يومَيْ

الخميس و الجمعة، بذلك ارتاحوا من عقاب أهاليهم. لغَطٌ وهرجٌ في الحارة، تسرّبت الأخبار عن كذب النّمس، في مسألة اصطياد الضّبع، لكن الخبر بقي على نطاق ضيّق، إلى أن جاءت (***القشّة التي قصمت ظهر البعير***).

***

ذات يوم غادر النّمس مع عائلته إلى قرية مجاورة؛ لحضور حفلة زفاف لأحد أقاربهم هناك في صباح الجمعة، بينما العفاريت من أولاد الحارة، يجلسون في زاوية، يتهامَسُون بما حصل معهم البارحة، ما إن شاهدوا النّمس يرتدي ملابسه الزّاهية، وكذلك زوجته، علمُوا بحدسهم الذي لا يُخطئ أبدًا، لا بد أنّهم مُغادرون إلى خارج القرية، من فورهم عقدوا العزم على السّطو على شجرة اللّوز، خلف السّور العالي، و عيّنوا مكان فُرْجَةٍ بزاوية السّور قليلة الارتفاع نسبيًّا، زال الخوف من نفوسهم، عيونُهم تدور في رؤوسهم وقد أبْلَسُوا، كي لا يلفتوا نظر النّمس إليهم، أرسلوا رائدهم يتتبّع النّمس من بعيد، عندما تأكدَ من سفره، عاد يلهث بأنفاسه، وهو يشير برأسه لهم بالأمان، يكاد لا يستطيع الإفصاح لهم بالكلام؛ لتسارع ضربات قلبه، و حبّات العرق تبدو متلألئة على جبينه، يضع يده على صدره علّ نبضاته تهدأ قليلًا، ليتابع معهم التوجّه إلى الشّجرة المقصودة، أخيرًا جلس في رُكنٍ مُنزَوٍ يُراقب لهم الطّريق أثناء تسوّرهم؛ لسرقة اللّوز من بيت النّمس، ذلك الحلم الّذي راودهم طويلًا، وخوفهم من أن يكون نَصَبَ أحد أفخاخه العملاقة، تحت الشّجرة، حاولوا بكلّ حذر جُهْدَهُم أن لا تطأ أقدامهم الأرض تحت الشّجرة، خوفًا أن تعلق أرجلهم، تذكّر أحدهم أنّه سمع من النّمس مرّةً، من أنّ أحد هذه الأفخاخ قَطَعَ رِجْلَ حمار دخل إلى كرمه، هذا الخبر زرع الخوف في نفوسهم، وبذلك ضمن النّمس عدم مُجازفة أيّ شخص بنفسه. جاء صفير من رأس الطّريق، هدأت حركتهم على شجرة اللّوز، حتّى زال ما ظنّوه خطرًا. وإذ هما شابان من حارة أخرى، في طريقهما للعمل في الحقول المجاورة، ما إن وصلا بمحاذاة شجرة اللّوز، كان حديثهما يدور حول معركة البارحة مع النّمس.

- قال يوسف: عندما رفع النّمس العصا ليضربني بها، قبضتُ على طرفها، وسحبتُها بشدّة من يده، فسبّبتْ له جُرحًا غائرًا في كفه اليمنى، فانكسرتْ عزيمته، وتركتُه يبحث عمّا يضمّد به جراحه.

- صديقُه ابراهيم منصتٌ باهتمام للحكاية منذ البداية، وعلّق: هذا النّمس خطير، و لا يُؤتمن جانبه، عليك الحذر منه عند المرور من هذه المنطقة.

- ردّ يوسف: على كلّ حال، لا يستطيع فعل أي شيء؛ لأنّ اللّيل ستّار، فهو لم يتبيّن ملامحي، ولم يعرفني من قبل، حتّى أنّني تعمّدتُ عدم التفوّه، ولو بكلمة واحدة خوفًا من أن يستدّل عليّ من نبرة صوتي.

رقص قلب الولد ماجد من مخبئه على الشّجرة، لهذا الخبر الطّازج، و هزّ رأسه مع ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهه، قابله الولد الآخر محمود بابتسامة مصحوبة بعلامات اندهاش كَسَتْ معالم وجهه الأسمر، مترافقة مع نسمة هزّت الأوراق، فتمايلت الأغصان الغضّة يمنةً ويسرةً، تمتّد أياديهم بِهمّةٍ ونشاط، وهم يقطفون كل ثمارها، وما تركوها إلا جرْدَاء كأنّها لم تثمر في هذا العام.

أفخاخ النّمس الجَبّارة، بالفعل هي كبيرة لدرجة مُخيفة، عندما يفتحها، لينصبها تتشّكل دائرة بقطر(٥٠سم)، ذات نوابض فولاذيّة قويّة، حوافُها مُسَنّنة، ما إن تُطبق على شيء، لن تتركه يفلت من قبضتها إلّا وهو جثّة هامدة، كما أنّها ترتبط بسلسلة حديديّة (زَرَدْ)، في رأسها وَتَد ينغرس في باطن الأرض، ولزيادة التّأكيد يضع فوق الوَتَد صخرة ثقيلة، حتّى يضمن بقاء فريسته في الفخّ، ليأتي بنفسه، و يخرجها جثّة هامدة بيديْه، كثيرًا ما كان يأخذها بيده لكي يراها أهل الحارة، كما أنّه متخصّص في صيانتها حتّى تبقى فاعليّتها تشفي ساديّته المفرطة، في الانتقام من الواويّاتْ (بنات آوى)، والثّعالب، وحيوان النّمس، والكلاب.

التّمويه هو سبيله لإخفاء الأفخاخ للإيقاع بفرائسه، بأن يضع قليلًا من التّراب فوق الفخّ، بعد دفنه في الأرض، مع بعض الحشائش، و الأغصان الجافّة، بحيث لن يتيسّر اكتشافه بسهولة.

***

ما إن جاء وقت العصر، حتّى سرى خبر كذب قصّة النّمس مع الضّبع، التي رواها البارحة لأهل الحارة، انتشر كما النّار في الهشيم، النّساء يتضاحكن، و تتعالى أصواتهنّ؛ ليُشَوِّشْنَ على حديث رجال الحارة في الجانب الآخر، وهم لا يبعُدون عنهنّ أكثر من عشرة أمتار.

- تقول أمّ سعيد: كان الله في عونك يا أمّ فرج، على هذه العيشة مع النّمس.

- أمّ منيف: والله النّمس، طبّقَ المثل(***الكذب ملح الرّجال، وعيب على إللي بيصْدُقْ***)، أظنّ أنّه في حياته لم يتلمَّظ على كلمة صدق واحدة.

- فليحة: كان الله في عون أمّ فرج، لِمَا تحتمل من فظاظة زوجها الظّالم، فهو لم يَتَوانَ لحظة عن ضربها المُبرح، إذا ما أخطأتْ، أو قصّرت في خدمته، أو في العمل في الكَرْمِ (البُستان) أو في البيت، منذ فترة تلقت ضربة على رجلها منه، فأقعدتها، ولم تستطع الوقوف، فكانت تزحف على يديْها، ورُكبَتيْها للقيام بشؤون البيت، وهو كما ترونَه لا يأبَهُ لها، ولا لتَعَبِها، ولا لوَجَعِها، فكلّ يوم سَبٌّ وشَتْمٌ لها، ولأهلها.

- صالحة: منذ ثلاث أو أربع سنوات، تلقّت منه ضربة على بطنها برجله - الله يكسرها له -، فانطرحتْ أرضًا في ساحة دارها، كان في انتظارها حجرٌ ناتئ، تسبّب لها بكسر يدها، رغم ذلك لم تتوقّف عن أعمالها، حتّى أنّه أجبرها على أن تخرج إلى الحقل للحصاد بيد واحدة.

- أمّ سعيد: هذا (الزّلمة) قليل خوف الله، ظالم، قاسي القلب، فلا أدري..؟، وبعد كلّ أفعاله الشّنيعة، كيف يرجع لفراشها ..!!، وينام معها، حتّى ولدت البنات، وجبر الله خاطرها بصبّي وحيد، لعلّه يكون عوْنًا لها في كبرها، ويُخفّف عنها مظالم أبيه، وقساوة الحياة.

- تتدخّل أمّ منيف، وهي تقطع كلام أمّ سعيد: يبدو أنّ جِبِلَّة هذا الرّجل، من طينة غير طينة البشر، الله يكون بعون المسكينة أمّ فرج، إضافة لينبوع الكذب المتدفّق منه، بلا حياء ولا خجل، وأعْيَبُ العيبِ في الرّجل أن يكون كذّابًا،

تقريبًا الجميع يكذب، لكن على الخفيف، ويحبكونها بشكل متقن؛ بحيث لا تنكشف قبل أن تُنسَى من ذاكرة الحارة، وأهلها.

- صالحة: تفووووو ... (تُفْ) على (هيْك زُلُم)، ثمّ امتدّت يدها بعفويّة، لتمسح آثار ريقها حول فَمِها، عندما خرج مُتَصاحبًا مع انفعالها، كما أنَ يد فليحة امتدّتْ إلى وجهها، لتمسحَ الرذاذات المُتطايرة من فم جارتها صالحة، بِقَرَفٍ، وتأفّفٍ، عندما قطّبت حاجبيْها الرّفيعين المَرسوميْن بتقنيّة عالية، ممّا شكّلا قوسيْن منكفئيْن للأسفل فوق عينيْها.

***

اجتماع العفاريت الأولاد على الطّرف الآخر من السّاحة، بعدما عرفوا أنّ ماجد يملك خبر النّمس الحقيقيّ. فمنهم من جلس على الأحجار مُستنِدًا على الحائط خلفه، ومنهم من جلس على الأرض، وبقي الآخرون واقفين، أعيُنُهم تدور في رؤوسهم، عقولهم مُتعطّلة، توقفتْ عند جلالة الحدث العظيم؛ لتُصبح صورة النّمس باهِتَة في أعينهم، كلام ماجد يأتي على أسماعهم كصاعقة صَمّتْ آذانهم، أفواههم مفتوحة، وألسنتهم مُتَدَلِيَة على الشفاه السُّفلى، آخَرٌ يجلس على الأرض، يرفع لسانه للأعلى لِيَلعَق بقايا سُيول أنفه المتكرّرة، عندما يُتبِعها بما تبقّى منها باستنشاق عميق، ليرفعها إلى أعلى.

ماجد يُعتَبر زعيمًا بين أولاد حارته، رغم حجم جسمه المتوسَط، لما يتمتع به من ذكاء لمّاح، تفكيره يَستَبِق به الأحداث، عنده قابليّة للبحث وراء أيّ شيء بلا كلل، ولا ملل، عيناه صغيرتان نسبيًّا، تتربعان فوق أنف مُفَلطح قليلًا، في وسط وجهه الحنطيّ، صديقه محمود يُلازمه كظلّه، لا يكادان يفترقان إلا عند ساعة النّوم، يذهبان للمدرسة سَوِيًّا، و هُمَا في نفس الشّعبة الأولى من الصفّ السّادس، و أنيس لا يختلف كثيرًا عن مواصفات محمود، وهو يصغرهما بسنة واحدة فقط، أنيس ومحمود هما مُساعداه، لا يتوانيَان عن إطاعة أوامره بلا مُناقشة؛ لثقتهما بقيادته لهُمَا، فهذا الثلاثيّ المُتماسك، يخشاه كلّ الأولاد في الحارة، ولا يشقّون عصا الطاعة عليه. فَغَرُوا أفواههم جميعًا، انْعقدتْ ألسنتهم

عن الكلام، تسمّرت عيونُهم على ماجد، وهو يروي لهم ما سمعه، في صباح هذا اليوم مرّ الشّابّان يوسف وابراهيم من أمام بيت النّمس، وقد عزّز حديثهما ذلك، نتيجة تحرِّياتِنا البارحة عن قصّة الضّبع المكذوبة.

- محمود: يعني (هَيْك) النّمس كان يكذب علينا. باقي الأولاد مُبْلِسينَ فاغِري أفواههم، لما يسمعون من أشياء جديدة خارجة عن دائرة اهتماماتهم في اللّعب.

- أنيس: يا أخي محمود منذ هذه السّاعة، وهذا اليوم، فلن تَمُرّ علينا حكايات النّمس المُثيرة، بلا تدقيق وتمحيص.

- محمود، يصرخ بأعلى صوته: هيه .. هيه .. يا أولاد .. النّمسْ طِلِعْ كذّاب ..، هتافٌ جماعيّ، يردّدون وراء محمود، وهم يطوفون بأركان السّاحة، صوتهم يصل لمسامع الأهالي في البيوت، الذين لم يخرجوا بعد للجلوس بمجلسهم اليوميّ المعتاد. ماجد يقف مزهوًّا بالنّتيجة التي وصل إليها؛ لأنّه هو المصدر الوحيد المُدَقِّق بما قاله النّمس، وها هي أوراقه قد انكشفت، وكان يحلم بالوقوف أمام أهل الحارة لِمُحَاجَجَة النّمس على الملأ، حداثة سنّه تمنعه من الوقوف بوجه رجل في عمُر أبيه، كما أنّ العادات و التقاليد، تفرض عليه عدم القيام بمثل ما يَنْويه، احترام مشاعر الآخرين شيء أساسيّ في مجتمع القرية، أدبيّات توارثُوها، لا يمكن الخروج عليها بسهولة.

***

لم يتردّد النّمس أبدًا بشراء بارودة صيد (جِفِتْ) ذات العينيْن، فهو يتمنّاها باشتياق الأرض العطشى للمطر، عندما عرضها فليحان للبيْع مُضْطّرًا؛ لتغطية نفقات مُدَاواة ابنه الوحيد، عندما أصيب بمرض عُضال، واحتياجه إلى عمليّة جراحيّة، حسبما أشار عليه الطّبيب المختصّ، لم يفكر ببيع قطعة أرض من أملاكه الواسعة، جاءت الفرصة للنّمس على طبق من ذهب، فلم يدفع بالبارودة الثّمن الحقيقيّ لها، بل بَخَسَ ثمنها، الضّرورة الملحّة وحدها دفعت فليحان للموافقة، على شرط أن يستلم المبلغ المتّفق عليه كاملًا و فوْرًا.

جاءت البارودة متزامنة مع الفرس التي يمتلكها النّمس من زمان مضى؛ لتعزّز مكانة النّمس، وفرسه، حينما اشتراها بنفس طريقة البارودة، فأصبح مِمّن يُشار إليه بالبنان في القرية، بارودةٌ وفرسٌ، وهما من علامات القوّة و المَنَعَة، على إثر ذلك فكّر بعمل ناطور للحقول، مع جماعة نواطير القرية، وهم يأخذون أجرتهم من الفلّاحين كلٌّ حسب ما يملك من الأرض، ويكون ذلك في البَيْدر عند استخراج المحاصيل، يحضر النّاطور؛ لأخذ حصّته من الحبوب والتّبن، ويذهب، وهكذا يحصلون على رزقهم. فهذا العمل موسميّ من كل عام، تعمّقت علاقاته بالنّواطير، فأحاديثهم لا تنقطع في جلساتهم المنتظمة في كل يوم عند أحدهم.

بطولات النّمس، ومغامراته لا تنقطع، وهو يسردها على مسامع زملائه من النّواطير، يُكرّرها كثيرًا، إلى أن ثار عليه نوّاف ذات صباح، عندما ضاق به ذَرْعًا؛ لعلمه بالمُبالغة والكَذب، ولم يتوانَ عن تحريض جماعة النّواطير، وتأليبهم على النّمس، لتَتَعَبّأ أنفسهم حقدًا على النّمس، و استخدم كلّ مهاراته في التّقريب و التّبعيد، وعلى النّفَس الطّويل، للتّعريض بالنّمس كلّما سنحت له الفرصة، غاياته بعيدة المرمى، لتُكَلّلَ جهوده، باتّخاذ قرارهم بطرد النّمس من جماعتهم، وهو بذلك قطع الطريق على تمدّد النّمس اجتماعيًّا، وتحجيمه، وعزله عن المحيط، الغاياتُ تَخْتَلِقُ المبررات وتستسيغها، وتُزَيِّنها بالافتراءات، لتبتعد موضوعيّة الطّرح، وحرمان الإنصاف من أن يأخذ حقّه في المَسار الطبيعيّ، وتخلط الأوراق لتخلق حالة شَوَشٍ في الرؤية، و ينحسر التّمحيص للحدّ الأدنى، إلّا عند القلّة القليلة من النّاس، ويبقى الزّمن هو الكفيل بإيضاح الحقيقة، وتَجْلِيَتِها.

تزامن مرور مجموعة النّواطير، من الطّريق المارّ أمام بيت النّمس، مع مرور ثُلّة الأولاد ماجد - محمود - أنيس.

- النّاطور نوّاف، بصوته الأجشّ، والذي يُقال عنه مثل (***الجاروشة الخربانة***)، والمعروف لمن يسمعه على بعد مئات الأمتار، التفت إلى باب دار النّمس، وقال: تفووو(تُفّ) على هيك زُلُمْ (رجال) أنت منهم، مش عارف كيف أمضى حياته، أوّلها كذب، وآخرها كذب، وما كفاه ذلك؛ بل إنّه يتعامل بالرِّبا، فهو يقوم

بإقراض بعض النّاس المُحتاجين، اللّيرة بليرة، وإذا جاء الحَوْلُ، ولم يستطع المدينُ الإيفاء، يقوم بمضاعفة الفائدة عليه، لعنك الله يا نمس.

كان النّمس يقف وراء بابه، وينظر من ثقب صغير في جانب الباب، للذين كان فيما سبق زميلًا لهم لفترة قصيرة، بلع ريقه بصعوبة، والغضب المكبوت يبدو على وجهه، لكنه لا يستطيع الوقوف بوجه نوّاف لمجابهته، أو الدّفاع عن نفسه، وردّ التُّهَم التي وجهها إليه، على مسمع ممّن يمكن أن يسمع من المارّة، والجيران.

موقف جديد أضيف إلى سِجّل النّمس عند ماجد، وجماعته، الذين قادتهم الظّروف؛ ليكونوا متابعين لسيرته الغامضة لدى أهل الحارة، وهذا ما جعل الإصرار دَيْدَنَهُمْ في ملاحقة أخباره، ونوادره.

- ماجد: سَجّلوا عندكم، وأضيفوا هذه المعلومة إلى إضبارته التي تنمو عندنا يومًا بعد يوم.

- أجابا (أنيس ومحمود): حاضرين، ولا يهمّك لعيونك.

***

(٢)

الشّخص الغريب معروف في القرية، فكلّ سُكانها أقارب، يرتبطون فيما بينهم بعلاقات جوار و نسب، فهم يعرفون بعضهم بعضًا، فترة الظّهيرة، و حرّ هجيرها يُلْجِئُ الناس إلى بيوتهم للقيلولة بعد تناولهم طعام الغداء، وتعود الحياة، و الحركة من جديد للأزقّة و الطّرقات، والخروج للجلوس في السّاحات فيما بعد العصر من كل يوم، عندما تبدأ الشّمس تميل غربًا، لتُشَكّل الظلّ، وتنكسر حدّة حرارتها.

وجه غير مألوف أبدًا لأهل الحارة، تتبعته عيون العفاريت الثلاثة عند مروره من أمامهم، مُتَأبّطًا مُفَكّرته، يبدو عليه أنّه موظف، ولكن مَنْ صديقه هنا، حتى يأتيه؟، سَاوَرَتْهم الشّكوك، حبّ الاستطلاع، حَدَا بهم لمراقبته، إلى أن دَقّ باب دار النّمس، فورًا فُتِحَ له الباب، وكأنّ النّمس كان على موعد معه، أو أنّه كان ينتظره خلف الباب بفارغ الصبر، وعلى أحرّ من الجمر.

- ماجد يلتفتُ لمساعديه، قائلًا: ***سجّل عندك يا تاريخ***.

- الثنائيّ (محمود – أنيس): سجلّنا، وحفظنا.

الأيّام التي تأتي بالجديد قليلة في الحياة، ربّما لحظة ينتظرها الشّخص مدى حياته، وربّما لا تأتِي أبدًا، وما أجملها إذا كانت (**رمية من غير رام**)، بلا سعي و بلا تعب، وبلا ترقّبٍ ولا ترصّد، هكذا بدأت الدوّامة تلتف بهؤلاء الفتية، وهي تفتح وعيهم على أشياء بعيدة عن براءة طفولتهم، جعلت حوّاسهم تتهيأ كلّ يوم للجديد، وما لا يتوقعونه، وربّما يجهله الكبار من أهاليهم، الظروف تميل باتّجاه شخص، فتجذبه إليها على غير إرادة منه.

الدوّامة عملية بناء جديدة، هدمت نسيجًا اجتماعيًّا مُتماسكًا في عتمة ليل طويل، ونسجت خيوط مؤامراته في خفاء، وأنشأت من أنقاضه حرافيش فقط، وأعادت تشكيل كلّ ما بُني على أنقاض ما تفسّخ، فاضحة، واضحة، قاصمة، هدمت

الرّوابط، وقطّعتها إربًا إربًا، وفضحت القذارة بذوبان الثّلج، وانكشفت الحقيقة بعد فوات الأوان، فكانت بحقّ قاصمة باعدت بين الأخ وأخيه، فكانت وبالًا على الجميع دون استثناء، واستلبت الطّمأنينة الاجتماعيّة، وتجييرها، وتسييسها لخدمة أهداف خفيّة، وتدجين بأنماط جديدة، واستخدمت كافّة الوسائل على نطاق واسع لاحتواء الحياة بكاملها، وعلى أوسع مدى ممكن.

كل ولد منهم أخبر والده بما رأى من زيارة الشّخص الغريب للحارة، وإلى بيت النّمس خاصّة، الآباء أخبروا زوجاتهم، هؤلاء تسعة أشخاص، الأمّهات أخبرت كل واحدة منهنّ جارتها، وأوصتها أن لا تحكي بالموضوع، ما إن جاء غروب ذلك اليوم، كان الخبر على ألسنة سكان الحارة جميعًا بداية.

وإذا أراد الله نشر فضيلة = طُويتْ، أتاح لها لسان حسود

- على رأي أمّ منيف، الله لا يجعلنا من الحاسدين - باستهزاء بادٍ من نبرة صوتها- وعلى أيّ شيء سنحسد النّمس، على بُخْلِه الشّديد ونتانته، أَمْ على فظاظته مع زوجته، وما يحدث في حارتنا شيء غريب للمرّة الأولى نسمع به في زماننا، و لا حُكِي عن آبائنا، و أجدادنا من قبل.

الضّحك انفجر في مجموعة النّسوة في مجلسهنّ المعتاد في السّاحة، تعالى الهّمس أكثر فأكثر، كلّ اثنتيْن غرقتا في سرد الحكايات الحقيقيّة، والمتخيّلة، المعقولة وغير المعقولة عن النّمس.

قبيل الغروب خرج النّمس من بيته، تبدو علامات الحيْرة على وجهه، وكأنّ هناك أمرًا يخافه، و يُخْفِيه عن أهل الحارة، لجّة من التفكير أغرقته، ليجد مخرجًا مقنعًا إذا ما سُئِل من أحدهم عن ضيفه الشّاب رامز الثلاثينيّ موظّف الأمن، كلّ خطوة من باب الغرفة إلى باب الدار، مثقلة بهاجس الإجابة، تمتزج برائحة (كالونياء الدِّرَال - أم البنت) التي رشّها على وجهه، ورأسه، قبيل خروجه، على حافّة عتبة الغرفة (وهي أخفض من أرضيّة الغرفة بقليل، مربّعة الشّكل أو مستطيله، وكانت المكان الطبيعيّ للاستحمام) هيأت أمّ فرج حذاءه، ولمّعتْه، ووضعته على طرف العتبة بمحاذاة قدميْه، حيث جلس على كرسيّ القشّ القديم، ثم ناولته غطاء رأسه الأبيض المائل للأزرق (بفعل النّيلة الزرقاء)، و العقال، قام واقفًا، واتّجه للحائط خلفه مباشرة؛ لينظر إلى نفسه في

بقايا قطعة مرآة مثبّتة قرب مفتاح الكهرباء. أعاد ترتيب نفسه مطمئنًّا إلى سلامة مظهره.

- قال النمس في نفسه: ما إن وضعتُ قدميّ خارج باب الدّار حتّى التَمَعَتْ في ذهني فكرة، سأخبرهم بها قبل أن يسألوني، فأكون بذلك قطعت الطريق عليهم، وبدل أن أكون في موقف الدّفاع، سأنطلق إلى الهجوم، أكيد أنّ الأولاد العفاريت الذين كانوا يلعبون في الحارة، قد لاحظوا، و انتبهوا لمرور رامز، ومن الممكن أنْ يكون أحدهم أخبر والده أو أمه، وبذلك تنكشف أوراقي، وعلاقتي بذلك الشّخص، فالنّاس هنا لا يحبّون، و لا يرتاحون للأشخاص القريبين من أجهزة الأمن، ويكفيني من اسمي أنّه نِمسٌ، و أبي قَرهُود، رحمك الله يا أبي، و يا جدّي على هذه الأسماء الغريبة الجالبة لي سخرية الآخرين، ليته كان لقبًا لي؛ لكان أهون مئة مرّة عليّ، ولا أدري ما تُخبّئ لي غُيوب المستقبل، فلا أريد اكتساب لقب جديد يلتصق بي (عوايْنِي، أو مُخبِرْ، أو كَتّاب تقارير)، وبذلك ينتشر الخبر، و يبتعد النّاس عنّي، وأصبح عندهم موضع ريبة وشك.

القلق بادٍ على ملامحه، تارة يحكّ رأسه أو أنفه، عيونه تلتمع بحركات سريعة لا إرادية، ربّما فضحت مكنونات نفسه قبل أن يتكلّم. ما إن وصل جانب السّاحة من جهة بيته، حيث رجال الحارة في مجلسهم الاعتياديّ يوميًّا بعد العصر، منشغلين بأحاديثهم الاعتياديّة، مع انحسار الشّمس لتُشكّل ظلًّا، وانكسار حدّة حرارتها، دبيبُ حركة النّاس متزامن مع اعتدال الجوّ بنسائم معتدله. قَرْعُ خطوات النّمس مسموع من مسافة غير بعيدة، واتّخذ قراره بالمبادرة أوّلًا: السّلام عليكم يا أهل الحارة جميعًا، رجالًا ونساء، يا جيراننا.

- الجّميع: وعليكم السلام، أهلا يا نمس. أنظار الرّجال الجالسين تتّجه إليه، ومنهم سليطين- إرحيّم- سويلم- حميدان، وآخرين.

- النّمس: صلّوا على النبيّ يا جماعة الخير، - أتْبَعَها بابتسامة مُصْطَنَعَة، وهو يضرب كفّا بكفّ-، والله صدق من قال: (***جبل لجبل لا يلتقيان، وبني آدم، لبني آدم يلتقيان***)، كنت أظنّ في نفسي أنّ أخبار أقاربي، وأبناء عمومتي، التي انقطعت عنّي منذ سنوات، وعدم تواصلي معهم، أنّ النسيان قد مسحني من ذاكرتهم، اليوم و على غير العادة وبلا ميعاد، زارني واحد منهم اسمه رامز،

جَدّي وجدّه أبناء العم، أي هو من (خَمْسَتِي)، وألتقي معه في الجدّ الخامس، والغريب أنّه عسكريٌّ موظّف، جاء للخدمة هنا في قريتنا **أمّ الخنافس** في مفرزة الأمن، كلّ ذلك عن طريق المصادفة البَحْتَة.

- سليطين، - يضحك بصوت عالٍ، بلهجة ساخرة -: و الله..**!!**، على آخر الزمن صار النّمس واسطة لنا عند الدولة.

- إرحيِّمْ: رؤوسنا ستطاول أعنّة السّماء، ابن عمٍّ جارنا، ابنٌ للحكومة، يعني أنّه يحلّ ويربط، ولن يلحق بنا ضَيْمٌ بعد الآن.

- سويلم: سأخالفكم الرأي لو سمحتم لي، أخاف من قرابة النّمس أن تجلب لنا المتاعب في حارتنا الآمنة.

- النّمس: سامحك الله .. يا جاري.

- سويلم: هذه الحقيقة أراها ماثلة أمام عينيّ كما أراكم يا جماعة الخير.

- النّمس: عتبي عليك يا سويلم، ما كنتُ أحسب أنّك متشائم لهذه الدّرجة.

- حمدان يحاول ترطيب الأجواء، بالتّهوين من هول الصّدمة المفاجئة: أتمنّى أن لا نرى المكروه أبدًا، والنّمس من أبناء الحارة، أتوقّع أنّه من غير الممكن، أنّه يُحِبُّ حدوث أيّة متاعب لنا مستقبلًا، فنحن أهل وجيران، وهو واحدٌ منّا.

تدور الأفكار في رأس النّمس متلاطمة كالأمواج العاتية، بينما ترك المجلس خارجًا من السّاحة متوجّهًا لشأنه، كلامه لنفسه: مؤشّرات ردودهم كانت غمزًا، و لمزًا، وكلامي لم يكنْ مُقْنِعًا لهم، هكذا بدا لي، ولكن لم يظهر منهم الشّكوك التي ممكن أن تثور حولي، أو تكشف علاقتي بـ رامز للجميع، وها أناذا حاولتُ بخطوة استباقية لتخميناتهم نحوي، فلن يعرفوا عنّي إلا ما أريد أنا.

ما إن ابتعد عن السّاحة حتّى رجع الرجال للحديث، تعقيبًا وتمحيصًا على ما سمعوا من النّمس.

- سليطين: ألا ترَوْن أنّ (***سوس الخشب منّه و فيه***)، ومثل هذه الأشكال لا يؤتمن جانبها، فهو خنجرٌ مسمومٌ، سَيُغْرَسُ في خاصرتنا عند اللزوم، هذا رأيي

بصراحة، ولكم أن تُصَدّقُوه، أو تُكَذّبُوه، الأيام كفيلة بإثبات صحّة كلامي من عَدَمِه، أو هي مجرّد مخاوف بِنْتُ ساعتها لا مبرر لها.

- إرحيِّمْ: أرى أنّه شيطانٌ خبيث، من أين اخترع قصّة القرابة مع رامز؟، كلّ ذلك كي يبعد الشّبهة عنه في محاولة تضليلنا، وتشتيت نظرنا عن هذه العلاقة المشؤومة مع هؤلاء النّاس الذين لا أمان ولا عهد لهم.

- سويلم: (***على هامان يا فرعون*** ..!!) – وهو يهزّ رأسه باستهزاء مترافقاً مع مقولته-، كَذِبٌ على المكشوف بلا خجل، و لا وَجَلْ، بادرنا بكلامه، لأنّه تَيَقّنَ أنّنا سنعرف بالخبر عاجلًا أم آجلًا؛ ولإبعاد شكوكنا عنه.

- حمدان: المهمّ أنّنا عرفنا هذه العلاقة المشبوهة من بدايتها قبل أن يستفحل أمره، و لو لم نعرف من خبره، لكُنّا لا ندري من أين ستأتينا الضّربة القاضية؟.

- سليطين: الحذر .. الحذر، - يشير بإصبعه باتّجاه النّمس-، أثناء جلوسه معنا، وكلٌّ منكم يُحذّر أهله، وأولاده بطريقة يبتعدون عن حبائله الشيطانيّة، فهو ثرثار لدرجة غير معقولة، فمن الممكن استدراج الآخرين للحديث في أمور السّياسة، فيستغل ذلك، حتّى يأخذ ليرات لقاء إخباريّاته.

يتفاعل الموضوع في ذهن النّمس أثناء مسيره، ازداد الغلُّ، و الحقد على هؤلاء الرّجال، ولكنّه لا يستطيع مجابهتهم وجهًا لوجه، بل أضمر لهم شرًّا في نفسه، يتحيّن ساعة انتقامه منهم: (***العمى في عيونهم العمى***)، ألهذه الدّرجة أنا سيءٌ في نظركم يا كلاب، يا أولاد الكلاب؟، فلتقولوا ما يحلو لكم، يبدو أنّ كلامي لم يكن مقنعًا لكم، وكأنّ هناك من أخبرهم بالحقيقة ..!!، الأيّام بيننا يا أولاد العَرْص، سأجعلكم تَبُوسون حذائي، وما دام كلّ هذا الكلام (***من وراء الحمار***)، فالطّريق أمامي واضحة مفتوحة، ولا أحد يعترضني، فلِمَ أُعْلِي من شأنهم بالتوقّف عندهم، بل سأتجاوزهم،

(***فَلْأَعِشْ، وَلْيَفْنَ العالم من بعدي***).

***

أبو ماجد سعفان، قلّمَا يتواجد في الحارة إلا في المناسبات، فهو تاجر يملك محلًا في السّوق، يمضي معظم أوقاته هناك، لا يعلم ولا يدري شيئًا من شؤون الحارة، ولا ما يحصل فيها، إلا بما تخبره به زوجته أمّ ماجد عند عودته، وفي الغالب يكون التّعب قد أخذ منه كلّ مأخذ، لا ينتبه كثيرًا لما تقوله، يأخذ كلامها على أنّه ثرثرة (نساوين)، لا تسمن ولا تُغْني من جوع، ولا غنى لهنّ عنها، فيما فقط يلبّي رغباتهنّ في الكيد، والنّميمة بالتّشفي، و الحسد من الآخرين، رغم نَهْيَه المستمرّ لها بالإقلاع عن هذه العادات السيّئة بصيانة لسانها، فاليوم كان على غير عادته، انتبه لما أخبرته به من حكاية النّمس المُخْتَلَقَة عندما حَكَى عن قرابته مع رامز، صَمَتَ، ولم يُعقِّب على كلامها، تابع تناول طعام العشاء، وهو يَلُوكُ اللّقمة بصعوبة لجفاف ريقه، فأشار إليها أن تناوله كأس ماء.

يتركّز النّشاط التجاريّ، و حركة القرية كلّها في السّوق، فمن أضاع دابّةً، أو شيئًا عليه أن يُنشده في السّوق، ومن أراد التّسلية بإضاعة الوقت يذهب للسّوق، ومن أحبّ لقاء الأصدقاء من الحارات الأخرى، من الممكن أن يجدهم في السّوق، فهناك ارتباط عضويّ، وروحيّ في مزاوجة عجيبة مع المكان، وهو سرٌّ مكنون يصعب التكهُّن بجاذبيّته.

سعفان محلّه التّجاريّ على طرف السّوق الغربيّ، متخصّص ببيع الأقمشة، و الألبسة الجاهزة، و الأدوات المنزليّة، غالبيّة زبائنه من نساء القرية، ومن يأتيه من القُرَى المُجاورة، يُعْتَبر موقع المحلّ نموذجيًّا لمثل هذه الأنشطة؛ لأنّه يتّخذ زاوية، ويفتح أبوابه على شارعيْن، وهذا مما يزيده شهرة، و الإقبال عليه.

- يذكر سعفان: إنّني تعلمتُ التّجارة بداية على أيدي تُجّار المدينة الشُّوَام (هم الذين جاؤوا من الشّام أي من دمشق، فالشّام في عرف أهل الأرياف دلالة على دمشق)، كانوا يتّخذون من القرية مسرحًا لتجارتهم، وأتقنتُ سِرّ المصلحة منهم، رحم الله من مات منهم، كثيرًا ما كنتُ أتلقّى تعليمات (المعلّم)؛ صاحب الدكّان بصدر رحبٍ و بأريحيّة، فكانت الابتسامة لا تفارقني أبدًا، فأتخيّل أنّني أبتسم أثناء نومي، وصارت حلاوة اللّسان ميّزة لي، تقطر كلامًا جميلًا رائعًا يُمْتِعُ المُشْترين، وطولة البَالِ هي الأساس في عملنا، إضافة لحسن التّعامل،

وإبداء اللّطافة مع الزبائن، وهذا ما يجعل القلوب تهفو إلينا، وللتّعامل معنا، ورأس الأمر كُلّه على الإطلاق الأمانة.

هذه السّيرة يتلوها، ويعيدها للمرّة تلو المرّة للشّاب زكيّ الأجير في محلّ سعفان، وكذلك لابنه ماجد، وهو يتردّد من حين لآخر لمساعدة والده. على حين غِرّة تذكّر سعفان كلام زوجته البارحة أثناء تناوله طعام العشاء، وقصّة النّمس، خاصّة وهو يتطلّع من خلال الشّباك للجهة الأخرى من السّوق المقابلة لمحلّه، جهة مفرزة الأمن، لمح بطرف عينه النّمس، وهو يدخل إليها بعد مصافحة، ومعانقة مع العنصر رامز: الآن تأكدتُّ أنّ القصّة ليست مرتبطة بقرابة، تأكدتُ أنّ الحكاية مُخْتَلَقة من حيث المبدأ، أوّلها كذب وآخرها كذب، التّمويه، والتّعمية على الآخرين، وكأنّه بذكائه يستغبي الآخرين، يا له من مُغَفّل أحمق، يبيع نفسه، وكرامته لشيء تافهٍ مثله، آآآآه.. (***يا مَا تحت السّوَاهي دَوَاهِي***).

***

(٣)

النّقص الشّديد في أعداد المُعلّمات من بنات القرية، ألجأ مديريّة التربية؛ لتعيين مُعلّمات من مُحافظاتٍ أخرى؛ لتَلافِي النّقص وسدّ الثّغرة، كانت موضة جديدة غير مألوفة في أجواء القرية الفلاحيّة المحافِظَة على عاداتها، وتقاليدها، المُعلّمات من بيئة مُتحرّرة مختلفة تمامًا، كأنهنّ مخلوقات قادمة من كوكب آخر، لم يكن معهودًا في الأرياف خاصّة ارتداء قميص، وبنطلون للبنات، ولا الشّعر المُنطلق تُهَفْهِفهُ نُسَيْمات الهواء في جميع الاتّجاهات.

استنفار غير معهود عند شباب ورجال القرية، شيء جديد غير مألوف، أناقة ظاهرة مُلفِتَة للنّظر في الشّوارع، خاصّة طرق المدارس التي تسلكها المعلّمات من بيوتهنّ المُستأجرة إلى أماكن دوامِهِنّ المختلفة.

شمسةُ اسمٌ على مُسمّى، وجهها مدوّر كقرص الشمس، يشعّ بياضًا ناصعًا، عيناها عسليتان واسعتان، وما يزيد الاشتعال بهما، ظلال المكياج الدّاكن بخضرته، كأنّه مَرْجٌ ينحدر باتّجاه عينيْن، تظلّلهما رموش مُنحَنِية باتجاهيْن مُتعاكسيْن، مُكتَحِلتيْن مُتَوَقدتيْن بسحر مُذهل، فنٌّ غريب على أجواء القرية، الوجه طافحٌ بالحيويّة، ريّان بإحمرار كالتفّاح، وضيءٌ كالشّفق في أصيله، شعرٌ كستنائيّ مُنْسَدِل باسترسال على الكتفيْن. صَدرٌ تنافر نَجْدَاهُ، لرسم جغرافيا تهيم بها الخيالات، وتسرح فيها النّظرات الجائعة المتحفزّة للنهش.

يومًا بعد يوم، انتشرت السّيرة فيما بين أبناء القرية، حديث متجدّد أطلق العنان فيه للخيال الخصب بنسج الحكايات، والقصص عن الحبّ، و الهُيام، شهريارُهُم انطلق من عقال واقعه، لجنون عواطفه الظّمآى لمثل تلك الوجوه، كثر اللّغَط فيما بين النّساء، تحرّكت في نفوسهنّ هواجس من الشّكوك، والغَيْرة كادت أن

تحرق قلوبهنّ غيظًا، و كَمَدًا من الخطر الوافد، وقد يغيّر الكّثير من العلاقات فيما بين الأزواج، ومنهم من استيقظ متأخرًا على فُحولة أكل عليها الدّهر وشرب، حدثت مُشادّات كلاميّة في كثير من العائلات، حتّى أنّ بعضها وصل إلى طريق مسدود، وتوقّف استمرار الحياة الزوجيّة بطلب الزوجة للطّلاق، لولا تدخّل أهل الخير بإصلاح الثّلْمَة الطارئة، وترميم ما يمكن ترميمه، وإعادة المياه إلى مجاريها.

خلال شهر من بداية العام الدراسيّ، صار اسم شمسة على كلّ لسان في القرية، فاقت شهرتها، شهرة سميرة توفيق، فكأنّ اسمها انطبق على جسمها، لتكون مختلفة بالفعل. ولَفتَ انتباه الجميع لها.

سعفان من موقعه، ومن داخل دكّانه يُتابع الكثير من شؤون السّوق، بلا سعي منه للمتابعة، ولكنّها تأتي بطريق المصادفة البحتة.

شمسة، كأنّها شمس الرّبيع أشرقت في سماء القرية، تحرّكت قرائح من كتب فيها المطوّلات من شعر ونثر، فقد تجاوزوا فيما قالوا فيها ما قيل في ليلى، ولُبنى، أمّا التحرّش فحدّث عنه ولا حرج، ففي مشوارها الصباحيّ، ينتشي داخلها على تلطيشات الشّباب الغزليّة، فهي تشعر بالاهتمام المبالغ به، فتزداد إصرارًا على عدم الالتفات لأحد، أو مجرد إلتفافة منها بطرفة عيْن، (***كلٌّ يدعي وصلًا بليلى، وليلى لا تقرُّ لهم بِذَاكا***). في صباح يوم أثناء توجهها لدوامها المدرسيّ، لحق بها شاب من أبناء القرية، ينوي التقرّب منها، ويرمي بكلام غزليّ يداعب مسامعها: إيشْ هالحلاوة يا قمر، أموت بس نظرة. تتابع طريقها بلا أدنى التفاتة منها، وكأنّها لم تسمع منه شيئًا، تَعَكّرَ مزاجُها، تتخاطب مع نفسها: يا له من أحمق، وهل لمثلي أن تتنازل، وتتطلّع لمثل هذا الوَغْد؟. تُسَرّع خطواتها لتجتاز المنطقة الخالية من النّاس، فما إن اطمأنّت، حتّى التفتَتْ للخلف، قالت: تفووووو...(تُف). رُذَاذ بُصاقها تطاير على وجهه، فمسحه عندما حسبه عطرًا، وشعر بخيبة الإحباط؛ فَبَرَدَتْ حرارة غليانه الداخليّ، صَمَتَ بذهول، كَمَن صُبّ فوق رأسه دلوٌ من الماء البارد.

استفزّتْ الشّاب، فلم يكن يتوقّع منها هذه الحركة، رغم وقوفه على باب بيته كلّ يوم يراقبها عند انتهاء الدوام، وتابع: سامحكِ الله، أقسم أنّ قصدي شريف.

هزّتْ برأسها، وأضمرتْ في نفسها شرًّا له، بالتقدّم بشكوى عليه في مفرزة الأمن؛ لتأديبه، وعدم التعرّض لها مرّة أخرى، وليكون درساً لبقيّة الشّباب؛ عندما يسمعوا ما حصل لزميلهم.

النّمس يجلس عنده صديقه رامز في المفرزة يُقَرْقِعُ (يشرب) المَتّة، وحديثه يتشعّب باتّجاهاتٍ شتّى، يشرح بإسهاب مُفْرِطٍ عن حياة النّاس، رامز ينصت باهتمام لما يسمع، وإذا استشكل عليه أمر يستفسر بطلب التّوضيح، النّمس لا يعرف من القراءة و الكتابة أكثر من كتابة اسمه، و بالتّالي هو لا يستطيع كتابة صفحة، أو سطر واحد مما هو مطلوب منه، ولكنّه يحكي بشكل مباشر، وفي المفرزة، اعتادوا على هذه النوعية الأُمِيّة، هم يسمعون بآذانهم المرهفة لِتَلَقُّف الأخبار، خبرتهم راسخة في تحويل الكّلام إلى تقرير رسميّ، مكتوب في آخره اسم النّمس بن قَرهُود، ثم يَبْصُمُ بإبهام يده اليسرى تحت اسمه، إقرارًا بما جاء فيه.

قام رامز من مكانه قاصدًا المرحاض؛ لإفراغ احتقان مثانته، وقد قَرْقَعَ (شرب) كثيرًا من المتّة، وما إن صار قُبالة باب المفرزة، وإذ به وجهًا لوجه بالآنسة شمسة، تقف، و الحيرة تبدو على وجهها، حيث أنّها للمرة الأولى الذي تقصد فيه الدّخول إلى هنا.

ابتسم لها رامز، ورحّب بها: أهلا آنسة شمسة، تفضّلي -هو يعرفها من خلال التردّد على المدرسة، لأخذ ملعومات حديثة وجديدة من أجل عمل مُسُوحات سياسيّة، ودراسات أمنيّة يُجرونها في بداية كلّ عام عن المعلّمين والمدرّسين القدماء و الجدد-، تفضّلي اجْلِسِي في المكتب، لكنْ، عن إذنك سأعود بعد قليل.

دخلت، جلست على كرسي قُبالة النّمس، فشعر بإحراج شديد، بين فينةٍ وأخرى يختلس النّظر إليها، وهي تتشاغل عن النّظر إليه بالعبث في دفتر التّحضير، وهي تضعه على مقدّمة رُكبتيْها، لانحسار التنّورة أثناء الجلوس، لحجب ما بينهما إذا ما انفرجتا قليلًا.

دخل رامز، ألقى السّلام عليهما، أشار للنّمس بطرف عينه بأن يغادر المكتب، فلا يمكن أن يحصل أيّ كلام مهما كان أمام أيّ شخص للمحافظة على السريّة. انسحب النّمس مودّعًا، وما زال رامز جالسًا وراء طاولة المكتب العتيقة، أعاد

التّرحيب: أهلًا بكِ فرصة سعيدة، ما هذه الخطوة السّعيدة آنسة؟، ما دام أنّك جئتِ سأجهّزُ المتّة من جديد، وقد طابت الجلسة بوجودك.

- شمسة: أشكرك، لا تزعج نفسك، وقتي ضيّق، كما تعلم هو يوم الخميس، ونهاية الأسبوع، وفي نِيّتِي أن أسافر هذا الأسبوع لرؤية أهلي، منذ شهر لم أرَهُم، سأرجع للبيت لتجهيز أغراضي.

- رامز: ولَوْ يا آنسة، زيارة كريمة عزيزة على قلبي، كأس المتّة لن يُؤخرّك.

- شمسة: شكرًا لك، مثلما تريد، من ثلاثة أيام انقطعتُ منها، وما اشتريتُ، جفاف معدتي كاد أن يقتلني، لولا المتّة ما الذي سيجري لنا ؟، وقد أصابنا الإدمان على شُربِها،- تضحك -

- رامز: هل أزيد السُكّر؟.

- شمسة: لا .. أحبُّها خفيفة السُّكَر، في الحقيقة جئتُك بشكوى على واحد من الشّباب قليلي الأدب، ففي الصّباح تتبّعني أثناء ذهابي للمدرسة، وضايقني لدرجة غير معقولة، رغم صدودي عنه، لكنّه تمادى في الكلام الكّثير، أخيرًا التفتُّ للوراء، وبصقتُ عليه، أخاف أن يُسبّب لي المزيد من المتاعب، بيتهم في آخر الحارة بجانب دكّان صغيرة، صاحبها عجوز يلبس نظّارات سميكة، أتوقّع أنّ اسمه (ناهض).

- رامز: لا تخافي أبدًا، اعتبارًا من هذه اللّحظة لا يمكن أن يتعرّض لك أحد في هذه القرية إلاّ أنا فقط، هل يعجبك ذلك؟، فقد عرفتُ هذا الشّاب التّافِهُ، سيكون حسابه عندي عسيرًا.

- ابتسمتْ شمسة .. هزّت رأسها بإعجاب، قامت من مكانها: وهي تردّد عبارات الشّكر و العرفان. بعد أن ارتشفتْ آخر قطرة من كأسها.

ودّعها للباب ثم رجع، ليمتصّ من المصّاصة التّي كانت بفم شمسة، ويلحس ما تبقّى من أحمر شفاهها، متخيّلًا أنّه يمتّصها، ويعتصرها برغبة، سرح بخيالاته بعيدًا، وهو يقول لنفسه: كأنّني، و لأوّل مرّةٍ في حياتي أقَعُ في شباك الحبّ من أوّل نظرة، بل من أوّل لقاء، امرأة يبدو أنّها فرسٌ شَمُوسٌ، ستكونين لي وحدي .. لي وحدي فقط، مهما بلغ الأمر، ولن أسمح لأيّ كان أن يعبث بك.

بعد انتهاء الدّوام غادر جميع موظّفي المفرزة، رامز هو المناوب مع زميله خليل في هذه اللّيلة، جاءته الفرصة على طبق من ذهب كي يُحْضِرَ الشّاب ناهض، وهو يَرمِي أوّلًا إلى إزاحته عن طريق شمسة؛ كي تبقى له وحده، كما أنّه يريد تجنيده.

***

عاد ماجد من المدرسة مباشرة إلى محلّ والده، دخل للسّلام على والده، و تقبيل يده، تلك العادة ترافقت معه منذ صغره، مصحوبة باحترام شديد مَشُوبٍ بالخوف، وعدم الخروج على كلام الوالد بالمخالفة مهما كلّف الأمر، تتبعُ الأخبار صارت سوسةً، وتَوْقًا في دم ماجد، خاصّة أخبار النّمس ابن حارتهم، تزامن خروج النّمس من المفرزة مع وصول ماجد قُبَالةَ بوابة محل والده.

لا يمكن أن يكون الأمر من قبيل المصادفة أبدًا، - قال ماجد في نفسه، مُسْتعرِضًا نبرات صوت النّمس - كنتُ ألحظ الكذب في عينيْه، رغم صغر سنّي، استطعتُ اكتشاف ما غاب عن الكثير من جيراننا، وهم يُجارُونه في أحاديثه، ولا يُظهرون أيّ ردّ فعل يثير شكوك النّمس، و بأنّهم غير مصدّقين لما يسمعون من قوله، فيضحكون مُتَنَدِّرين بأقواله، وقصصه المتشعّبة، والكثيرة بحيث يصعب إحصاؤها.

سعفان أبو ماجد أثناء وقوفه أمام الشّباك، شاهد خروج النّمس من المفرزة، استعاد حديث زوجته بالأمس، ربط بين الحدثين، أضمر في نفسه معرفة جديدة، لا يمكن أن يبوح بها لأحد أبدًا، حتّى يتثبت بالدّليل القاطع، وغير قابل للشكّ، ولو واحد بالمئة.

بعد قليل خرجت المعلّمة شمسه، وهي وجه مألوف له لأنّها كانت تأتي لشراء بعض الأغراض، هل من المعقول أن يكون هناك رابط ما بين خروج النّمس، والآنسة من المفرزة؟، قال سعفان.

ماجد التقط الحدث أثناء وقوفه على باب الدّكان، حيث لا يوجد زبائن، فتح في ذهنه سجلًّا للآنسة شمسه، أضافه لقائمة الاهتمامات الجديدة.

***

بعد منتصف اللّيل جاءت سيّارة المفرزة معزّزة برامز وخليل بكامل عتادهم، لاقتياد الشّاب ناهض، ما إن أطفئت الأنوار في بيتهم، وأوَوْا إلى فراشهم، وقبل أن تغفل أعينهم، ويستغرقوا بالنّوم، سمعوا ضربًا قويًّا على باب الدّار، أضيئت الأنوار، من جديد قام الجميع مستنفرين، الفزع يرتسم على وجوههم لوحات خوف رماديّة داكنة، أعينهم تدور في رؤوسهم بحركات لا إراديّة، كلماتهم تتلعثم على شفاههم، بصعوبة بالغة يزدردون ريقهم، حلوقهم ناشفة، رُكبهم ترتجف من هول المفاجأة، من الذي يطرق على الباب ؟، قال ناهض بصوت عالٍ.

- جاء صوت رامز: افتح يا ناهض، أنا رامز، أريدُكَ في شيء مُهِمٍّ.

- أمّ ناهض : تُحَرِّضُ ابنها على الفرار عن وجه الدوريّة.

بخطوات ثابتة، مليئة بالثّقة، مُكلّلة بالرجولة، ذهنه منصرف في كُليّته للمنادي، فلم يسمع، ولم ينتبه لكلام أمّه، اتّجه لفتح الباب..

- رامز: أخ ناهض (عاوْزِينَكْ) في موضوع، ولن تتأخّر في العودة للبيت.

- ناهض: حاضر، على رأسي.

صعدوا السّيارة، وانطلقت مُسرعة تنهب الطّريق وصولًا للمفرزة، هناك بدأت مساومات ذات مستويات ما بين ترغيب و ترهيب، أطلق سراحه قُبيْل صلاة الجمعة. توصياتٌ، تحذيراتٌ شديدة اللّهجة إليه بعدم الكلام عما حصل معه في المفرزة أبدًا، ومهما كلّف الأمر، لا تنس أنّك بَصَمْتَ على التّصريح بإصبعك اليسرى وهو محفوظ في إضبارتك، وفيه اعترافاتك الكاملة وهي حُجّة عليك، هكذا أوصاه رامز.

***

(٤)

عريبي شخص غريب الأطوار، ببساطة تصل حدّ البلاهة أحيانًا، وهيجانه العنيف المُؤذي إذا ما خالطه شعور بالضّيق، أو أحسّ بسخرية أحد منه، لسانه لا يتورّع عن القذف، والسبّ، و الشّتم، كلّ هذه التركيبة مألوفة لأهل القرية جميعًا، صغيرهم وكبيرهم، وجهه على صغر حجمه يمتاز ببشاشة مطبوعة فيه، وكأنه خُلق ضاحكًا باعوجاج، وجنتاه ناتئتان بسب غور الشّدقيْن إلى داخل الحَنَك، ضآلة جسمه، وقصره الشّديد، لم يمنعه من المشاركة بارتياد كلّ محافل الأفراح، و المآتم، صار حضوره مميّز في كلّ مناسبة، وإذا غاب لظرف ما، يُفتَقَد فورًا، هو لم ينقطع عن أيّ منها، إلا إذا تصادف وجود مناسبتيْن تضاربتا في الموعد، عريبي بحرٌ بل محيطٌ يتّسعُ لمجتمع قريته مع خنافسها، يقابل كلّ ما يصادفه بابتسامة، تصل حدّ اللامبالاة في كثير من الأحيان.

توحي ملامحه بالطيبة والبراءة، لا يخلو بطبعه من القَمَاءَة، و البلادة في معظم أوقاته، أذناه كبيرتا الحجم قليلًا، نافرتان عن الرّأس إلى الجانبين، كمرآتي سيّارة مرسيدس تنتصبان، ملفتتان بشكلهما الفريد، هو يسمع بهما ما يروق له، و ما لا يروق له لا يسمعه، فَيُشْعِر الآخرين بأنّه أصمٌّ، فيطلقون العنان لأنفسهم بالحديث مُتعمّقين في أشياء محظور الكلام بها علنًا، وهو يستمع ويحتفظ في ذاكرته بما يريدُ، و يفيده في مواقف أخرى، لنقله إلى مجلس آخر، هكذا بكلّ طيبة، وبراءة، بلا قصد منه إيذاء أحد أبدًا.

صراخ .. تصفيق .. صفير .. زعيق ..، مجموعة من أولاد القرية يصدر عنهم هذا الضجيج مترافقًا مع الضّحك، و القفز للأعلى، عندما انزلقت قدم عريبي، وسقط أرضًا، قام غاضبًا، يلتفت يمنةً و يسرةً باحثًا عن الأحجار الصغيرة، ملأ كفّيْه بها، انطلق يتعقب الأولاد، بالسّباب، و الشتائم بشتّى أنواعها، وأصنافها

من العيار الثّقيل، و هو يَئِنُّ من أثر سقوطه، دموعه تنساب، ولا يستطيع مسحها، يصرخ بهياج: (يا ولاد الكلب .. يا ولاد الحرام، يلعن إللي خلّفُوكم، يا دَاشْرين، يا هَمَلْ).

سليطين عائد إلى بيته، اصطدم بحالة عريبي، موقف طارئ مألوف في شوارع، و أزقّة القرية، تماسَكَ بِقُوّة، رغم انفجاره الداخليّ بالضّحك، حتّى يعطي جديّة، ومصداقيّة لموقفه بمساعدة عريبي، خاطبه : ما بك يا بن عمّي، يا عريبي؟.

- عريبي: هؤلاء الزعران لاحقوني، ولم أستطع الفكاك منهم، فانزلقت قدمي كما ترى، الله يجازيهم، الحقُّ على أهاليهم فلم يستطيعوا تربيتهم بشكل جيّد، أولاد كلهم هَمَلْ لا يعودون إلى بيوتهم إلا في آخر اللّيل.

- سليطين: عليك أن تتجاوز مثل تلك المشاكل، و تبتعد عن تجمّعاتهم.

- عريبي: يا عمّي، الشّعب تعباااان.

- سليطين: على كُلٍّ هيّا بنا، سآخذك معي للبيت لتناول الغداء، وبعد ذلك تحضر مناسبة طهور (ختان) ابن جيراننا في الحارة، والله صدَقَتَ بقولك: الشّعب تعبان.

عريبي يضحك بملء فِيهِ، يمشي بهمة، ونشاط، رغم شعوره بالألم من أثر السقوط قبل قليل. الفرح أنساه الألم، حلمه بالطّعام اللّذيذ، كحلم طفل تورّدَ مُنْتَشيًا على حَلَمَةِ ثَدْي أمّه، وهي تُلْقِمه إيّاه، يمتصُّ، ويلهو، وينسى كلّ شيء حتّى الألم.

هو أقرب لحياة التشرّد، موت والدته جعله ريشة في مهبّ الرّيح، تتقاذفه الأقدار من سبب إلى سبب، ومن مُحسنٍ أو يدٍ حانية رائفة به، معاناته تمتدّ لداخل بيته الذي نشأ و تربّى فيه، زوجةُ أخيه تعيش في نفس البيت، أصابها القرف من عريبي، ولا تتوانى في تأجيج تأففها أمام زوجها كوجبة يومية، و ضغطها على زوجها يزداد بفعاليّة بعدما أنجبت طفلاً، فقويت سيادتها، وأوامرها لزوجها، وقد استخذى لها، ولا يستطع رفض طلبها مهما كان.

بموت الأمّ يذهب الشّعور بالحنان والأمان، فقد كانت تملأ عليه حياته، تنظّفه، وتغسل له ملابسه، وتعتني بطعامه وشرابه، ولا تدعه يحتاج شيئًا إلاّ وقدّمته له، فاليُتْمُ يُتْمُ الأمِّ حقيقةً، ومن قال غير ذلك فهو مخطئ، هذه إحدى مظاهر الدوّامة الطّاحنة في أُتُونِها عريبي، ومن هُمْ على شاكلته، تجتاح كلّ شيء، فلا تُبْقِي و لا تَذَرْ.

***

(٥)

أمّ شحدة زوجة وحيد، خلفّتْ بكرها الأنثى، وتابعت حملها، وإنجابها كلّ تسعة أشهر حتّى بلغن خمسًا، تقول: كان قلبي يحترق عندما أرى الأولاد، وأتمنّى على الله أن يرزقني، ولو ظُفْرَ ولد، الحمد لله، حُلُمُ حياتي تحقّق، بمجيء شِحْده، وكنتُ قد نذرتُ أن أسَمّيه بهذا الاسم كي تبتعد عنه عيون الحاسدة، هو عطاء مَنَّ الله به عليّ، الأمر الذي غيّر حياتي، و أصبحتُ أمّ شحدة، قوِيَتْ شوكتي بابني، عيناي تَقَلّعَتا حتّى رأيته، ما إن صار بهذا العمر، فكان (***كلٌّ شِبْرِ بِنَْذر***)، جاء اليوم الموعود المنتظر بفارغ الصّبر، وقد انطبق عليّ المثل (***لاَ بُدْ ما يجي يوم تزغرد فيه الحزينة، ولو بِعُرْسِ جارتها***). تنطلق زغاريدها فتملأ سماء الحارة، عندما أخبرها ابنها شِحدة أنّه أصبح عضوًا عاملًا في الحزب، وهذه البداية هي الدّرجة الأولى في السُلّم؛ ليكون مسؤولًا في الدّولة، بإمكانه أن يأمر، وينهي، وتكون كلمته مسموعة، من خلال جهازه الحزبي.

تذهب بها الذكريات، لأيّام زمان عندما الخوف كاد يقتلها، وهي تتلقّى تهديدات زوجها وحيد، بالزّواج من أخرى، وهو الأمر الذي لم تكن تتخيّله، لغيرتها الشّديدة على زوجها، ولم تكن تأخذ تهديداته على محمل الجدّ أبدًا، خاصّة إذا أطلقَها أمام والدته سواء في حضورها أو غيابها، فهي مالكة لمفتاح سِرِّهِ، وتعلم أكثر من غيرها مُعاناته، من جرحه المكتوم في نفسه، منذ ليلة دُخْلَتِهِمَا، التي كانت حُلُماُ يتمنّاه كلّ شاب مُقْبِل على الزواج، و بداية غير حسنة لحياتهما الزوجيّة، وصارت ذكراها مشؤومة إذا ذُكِرتْ، ولا زالت آثارها منسحبة على علاقته بها لهذا اليوم، رغم مُضِيّ السّنوات الطّويلة عليها، تسخر منه في سرِّها، و لا تتردّد أبدًا من أن تضحك عليه من قلبها، خاصّة إذا انفردتْ به،

وفي نفسها شيء، فيشعر بأنّ خنجرًا منغرسٌ في خاصرته، يتمزّق ألمًا في داخله يقابله بصمت عندما يواجهها، فلا يرفض لها أمرًا، ولا يجادلها.

جاء شحدة، ليكون (ابن عازة) مثلما جرى القول على ألسنة النّاس، جاء بعد سنين طويلة من انتظاره، وفي اللّحظة الأخيرة، حملت به بإذن الله، وقد تردّدت كثيرًا على أطباء النسائيّة، وكَتَبَة الحُجُبِ، و التمائم، كان الأستاذ المشورب بداية، ثمّ تحوّل فيما بعد ليصبح الشّيخ المشورب، و المشورب اسمه الحقيقيّ، وتيمّنًا بأن يعيش ويصير رجلًا كذوي الشّوارب الثّخينة الأشّداء، أسماه والده بهذا الاسم الغريب في بيئته الفلسطينيّة آنذاك، بناء على رغبة والدته، فقد جاء على رأس خمس من البنات الأخوات له، وكانت له الحظوة لدى والديْه، ويبدو أنّ التّشابه قد حصل لأمّ شحدة بحملها ابْنًا ذكَرًا هذه المرّة، على يد المشورب، و لا يدري ما الذي تخبّئه له يد الأقدار، وقد حظي بالنّصيب الأكبر من مراجعاتها له من بين كَتَبَة الحُجُبْ، وهذه الحادثة (حمل زوجة وحيد)، بذلت له الشّهرة على مستوى القرية عمومًا، حتّى أنّ النّاس صاروا يأتونه من أقاصيّ البلاد، لقدراته الباهرة، و سمعوا عنها مما تتناقله ألسنة النّاس، وكل ناقل يزيد على ما سمع، حسب تجليّات خياله الخصب، وإعطاء هالة من القداسة، وكم من دموع العواقر سُكِبَتْ بين يديه، و هنّ يبذلن أموالهنّ، وتناقلت الألسنة حادثة عن المشورب، ربّما تكون فقط من قبيل الدّعاية، حيث أنّهم لا يعلمون عن حقيقة وقوعها، كونهم سمعوا من سامع، عن سامع آخر، وهكذا لا تنتهي السّلسلة بخبر يقين: "أنّ إحدى النّساء الثريّات جاءت من منطقة بعيدة، بسطت أمامه مصوغاتها الذهبيّة، و مجوهراتها، ودموعها، طالبة منه أن يَرْقِيها ويعالجها، ويكتب لها حجابًا لا يأتيه الفشل من بين طيّاته، و لا من انفلاتها، لعلّه يكون سببًا في حَمْلٍ طال انتظاره، وهي في منتصف عقدها الثّاني من الزّواج".

كبار السنّ في القرية لا يزالون يذكرون عبدالجبّار، ذلك الرّجُل الأميّ الذي يعمل بتبييض أوانيّ النّحاس الكبيرة والصغيرة، ويطلقون عليه اسم(المبيّض)، عندما جاءته امرأة بدويّة تشكو إليه عُقْرها، وأنها تزوّجت منذ سنوات، ولم يكتب الله لها أن تحمل، وطلبت منه أن يدلّها على شيخ يكتب لها حجابًا، فانتخى

عبدالجبّار لها: أنا سأكتب لك، خرج من مكانه يبحث عن ورقة، فوجد ورقة بيضاء يلعب بها الهواء، من بقايا علبة دخّان فارغة، فقام بطيّها عدّة طيّاتٍ، فصارت على شكل مثلّث، فقال لها: (***هذا دواكِ، وعلى الله شِفاكِ***). هو لم يكتب شيئًا أبدًا في الورقة، أعطاها صفحة بيضاء كقلبه الأبيض، الموقن بنتيجة عمله، ونبّهَهَا ألّا تفتح الحجاب كي لا يفسد مفعوله، وأمَرَها بالمحافظة عليه دائمًا، وأن تعلّقه برقبتها على مدار يومها، ولا أن تخلعه أبدًا.

حال الحَوْلُ، وإذا بامرأة تحمل طفلها في حضنها، عبد الجبّار نسي الأمر من أساسه، لم يعُد يذكر ذلك اليوم ولا شيئًا منه، إلى أن جاءته الهديّة المجزية من المرأة البدويّة، حاملة له من السّمن العربيّ، واللّبن، والجميد، وصارت تأتيه بذلك كلّ سنة، كما نَذَرَتْ على نفسها، وأبرّتْ بقسمها.

قبل عشرين سنة أقيم احتفال، عمّت الفرحة القرية كلّها، بالتّهاني و التّبريكات، عندما وضعت زوجة وحيد ابنها شحدة، ومن وقتها ووحيد مَيّلَ عِقالهُ باتّجاه يمين رأسه، وإلى الأمام قليلًا، مُتَمَيّزًا به عن باقي أبناء جيله من الرّجال، بعدما كان مهيض الجناح، و اليوم يقام احتفال لا يقل أهميّة عن ذاك.

عاش شحدة حياة دلال و رفاه، يأمر فيطاع، أمّه تُداري ابنها أكثر مما تداري عينيْها، ترعاه بعناية غير طبيعيّة، جسمه ضعيف بالنسبة لأترابه من الأولاد، دَخَلَ المدرسة، كانت تتألّم عليه، وتجبر أخواتِه على كتابة الواجبات المدرسيّة عنه؛ كي لا يتعب، دَرَجَ على عادة الكسل والتّكاسل، فما إن وصل إلى الصفّ التّاسع، لم يوفّق في عامه الأوّل بالنّجاح، أعاد سنة أخرى، والنتيجة نفس سابقتها، وفي الثّالثة حالفه الحظ بدرجة مقبول. كان احتفال العائلة كبيرًا بنجاحه، توالت التّهاني، و التّبريكات من نساء القرية.

أمّ شحدة، وأمّ فرج زوجة النّمس يرتبطن بقرابة بنات الخالات، وكان هناك نوع من التواصل الرّحِميّ فيما بينهنّ، رغم أنّ أمّ فرج معزولة عن العالم خارج بيتها، إلّا عن أمّ شحدة، هما متماثلتان في كثير من معطيات حياتهنّ.

القاسم المشترك بينهما، أنّهما غريبتان عن القرية، وأنجبن البنات أوّلًا، أمّ شِحْدة أنجبت خمس بنات في البداية، وجاء الولد الأُمْنِيَة في نهاية المطاف، ولكنّهما مختلفتان في وضعها العائليّ، فأمّ شحدة امرأة جسورة قويّة بشخصيّتها، متنمِّرَةٌ

على زوجها فلا يستطيع رفض طلب لها، يسترضيها بكلّ وسيلة خوفًا من غضبها، متحكمّة في تسيير شؤون أسرتها، ذكرت بعض النّسوة: أنّ فشل وحيد بافتضاضها ليلة الدُّخْلة عليها، صار مهيض الجناح، وانكسر شيئًا من رجولته، فضعف أمامها، ليلة وراء ليلة وهو في حيرة من أمره، ووالده، ووالدته استنفرا لحال ابنهما، وأكبرُ هَمٍّ لهما هو عدم انتشار الخبر في القرية، فتكتّمُوا على الأمر، إلا على نطاق ضيّق داخل الأسرة، إلى أن حصل خلاف مع أخت وحيد بعد زمان، فأفشت السرّ.

بينما أمّ فرج على العكس تمامًا، أنجبت ثلاث بنات، ماتَتْ اثنتان من مرض أصابهما في صغرهما، وبقيت واحدة، تزوّجَتْ فيما بعد في قرية مجاورة، فالنّمس ظالم لها، ولا تستطيع إلا أن تسمع، و تطيع، وتقول: نعم و حاضر.

الاختلاف الوحيد بين الولديْن فرج، و شحدة، هو أنّ الأوّل رسب في السّنة الأولى في الصفّ التّاسع، مما جعل النّمس يتهدّده، ويتوعدّه بالضرب، والعقوبة القويّة، لذا كان عليه النّجاح في السّنة القادمة، وكان للنّمس ما طلب من ابنه قد تحقّق. بينما شحدة لم يحالفه الحظّ في النجاح، إلاّ في عامه الثّالث.

فرج كذلك صار عضوًا عاملًا في الحزب، والده النّمس عوّل على توظيفه في أيّة دائرة من دوائر الدّولة، فهو يحلم بالابن الذي يمسك راتبه في آخر كلّ شهر، ويقوم بتسليمه لأبيه، هذا الابن طائع لا يخرج عن طاعة أبيه، أحلام الثّراء تراود مِخْيَال النّمس، فحدّثته نفسه: يا ولد، (***إذا دَرّتْ عُنَزَكْ احْلُبْها***)، ها هو رامز، وهو المفتاح لما أريد، ولا أظنُّ أن يَتَوانَى عن خدمتي في توظيف الولد.

في المساء ذهب النَمس إلى السّوق، قاصدًا المفرزة؛ كما في زياراته الاعتياديّة اليوميّة، وشبه اليوميّة؛ لإفراغ ما في جعبته؛ مما تنامى إلى سمعه من أخبار القرية، أخيرًا يبصم بإصبع الإبهام اليسرى على ورقة التّقرير المكتوبة بخطّ رامز، بعد هذه المدّة من العلاقة، وتفاني النّمس بالخدمة التي قدمها، فقد ثبت لرئيس المفرزة أنّ النّمس عنصر ناشط، ونافع، فقام برفع كتاب إلى رئيس الفرع، يقترح فيه بتخصيص راتب شهريّ للنّمس، بدل الدّفع عن كل تقرير، وبهذه الصّورة صار النّمس يُكَلّف بمهمات تجسسيّة رسميّة في القرية،

وخارجها، أو في أيّ مكان يرون ضرورة تواجده فيه. ليس غريبًا أن يتماثل النّاس في كثير من الأشياء، ربّما بطريقة لباسهم ومظاهرهم، وتعاطيهم مع مُخرجات الحياة، أما لدرجة التّطابق فيما بين شحدة وفرج؛ لدرجة فاقت التصوّرات على مستوى القرية، كلاهُما وحيد لأمّه و أبيه، وكلاهما لم ينجحا من أوّل سنة في امتحان الشّهادة الإعداديّة، وكلاهما حصلا على وظيفة مستخدم، وكلاهما ارتبط بطريقة، أو بأخرى بالدوّامة، وقادتهم الظّروف إليها مكبّلين بعوامل الفقر، والعَوَز.

جلس النّمس على الحجر الأملس على باب المفرزة، بعدما ألقى التحيّة، بينما رامز يجلس على كرسيّ، وأمامه طربيزة (طاولة صغيرة) عليها عدّة شُرْبِ المتّه، وبجانبها على الأرض (بابور) غاز صغير؛ لتسخين الماء كلّما برد.

- رامز: أهلًا وسهلًا، لك عندي خبر طازج، لم تسمع بمثله في حياتك، سيسعدك بكلّ تأكيد، وهو خبر عاجل، ولا زال سريًّا لهذه اللّحظة.

- النّمس: خير إن شاء الله، تكلّم يا رجل، أعصابي تكاد تتلف، ولا أستطيع الصّبر.

يضحك رامز بصوت عالٍ، ثم يمدّ يده فيتناول فنجان المتّه، يشفط بعمق؛ فيأتي على آخر قطرة من الفنجان، يعاود تسليته بملء الفنجان من جديد، ووضع القليل من السُكَّر عليه، يعيد الملعقة الصّغيرة لمكانها في علبة السُكّر.

النّمس يفرك كفّيه ببعضهما بحركة عصبيّة تنبئ عن نفاذ صبره، رامز غير عابئ بحركاته تلك، لأنّه يرسم، والرّسم بحاجة للتأنّي، للحصول على نتيجة نهائيّة حائزة على رضاه التّام؛ لإشباع رغبته في السّيطرة على عقل، ومشاعر مستمعه، فيستحوذ على أحاسيسه ومشاعره؛ ليوجهها بالطّريقة التي ستخدم ما يصبو إليه، وتحقيق كلّ ذلك، على نار هادئة. يسحب من سيجارته نفسًا عميقًا، ينفث الدّخان، تتشكّل سحابة كثيفة بينه وبين النّمس، ويتابع: يا نمس أنت تستحقّ كلّ خير، ومن يكنْ معي فلن يندم أبدًا، منذ فترة اقترحتُ على مدير المفرزة، أن يخصّص لك راتبًا شهريًّا، بعدما ثبت عندي بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّك مخلص ونشيط، وهذا أفضل لك بكلّ تأكيد.

- النّمس: لن أنسى لك معروفك هذا مدى الحياة، بالفعل خبر مفاجئ، في هذا المساء ذهني مشغول بقضيّة تكاد تقلقني، منذ أيّام، وأحببتُ مُشاورتكَ، علّك ترشدني إلى طريق الصّواب؛ لأسلكه.

- رامز: كُلّي آذان مصغية، تفضّل.

- النّمس: ابني فرج حصل شهادة الكفاءة (الصف التاسع)، مضى على نجاحه حوالي ثلاث سنوات، والعمل في القرية قليل، ومتقطّع يوم هنا، وآخر هناك، أريدُ أن أبحث له عن وظيفة، رغم أنّ الرواتب قليلة، وحال الموظّفين تعبانة، لكنّ الوظيفة أضمن للمستقبل، خاصّة لمن هم مثل ابني (أولاد عازة)، مُدلّلين لا حيلة لهم على الأعمال ذات الجهد العضليّ، و أنا لن أدوم له مدى الحياة، كما أنّ (***الشّهر وراء الباب***) كما يقولون، وراتبه مضمون (***عَطّال بَطّال***)، وأنا شخصيًّا لست بحاجة إلى راتبه، ظنّي أنّه سيلتهي بالوظيفة، ويبتعد عن المشاكل كما تعلم، ورفقاء السّوء.

النّمس يتكلّم، ويشرح لرامز، وضجّةُ السّوق لا تتوقّف مختلطة بأصوات الباعة مع المتسوّقين على مدار السّاعة، وماجد هناك على الطّرف الآخر، يرصد تلك الجلسة من شبّاك دكّان والده، أصبحت علاقة النّمس برامز معروفة للقاصي، والدّاني في القرية، و ما زال يصرُّ على ربط رامز بصلة قرابة به، بعيدًا عن قضيّة أخرى، على اعتبار أنّ تطوّر العلاقة بينهما يستتبع أن يكون هناك مبرّر لها، على الأقلّ بنظر النّمس، و إيجاد المبرّر الأدبيّ تجاه عامّة الناس في القرية.

- رامز: فهمتُ عليك، فكما أذكر أنّه في شعبة الحزب هناك شاغر؛ علمتُ بذلك من خلال ذهابي شبه اليوميّ إلى مَقَرّ الشّعبة، أخبروني عن تقاعد المراسل سلمان المهريّ، وما زال قائمًا على رأس عمله، ريثما يصدر قرار بتعيين المراسل الجديد، ويشتغل بأوراق تقاعده، غدًا لي مشوار إلى الشّعبة، سأتكلّم مع أمين السرّ هناك؛ لترشيح فرج للوظيفة، اعْتَبِرْهُ أنّه هو المرشح الأوفر حظًّا، وإن كان هناك أسماء رُفِعَتْ قبل ذلك، سيكون ترشيح ابنك من قِبَلِنا نحنُ، لاسيّما، و أنّه ترفّع إلى عضو عامل في الحزب، وأنا مَنْ عملتُ الدّراسة الأمنيّة عن قسم كبير من المترشّحين للعضويّة.

وكان اسم فرج من نصيبي في التّقْييم الأمنيّ، ومن يومين وصلتنا قائمة بأسماء المرشّحين للنّجاح، وهذا وحده يكفيني لأن أطرح اسمه بقوّة. رنين جرس التّلفون يتواصل، يستأذن رامز من النّمس صديقه: على كُلٍّ غدًا في مثل هذا الوقت، راجعني، وإن شاء الله يصير خيرًا.

***

يسير النّمس شرقًا حتّى بلغ آخر السّوق، لا يدري أين يذهب، و ما الذي سيفعله، الأحلام تكبر برأسه مُنَطاولَة بلا حدود، تكاد تُنَاطح السّماء، عيونه ساهمة في الأفق، يسمع التحيّات تُلْقَى عليه، ويردّ التحيّة عليهم تلقائيًّا بلا انتباه، يبدو أنّني أصبحت على عتبة مرحلة جديدة، ستتغيّر معطيات حياتي معها، ما هذا الحظّ الذي يفلق الصّخر..!!؟، لا ينتبه إلا بعودته لمكان انطلاقه، يعود أدراجه بعدما صَحَا من انتشاءٍ أسْكَرَهُ، فأنساه نفسه، تذكّر أنّ عليه أن يُمضي هذه الفترة في دكّان عكّاش، حيث يجتمع هناك بعض الأصدقاء، يتجاذبون أطراف الحديث المتشعّب في اتّجاهات شتّى، واحتساء القهوة المُرّة عطر المكان، وزَادُ المجالس، ولا غنى عنها أبدًا، ممكن الاستغناء عن الشّاي مثلًا، أما عنها فلا.

عكّاش تاجر من جيل عريق، يبذل محبّته للنّاس جميعًا، ينثر البِشْرَ من وضاءة وجهه، و طلاقته الموحِيَة بالكثير، يحبّ اجتماع الأصدقاء في دكّانه الكبيرة. ذات زمان مضى، كان لها شأنٌ مرموق، يُحسد صاحبها عليه، فعاليّتها الهامّة من كونها تحتوي على كل حاجات النّاس في حياتهم اليوميّة و الموسميّة، تأسّسَتْ منذ بداية القرن على يد والده المرحوم، وشركائه الشّوامْ من أهل الشّام، وفي العُرْفِ يقصدون بالشّام المدينة دمشق، أهل القرية يُطلقون عليهم اسم (الشّوامْ)، تمييزًا لهم عن أبناء الفلاّحين؛ ولأن أصلهم أساسًا من الشّام.

أرففٌ خشبيّة كثيرة طويلة عريضة، تنتصبُ من أرضيّة المحلّ حتّى السّقف العالي، كلها خالية من البضائع الآن، بينما كانت في يوم ما تغصُّ بها، إلّا من بعضها المتفرّق هنا و هناك، وصورة قديمة كبيرة للرّئيس شكري القوّتلي

بالأبيض و الأسود، على جوانبها اصفرار بتعرّجات بين امتداد يتغوّل إلى الدّاخل، و انحسار في جوانب أخرى، الرّئيس بوجهه الصبوح، المعبّر عن وجه سوريا، تلمح في عينيه الأمل المتفائل بالمستقبل، طربوشه يُنبئ عن طبيعة مرحلة عزّة وكرامة و أصالة، شاربه مميّز بأنّه فقط يأخذ مكانه ما تحت أرنبة الأنف، بشكل مربّع، أو قريب من المستطيل، وقد سجّل علامة فارقة في هذا النّوع من موديل الشوارب السّائد آنذاك، تقاطيع وجهه تستحوذ على أذهان المواطنين، برمزيّة جلاء الفرنسيين، و نَيْل الاستقلال، وبقيت هذه الصورة في دكّان عكّاش شامخة، شاهدة على أيّام رئاسته للدّولة على فترتيْن بعد الاستقلال، بصمتها تروي حكايات مثيرة من غير كلام.

الأستاذ فهيم يطيب له المرور على صديقه عكّاش، فما إن يطأ بقدمه عتبة المحل، ينطلق لسانه بالترحّم على صاحب الصّورة المتربعة في مواجهة الباب، وفي كلّ مرّة على الدّوام، يُردّد على مسمع ممن يكون حاضرًا: سيكتبُ التاريخُ بأحرف من نور، على ألواحِ الذهب، تنازل شكري القوّتلي عن رئاسة الجمهوريّة العربيّة السوريّة، مِن أجل الوحدة مع مصر، فَعَلَها هو وَحْدَهُ، ولم يفعلها أحد غيره من زعماء العرب، أو غيرهم، مُتفرّدٌ بمزيّة داعبت أحلامنا في الوحدة المنشودة، بالوحدة نقوى على مشاكلنا الداخليّة، و الخارجيّة.

كثيرون ممن يسمعون كلام الأستاذ يستغربون هذه المعلومة، لأوّل مرّة في حياتهم يَمُرّون بها، الأستاذ فهيم عنده تركيز شديد على إيصال مفاهيمه للآخرين، بما يعتقده أنّه تثقيف للجماهير، عن قصد يُكَرّرُ كل معلومة بذهنه على طريقة التلقين المدرسيّة، حتّى أن الكثير منهم حفظوا مقولاته، يتناقلونها في أحاديثهم أثناء جلساتهم، ولقاءاتهم، وفي كلّ مرّةٍ يَلمَحُ في وجوههم شيئًا من عدم الاهتمام، أو اللامبالاة، أو التذمّر، فيقول لهم: في الإعادة إفادة.

عكّاش لا بضاعة لديه مما يحتاجها النّاس في استهلاكهم اليوميّ، بل هو تاجر حبوب، وزبائنه موْسِمِيُّون محدودي العدد، فقط عمله مُتركّز على شراء، وبيع الحبوب من الفلاحّين عند الموسم؛ فَيُكدّسها في مخازنه المعدّة لهذه الغاية، في موسم الزّراعة في تشارين، يشترون حاجتهم من البِذَار، يعطيهم حاجتهم، ويصبر عليهم بما نقص من أثمانها؛ يعود ليستوفيها من حصيلة البيدر.

رائحة مميزة تفوح من داخل الدّكان، تلفح أنوف العابرين من أمامها، رائحة السّمن العربيّ، واللّبن الجميد يكون على شكل أحجار بحجم قبضة اليدّ متوسطّة الحجم، هذه المواد مقتصر بيعها عليه، وعلى اثنين غيره من تجّار القرية، صناعتها من اختصاص البدو الذين يملكون الأعداد الكبيرة من الحَلَالِ (الغنم والماعز)، فالبضاعة مكفولة لمن يشتري من عند عكّاش، لا يناقشونه إلا بالسّعر فقط، فالجودة مضمونة كما عرفوها على مدار سنين مضت.

***

(٦)

الصيّاد أيًّا كان صيده، فلا بدّ له من أدوات و حِيَلٍ، ومكائد يستخدمها، ويسلكها، فالغاية عنده تبرّر الوسيلة، أفخاخ النّمس ذات السّمعة الكبيرة، لا تزال مربوطة هناك في الكرم بالسّلاسل و الأوتاد، مراقبته لها ليلًا من العريشة على سطح البيت لا تتوقف تلك هوايته، وقد أخذت أشكالًا أخرى من خلال معرفته برامز، الذي صار صيّادًا للبشر يوقِعَهُم في حبائله إخلاصًا لوظيفته، و الدّعْس على قلبه الحجريّ، وعلى كلّ المشاعر، و الأحاسيس حتّى و المقدّسات.

أفخاخ الكلام موضة النّمس الحديثة، للإيقاع بالآخرين، والإنصات باهتمام بالغ، وهو يصيخ السّمع لكلّ همسةٍ، ولما يُحْكى في المجالس حينما يتواجد فيها، يخدم أيضًا مصلحته من أجل الحصول على المال.

شمسة فريسة حان وقت مطاردتها، هكذا تخيّلها رامز، سيطر طيفُها على مخيّلته ليل نهار، أَغْلَقَتْ عليه كل أبواب عقله، فَجَرّدَها من ثيابها في خياله، وهي واقفة منتصبة، كما تمثال مرمريّ لا ينحني أيضًا، ولا هي تنحني، ألبسها ثيابها الداخليّة فازداد شبقه، لمعان الشّيفون يشفُّ عن مَرْمَرٍ حليبيٍّ لامعٍ تحته، بريقٌ في عينيْه مليءٌ بحرارة تفيض على أجواء المكتب الكئيب، المُمِلِ برتابته العمل الروتينيّ بشكل يومّي، نبرات صوتها أقضّت مَضْجَعَهُ، دخان مستمّر، حيث ازداد معدّل تدخينه خلال هذه الفترة، لا يتوقّف عن التفكير بها، هي لازالت في سَفْرَتها إلى قريتها في نهاية الأسبوع. فما إن جاء الفصل الدّراسيّ الثّاني، وبعد الانتهاء من عطلة الربيع، حتّى اتّخَذت قرارها بالسّفر لرؤية أهلها في نهاية كل شهر فقط؛ عندما تقبض الرّاتب.

شمسة، يا شمسُ.. أشْرَقتِ في حياتي، يقول رامز لنفسه، متابعًا: ليتكِ أمامي الآن لقمتُ واقفًا بين يديك، ساجدًا عند قدميْك، وأصبح قِدّيسكِ المُتَبَتّل بمحرابكِ، أيّتها المرأة السِّحر، شَمْسُكِ أحالتْ ظلام حياتي نهاراً مُتَوَهِجًا، فَانْتَفي اللّيل من قاموسي.

اعتادت أمّها الأرْملة هذا الأمر، واستحسنته، لتوفير إيجارات المواصلات بين المحافظتيْن، فالذّهاب، والعودة في كل أسبوع مُكْلِفٌ، ونحن بحاجة إلى كلّ قرش يا بنتي، بَدَل أن تدفعيه للسّيارات، هكذا أفضل و أحسن، أخوك محسن منذ فترة لم يحصل على إجازة، ولا يأتينا، بل يذهب إلى سوق الهال في العاصمة، يُواصل اللّيل بالنّهار، لتأمين مستلزماته، والتخفيف من الأعباء علينا، إحساسه هائل بالمسؤوليّة، يا ولدي ..!!، كان الله في عونه و حماهُ، وكلّها شهريْن، ويَتَسَرّح من الخدمة، وتنفرج أمورنا الماديّة، هذا ما كانت تردّده على مسمع شمسه، وذلك لتتدبّر أمور الأسرة المقتصرة على الأمّ، و أختيْن لشمسه، تركهما الوالد بعد وفاته منذ سنوات، شمسه هي الكبيرة، يجيء بعدها في الترتيب أخوها العسكريّ في تأدية الخدمة الإلزاميّة، الأمّ نشيطة فهي لا تتوانى عن العمل في أيّ شيء، ممكن أن تحصل منه على المال من أجل تأمين متطلّبات الحياة، وتليين قسوتها، والبنتان واحدة تدرس في معهد إعداد المعلّمين في سنتها الثّانية، والأخرى في صفّها الحادي عشر.

غرفتان مستقلتان بمنتفعاتهما، وهما السّكن الذي استأجرنه المعلّمات، شمسة و قمرة في غرفة، وعليا و نورة في الأخرى، يتقاسمنَ الغرفتين و المصاريف، و الأجار و التّنظيف، والطبخ و جلي الأواني، ودفتر صغير تُسجّل كلّ واحدة منهنّ ما تشتري من أغراض للبيت؛ وفي آخر كلّ شهر تجري عمليّة جرد الحساب. شمسة في مدرسة، بينما قمرة و نورة وعليا في مدرسة أخرى.

الظروف تخدم وتحكم، تخدم من توافرت له فرص من الحظ، وتحكم بالضيق و الضّنْك على من تباعد الحظ عنه خطوات، كثير ما تأتي الظروف مُواتِيَة للهوى، أو تعاكسه.

(***ما كلُّ ما يتمنّى المرء يُدركه = تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن***).

وأجمل الحديث ما كان ليلًا، تنام القرية، وما زال الحديث مستمرًّا في غرفة شمسه مع زميلتها، آمالٌ مفتوحة على كلّ احتمالات الحياة، وأحلامٌ بلا حدود، منفلتةٌ بتجاوزها المنطقة الرماديّة من عالم الخيال، تكاد تلامس القمر، وتنير دُجَى الأفكار، فتنتشي الأجساد المتعبة، بعد طول تثاؤب، وطلبًا للنوم، أخيرًا تستسلمان لسلطان النوم عليهما، فما هي إلا ساعات قليلة يبتدئ الدّوام، فالمدرسة و الطلّاب بالانتظار.

كلّ ما تفكرانِ به مطروح للنقاش، و التّداول على طاولة البحث بحميميّةٍ مُطلقة، تناغم في الأفكار حدّ التّطابق في نسبتها العالية، مما جعل الشّوق يحرقها، للقاء آخر، فيما بعد الدوام، و السّباحة في بحار رومانسيّة شفّافة، ببساطة رُؤى الصّبايا المُسَطّحَة لأمور تنمّ عن قلّة خبرتهنّ في الحياة، و التي تأتي عادة نتيجة الخبرة، و التجربة من خلال الممارسة العمليّة.

***

(٧)

نعم .. نعم، سنرى العجب العجاب في مثل هذا البازار الذي حدّثتني عنه بالأمس، ومنذ تلك اللّحظة غشيني استغراق فكريّ، قادني للتعمّق كثيرًا، فيما وراء ستارة الواقع الظاهر لنا، توصلّت لنتيجة أنّ كلّ شيء يمكن عرضه للبيع، المزاد يقترب من الأفكار و الأخلاق و السلوكيّات، يا للغرابة ..!!، في أيِّ زمن صِرْنَا، الشّك صار يتسرّب إلى نفسي أنا، أن تكون معروضة في مزادات الاحتفالات البازاريّة، المُقامة لبيع الذمم والضمائر، ولا علم لي بذلك. بلهجة غاضبة ناقمة، يتحدّث الأستاذ فهيم لصديقه فارس.

- فارس: لا، يا أستاذ فهيم، حاشاك العيب، فأنت ..أنت، ومن المستحيل أو الممكن أن تكون أنتَ بالذّات في عِدَادِ المنغمسين في أوحال صنعوها لهم، يرفلون في مستنقعات وضِيعَة، لا يروْن أبعد من رغيف خبزٍ يقتاتون عليه، وبذلك يختصرون الحياة كلّها ضمن إطار الرّغيف.

- الأستاذ فهيم: أشكرك، عزيزي فارس، فكثيرًا ما يستقرّ الرأي لديّ أنّ معرفتكَ بي، ربّما تعادل معرفتي بنفسي، و أيّام شبابنا خير شاهد على ما تقول وتتفضّل به.

- فارس: حديثك هذا أثارني، مما أضاف لنفسي شيئًا من الضّيق، و لا أدري ما الذي جلب إلى ذهني قصيدة الجواهريّ في هذه اللّحظة، (***أزح عن صدرك الزّبَدا- و دَعْهُ يبثُّ ما وجدا***)؟.

- الله عليك يا فارس، من أين جلبتها في هذا الوقت؟، أغْبِطُك على ذهنيّة متوقدّة تتمتّع بها، تستطيع استحضار الشيء المناسب في وقته، فقد أرَحْتني كثيرًا، أشعرُ بانبساط في قلبي، وانشراح في صدري: (***أزح عن صدرك الزّبَدا*** ..) أيّ عقل لهذا الجواهريّ عندما أبدع مثل هذه الرائعة.

- فارس: كأنّه أصابني مسٌّ من جنٍّ عبقر، وبزغت في ذهني للتوِّ فكرة ربّما توحي لك بكتابة قصيدة عصماء بالنسج على منوالها، وأنا أستمع إليك، سأتلوها: "للأبيض لغةٌ في عُيوني.. يُردّدها قلبي بلا انقطاع. والأسود يروي سيرة ظلَامٍ عن ظالمِ".

- فهيم: بصراحة أجد نفسي في مجالساتنا، ومطارحاتنا، مستمتِعًا مُحلِّقاً في أجواء السّماء، أكاد ألامس النّجوم، وأنا أقف على حافّة القمر أتطلّع من علٍ إلى كرتنا الأرضيّة البائسة المليئة بالظلم، و المظالم و التّظالم، من الإنسان لأخيه الإنسان.

أزح عن صدرك الزَّبَدا = وهلهل مُشرِقاً غَرِدا

وَخَلِّ " البومَ " ناعبةً = تقيءُ الحِقْدَ و الحَسَدَ

هذا كلام يجلو عوارض الحوادث في دواخلنا على الأقلّ، أذكر أنّني قرأت هذه القصيدة في فترة مضت من أيّام الشباب، ولم أحفظ إلا مقاطع منها، فهي لا يمكن أن تُنْسى، أزح عن صدرك الزَّبَدَا.. صديقي فارس، عَلّنَا نقف على بداية حقيقيّة للدوّامة المُلْتَفّة حول أعناقنا تطوّقنا، و لا فكاك لنا من تأثيراتها.

التّشابك في الأمور حدّث عنه ولا حرج، تعود بي الذكريات إلى أيّام ما قبل التّقاعد، ففي المدرسة، - وتقريبًا في معظم الصفوف الإعداديّة، و الثانويّة التي كنت أقوم بتدريس الطلّاب فيها، مادة اللّغة العربيّة -. كثيرًا ما كان يخالجني الشكّ في عدد منهم بارتباطهم، وتجنيدهم من قبل أجهزة الأمن كمخبرين، متدرّبين على كتابة التقارير بزملائهم، وأبناء حارتهم، كما أنّ المُدرّسين هم الفئة المستهدفة أكثر من غيرها، يترصدّها مثل هؤلاء للإيقاع بهم.

تقاعد الأستاذ فهيم من الخدمة في سلك التعليم، وقد استهلكت أربعين عاماً من حياته قضاها معلّمًا، ومُدرّسًا في معظم المراحل من الابتدائيّة و الإعداديّة و الثانويّة. وكأنّه قد نال من اسمه كلّ النّصيب من العلم، فكان اسمًا على مسمّى، هذه حقيقة قلّما تجد لها مثيلاً في دنيا الواقع.

تغيم نظرات الأستاذ فهيم في الأفق البعيد، ينسى نفسه، وكأنّ بساط الرّيح حضر ليأخذه في رحلة إلى الوراء، وانصرام أيّام الشباب، رغم الصحّة العامرة

له، وبنيته القويّة و حيويّته، تُناهز قوّة الشباب، سنتان زادتا على العقد السادس في العمر، ولا يزال متدفّقًا كالنّهر بلا توقّف، يبادر للمناسبات، وزيارة الأصدقاء بشكل دوريّ، وهو يتّخذ من المشي رياضة فريدة مدهشة.

- ويتابع: عزيزي فارس، لم أحمل احترامًا شديدًا لشيء ما في نفسي أكثر من الجريدة إلاّ للكتاب، استعادتني الذاكرة إلى أيّام نتائج الثانويّة في أواخر الستّينيّات من القرن الماضي، تَذْكُرهَا جيّداً.

- فارس: نعم أذكرها ولن أنساها، مهما عَدَت الأيام على ذاكرتي المتوقدّة، وكأنّ الأمر أمامي، حصل للتوّ، عندما ذهبتُ إلى أبي أسعد، طالبًا منه أن يجلب لي معه نسخة الجريدة لذاك اليوم، عند عودته من الوظيفة في مركز المحافظة، وهو اليوم الفارق في حياتنا. ذاك الجيل معاناته تتوزّع على كلّ المستويات، حتّى من حصل على الشّهادة، وأوجد لنفسه مكانًا يليق به في تلك الأيّام الصعبة القاسية.

- الأستاذ فهيم: الله .. الله ..!!، سرقنا قطار الزّمن السّريع، كاد أن يتجاوزنا، لكنّها عناية الله فيما اختار لنا، أذكرُ عندما تقدّمتُ إلى دار المعلّمين، بعد تأدُّدي من النجاح، انتظرتُ مثل غيري من الطلّاب، لدخول سلك التعليم من خلال هذه البوابة، التي تؤهّلنا لِنَكُون شيئًا فاعلًا في الواقع، كانت المفاجأة الكبرى، عندما جاءت النّتيجة، حيث أُبْلِغْتُ بالرفض لاسمي تبعًا للدّراسة الأمنيّة، كدتُ أن أصاب بالجنون، تلبّستني الحيْرة من أمري، رأيتُ الدنيا تغلق أبوابها الرّحيبة في وجهي، لأتّجه طارقًا باب السّفر، وكان وقتها أنّ دولة الجزائر في تلك السّنة طلبت أعدادًا من طلبة الثانويّة للتعاقد معهم كمعلّمين للمرحلة الابتدائيّة، من جديد تعبّدت المسافة أمام عينيّ بأمل جديد، أعادت لي شيئًا من الثّقة بالنّفس، وما إن اقترب الموعد السّفر، وإذا بالرفض ثانية يغلق الأبواب، ويقطع عليّ الطّريق، لأشعر بتفاهة الحياة، وعبثيّةُ وجودي، بما نَالَنِي وقتها من محاربة، لتهميشي، مَثَلِي مَثَلُ غيري من مئات وآلاف الشباب على مستوى القطر.

- فارس: إيه .. إيه !!، الله يرحم تلك الأيام، كأنّها شريط سينمائيّ يُحْكى في فيلم عن حياتنا تلك، المليئة بالمشاقّ و المصاعب، ومن وقتها كنتُ أعلم أنّ أمين الفرقة، لا أذكر اسْمه جيدًا، وهو من كان في هذا المنصب، قبل طالِبَكَ فريز،

هو الأساس في هذه التقييمات، وكان لتقاريره الأثر السيّء، و المُدمّر للكثير من شباب القرية، ممن لم ينتسبوا للحزب، حيث كان يُقَيّمَهم على أنهم من أعداء الثّورة، والحزب، وأقرب إلى الخطّ الرجعيّ في المجتمع، الله يُغَمّق له في قبره، ويُضيِّق عليه ولا يرحمه؛ لأنّني أنا بالذّات أحد ضحاياه، عندما انْحرفتْ حياتي في عكس الاتّجاه تمامًا، وكان السّفر إلى دولة الكويت، هو البديل للهروب من هَيْمَنَتِه، وجحيم حزبه، الله لا يرحمه، وبَدَلَ أن أكونَ في أعداد خِرّيجي الجامعة، أصبحتُ في عداد أصحاب الأموال.

- الأستاذ فهيم: سامحكَ الله يا رجل، الميّت لا تجوز عليه إلاّ الرحمة، يا سيدي، فمن دَرَسَ وأخذ شهادة، سعى للوظيفة من أجل المال، والجميع يحرصون على جمعه؛ من أجل العيش الكريم، ولكن عليك أن تتذكر محاسن تقاريره تلك، ها أنت أحد الناس الذين يُشار إليه بالبنان على مستوى القرية، وما جاورها، وقد اختصر عليك الطريق، كذلك، كما تعلم فإن مسيرتي تغيّرت، ولم أعلم الحكمة من ذلك، إلا بعد أن بلغتُ سنّ الرشد، خاصة عندما اتّجهتُ إلى الدراسة الجامعية، بعد الرفض المتكرر الذي ذكرته لك آنِفًا، و كان لوالدي رحمه الله الدَّوْر الأكبر، عندما اتخذ قراره الجازم، ببيع قطعة أرض من أجل دراستي، وهذا الموضوع هو المحور المِفْصَلّي في حياتي، و كانت منحة ربّانيّة؛ بموجبها درستُ الأدب العربي في جامعة دمشق، وهو ما كنتُ أَتَمَنّاه، ولأستخرجَ ما كان مُستكّناً في مسارب نفسي الخفية، وحُبّي الشديد للأدب و الشعر العربي، عندما أقبلتُ عليه أحفظه بنهم شديد، حفظتُ معظم أشعار العصر الجاهلي و الأموي منه، كما أنني هِمْتُ غرامًا بالأدب العباسي، وقد بحثت عن نفسي، لأجدني مُلتصقًا بأبي تمام وجرير و الفرزدق، و البحتري، و أبي الطيب و الجاحظ، و أبي فراس الحمداني، والقائمة ستطول، لو بقيتُ أسردُ لك أسماء الشعراء الذين تعلّق قلبي بهم، واشْرأبتْ لهم أعناق القراء ممن أحبّوهُم، سواء منهم الذين نظموا الشعر، أو لم يستطيعوا، ببقائهم على عهدهم حَفَظَة، ودارسين له.

***

(٨)

الأستاذ المشورب قدم إلى القرية كمدرس لمادة الرياضيات في بداية السّبْعينيات، وهو من نَتاج النّكبة الفلسطينية ١٩٤٨م، شامخ بِطُولِه الفارع، كنخلة سامقة في السماء، تَكاد تَعانق النجوم، ذكيٌّ لمّاح كثُّ الشعر، خَرْنُوبّي اللّون، حنطي الوجه، عيناه مُتوقدتان في لحظات صمتهما، كأنهما تتكلمان بكلام غريب، لمن ينعم النظر فيهما، تحكيان سيرة تغريبَتِه الفلسطينيّة؛ فتشرّد ملايين العرب من ديارهم، نازحين بمعظمهم إلى دول الجوار، والقليل منهم من حصل على لجوء إلى دول الشمال.

أسرته كانت ضمن ممن هُجِّروا من ديارهم، كانت طموحاتهم بالعودة خلال فترة قريبة لا تتعدى شهرًا أو شهرين، وتنحلّ قضيّتهم، ويرجع كلّ منهم إلى قريته، وبيته؛ ومعاودته لنشاطاته في تجارته، أو زراعته، أو صناعته، يومًا بعد يوْم، تباعد الزّمان في نفوسهم؛ صار الوطن ملامح ذكرى باهتة، تبتعد شيئًا فشيئًا، فتأججت نار الأشواق حنينًا في القلوب، تبخّر حلم العودة، فلم يبق للوطن من أثر إلا في وجدانهم، أو بمفاتيح أبواب بيوتهم المعلقة تحت صورة الآباء المُتوَفّين، هذا المفتاح، أيّ باب سيفتح وقد علاه الصدأ، وتقادمتْ قضيته في أروقة الأمم المتحدة، و ماعَتْ في سوق تجارة الجامعة العربية، وصارت موضة في بيانات الجامعة في اجتماعاتها العاديّة، و الطارئة، والإشارة إليها على أنها قضية العرب المركزية، واجتمعت مصالح الأنظمة العربية حولها، رغم أن اتّفقوا على أن لا يتّفقوا.

الشيخ المشورب بدايته العقائدية، نشأ في بيئة فكرية ذات ميول يسارية راديكالية، تتّخذ شعارًا لها، (***لا صلح لا اعتراف لا تفاوض***)، جاءت اللاءات حَمْلًا شرعيًّا لِقِمّةِ اللاءاتِ الثلاثة، في مؤتمر القمة الرابع الخاص لجامعة الدولة العربية، في العاصمة السودانية الخرطوم في ٢٩ أغسطس ١٩٦٧، على

خلفية هزيمة حزيران، أو ما صار عُرْفًا شائعًا بالنّكسة، فالنّكسة ليست هزيمة، والنّكبة أيضًا ليست هزيمة.

كان المشورب يعتقد إيمانًا أكيدًا جازمًا لا يتزعزع، بتحرير فلسطين من النهر إلى البحر، و إزالة دولة إسرائيل من على خارطة الوجود، ورميها في مزبلة التاريخ؛ ليكون قاع البحر المتوسط مأواها الأخير، ومستقرّها الأبديّ بلا رجعة، في تلك الآونة كل عربي كان يحاول أن يتكلم، أو يهمس بغير ذلك، فدمغةُ الخيانة جاهزة لتلتصق به مدى حياته، وتتبعه لعناتها في قبره، ومن بعده ذريته.

ظروف قاهرة، جعلت المشورب يرتدّ من أقصى يسار مساره الفكريّ، إلى أقصى اليمين، حين كان اليسار رمزًا للتقدميّة، و اليمين للرجعيّة، و ما بينهما ازدادت المسافة تباعُدًا، بلغتْ حَدّ الصراع والاقتتال، واتّسعت الهُوّة بين شِقّيْه كل منهما يمشي عكس اتجاه الآخر، لا يمكن اللّقاء بينهما أبدًا، لتكون لحيته (المشورب) رمزًا جديدًا لمرحلة جديدة، وهو يقف على أعتاب انقلاب جذري في حياته، بنسبة مئة وثمانين درجة، فلا يوجد حلٌّ وسط، حينما أطلقها على سجيّتها؛ فبلغتْ مَبْلغًا عظيمًا، بمنظرها المهيب؛ تتناسب في امتدادها على مساحة صدره طولًا وعرضًا؛ لتملأ حيّزًا من جغرافية جسمه، وتضفي الوقار على مظهره، و خشية تملأ أنفس الآخرين برهبة، موحية بغموضٍ تلتَفّ به شعيراتها. المشورب يتمتع بشجاعة منقطعة النظير، يصفه أحد زملائه في المدرسة بالتهوّر، فلا يستطيع السكوت عمّا يراه غلطاً وانحرافًا، يُبدي رأيه صريحًا في أية قضية معروضة للنقاش، خاصة في الفرصة بين الحصص الدراسيّة في غرفة المدرّسين أثناء الدّوام، كانت معظم النّقاشات سياسيّة، ملتهبة منصبّة على الحدث الأهمّ الذي نكّس راية الأمة العربية، وكسر أَنَفَةَ شعوبها، وحطّم أملها المرتجى في التقدم، والعيش الكريم داخل الأوطان بكرامة تليق بإنسانيتهم.

عبارته الشهيرة، صارت أيقونة حفظها عنه معظم المُدرّسين، وغيرهم،(***أنا ابن نكبة، وأمي نكسة، والخيمة وطني، فهل من الممكن أن أكون خَلْقًا سَوِيًا،***

أو تشكيلًا نافعًا لقضيّتي؟)، رؤيتُه تتمحور حول نتاج النكبة المشوّه من تشرذم العرب إلى أعاريب، واختلاف رؤيتهم للقضية؛ فكانت تجارة رابحة للأنظمة.

جاءت النّكسة لتنتج واقعًا مشوَّهًا فكريًّا وثقافيًّا شاذًّا، على كلّ الأصعدة السياسيّة، والاقتصاديّة، و الاجتماعيّة، وما يتبعها، فازدادت الأنظمة ضراوة بضغطها على شعوبها بالقمع الممنهج.

ما إن انقضت عدة أشهر على ابتداء العام الدراسيّ ١٩٧٠، حتّى قام انقلاب الحركة التصحيحيّة، فأطلق العنان لآرائه فيما حصل، بانتقادات لاذعة صريحة لا مواربة فيها، لا تحتمل تأويلات أخرى، فاشتغلت الأقلام المسمومة، وفي ظلام اللّيالي لم تنقطع زيارة المُخبِرين من المُدَرّسين لمفرزة الأمن، والنّصيب الأعظم من تقاريرهم بخصوص المشورب، حينها قاموا باستدعائه، وحَقّقُوا معه، ثم أرسلوه مُكبّلًا إلى فرع المخابرات في مركز المحافظة، ثلاث ليال من التّحقيقات المكثّفة على مدار الساعة، لم يَخْلُ الأمر خلالها من ممارسة التعذيب النّفسي، بالضّغط الهائل من أجل انتزاع اعترافات منه. ونظرًا لقلّة أعداد المُدَرّسين، وعدم وجود الكادر الكافي من مُدَرّسي الرياضيات، وندرتهم، فقد تمهلوا في إيقافه عن التّدريس إلى نهاية العام الدّراسيّ، بأمر من مديريّة التربية، بناء على التحفظات الأمنيّة، واستبدلوه بمدرّس حديث التخرج من القرى المجاورة، لملء الفراغ مع بداية العام القادم.

انكفأ الأستاذ المشورب على نفسه، من هول الصّدمة التي ألمّت به، وصار ملازمًا لبيته معظم أوقاته، قلّما يراه أحد في طرقات وأزقّة القرية، إلا للضّرورة القصوى لشراء أغراض، و لوازم أسرته من السّوق، كما قلّ اختلاطه بالآخرين، إلا على نطاق ضيّق جدًّا، وبتحفّظ شديد. العزلة الإجباريّة فتحت أمامه اختيارًا للتبحُّر في الدّراسة، و المطالعة في كُتُب الروحانيّات، من خلال تعزيز قراءاته في مجال التصوّف، مبتدئًا بابن عربيّ، وفتوحاته المكيّة، والحلاّج، و النفريّ، وفلسفة ابن سينا وابن رشد وابن سيرين. مما آل به الأمر لسلوك درب الدّرْوَشِة، وخلال سنوات قليلة ذاع صيتُه، وأطبقتْ شهرته الآفاق، في مجال الروحانيّات، و المعالجات، مبتدئًا بالرُّقية الشرعيّة، وقراءة القرآن، إلى المعالجة بواسطة الجّن، لمن أصيبوا بِالمَسِّ، وكتابة الحُجُب، ومعرفته

بالطّلاسم وأمور الشّعوذة، و السّحر وضرب المندل، و قراءة الكفّ، و الأفكار، و المكاشفة، وهنا ظهرتْ موهبته، وذكاءه الرياضيّ، في إخضاع من يلجأ إليه بسهولة ويُسْر، فيستولي على مشاعره و أحاسيسه، كما تابع تبحّره في قراءة كتب المغاربة في هذا المجال، خاصة المنقولة عن جدران مغارة دانيال الأسطورية، التي تفتح بابها في العام مرّة واحدة، ولفترة زمنيّة قصيرة جدًّا، فمن وافاه الحظّ دخل، ومعه زاده من الطّعام و الشراب، و زوّادته من الأقلام، و الدّفاتر و الأحبار، ويبقى ينقل إلى دفاتره حَوْلاً كاملًا.

***

(٩)

سجّلْ عندك يا تاريخ، يقول ماجد لنفسه، وهو يجلس أمام دكان والده سعفان، يقضم سندويشة فلافل مع زجاجة مشروب (الكازوز) الغازيّ، عيناه تدوران في رأسه، كَلَوْلَبٍ لا يهدأ في كل اتجاه من السّوق في غمرة العابرين، وأصوات الباعة لم تمنعه من متابعة فضوله في مراقبة باب المفرزة الأمن على الطرف الآخر في نهاية السوق، هناك الكراسيّ تصطّف على مدار الساعة، فمنهم من يجلس معظم ساعات المساء، ومعهم بعض الزوّار من أصدقائهم، وبعضهم من يدخل مباشرة إلى داخل المفرزة، بعد إلقاء السلام عليهم، و يسأل رامزّا أو خليل مستفسرًا عن شخص ما، يريده بالضبط، فيجيبان على تلك الأسئلة بكل سرور، بلا عرقلة؛ لأنّ الهدف واحد، و في النهاية كلّه عمل بالنسبة لهم، يعرفون من بعضهم كل الإخباريّات الواردة إليهم من مختلف الفعاليات.

على الطّرف الآخر هناك في الحارة الشرقية في دكان عكّاش، يلتئم شمل قاصدي المجلس تقريبًا في كلّ يوم، يصل الأستاذ فهيم مع صديقه فارس أولًا، فريز أمين الفرقة الحزبية يتبعهم بعد قليل من جلوسهم، وفنجان القهوة المُرّة تستلمه يد الأستاذ فهيم من يد عكّاش، يردّ على سلام فريز قبل ارتشافه القهوة.

لا يمكن للكلام أن يُخَبّأ هنا في مثل هذا المكان، كل منهم يُدْلي بدلوه، ويَحكي ما سمع؛ تجري نقاشات عميقة، خاصة إذا أمِنُوا من بعض المُخبرين المَكشوفين؛ مثل النمس وغيره، فريز عارفٌ عالمٌ بأدق أحوال القرية، و أخبارها.

- فريز: جاءتنا دراسة عن الأستاذ المشورب منذ يومين، يبدو أنه سيجلس في بيته عند نهاية العام؛ لانتقاداته الكثيرة للثامن من آذار، والحركة التصحيحية،

وكما تعلمون أن هذا الأمر غير مسموح به، قال ما قال من كلامٍ، بصوت خفيض، عندما أمال رأسه للوسط احتياطاً وتحرُّزًا.

فريز واثق من الموجودين؛ يعلم في قرارة نفسه، أنّ كلامه لا يمكن أن يُنقل من مكانه؛ فعلاقة القرابة التي تربطه بالأستاذ فهيم و أستاذه من أيام المدرسة و الجوار مع فارس أمور تجعله مطمئِنًا، كما أن عكّاش يستمع للجميع، وهو قليل التعليقات، ويميلُ إلى التحفّظ، يقتصرُ في كلامه عن الأمور الحياتية القديمة، رغم سماعه المتواصل للأخبار من راديو (السِّيرَا)، وهو من أهمّ مميزات دكانه ومقتنياتها، وعلى مدار يومه يستمع إلى إذاعة لندن، وصوت العرب، ولا اهتمام له بكثرة التحليلات، و مداخلاتها الكثيرة، والمتشعبة، والعويصة.

انقطع الحديث، وتوقف فجأة، بعدما سمعوا نَحْنَحَة صوت، تُنْبِئُ عن قدوم النمس، رغم انقطاعه عن المجيء لأكثر من أسبوعين.

الراديو يشتغل بالوشيش بداية، حتّى تسري الحرارة في أوصاله، وشيئًا فشيئًا يَصْفى صوت المحطّات، عندما قام عكّاش باتجاهه، وأدار المفتاح الرئيس، بعد أن نظر للساعة، وهي تشير للسادسة و النصف، موعدهم اليومي مع أم كلثوم من إذاعة إسرائيل، بعد سماع موجز للأخبار، منذ ذلك الوقت درجت على هذه العادة، بعد حرب حزيران ١٩٦٧، باستمرار يوميًّا بلا انقطاع، وجذبت اهتمام هُواة الطّرب، وسِواهم أيضًا.

عندما تبرد حرارة اللّقاء، بفطرته، وعمق درايته بأطباع مُجَالسيه؛ يلجأ عكّاش لتشغيل الراديو، وإذا كان يشوِّشُ على الكلام بارتفاع وتيرة صوته، يطلبون إسكاته، نريد أن نستمع لسوالف عربية.

كثيرًا ما يتردّد على ألسنة الناس في القرية: (***افتحْ على لندن، لنشوف شو في عندنا***)، اعتقادًا منهم أن محطّة لندن تحكي الصحيح، وتبث الأخبار المسكوت عنها في إعلام بلادهم، بتكتم عن شعوبها، فاتّجَهَ الناس إلى محطة لندن للاستزادة بمعرفة مما يجري عندنا. لتأكد الناس أن إعلام الوطن كاذب، وأن الكذب مهمّة وطنيّة، وأنه مُكرّسٌ فقط من أجل كرسي ممتد على مساحة وطن، كرسيّ ملتصق بكرسيّ من شواطئ الأطلسي، إلى رأس الخيمة، تتواصل تلك الكراسيّ فيما بينها من خلال العلاقات الدبلوماسية، والاتفاقات الأمنيّة.

على مدار الساعة يُدار فنجان القهوة على الجلسة، ويُرجِع البَكْرَجْ (إبريق القهوة النحاسيّ) إلى المِنْقَل، ليربض فوق رماد يُخفي تحته الجمر، فتبقى القهوة ساخنة على مدار النهار، وساعات السّهرة من الليل، لا جلسة بلا قهوة، هي حِلْيَةُ المجالس، ووجودها يغني عن كل شيء؛ لأن الاعتياد عليها يعدّ إدمانًا، قلّما يخلو منها بيت من بيوت القرية، فهي تعدّ للضي و للكَيْف.

***

انفضّت جلسة اليوم من دكّان عكّاش، خرج الجميع، ووقفوا أمام الباب، فاستأذن النّمس منهم مباشرة بالذّهاب لبعض شأنه، مشى ثلاثتهم في اتّجاه واحد، قبل أن يستأذن فريز بالوداع عند مفترق طريق يؤدّي إلى بيته، تابع حديثه الذي انقطع، مُكمّلًا لما ابتدأه في بداية جلستهم تلك، قبل مجيء النّمس: يا أخي، صَدَقَ من قال: (***الحيطان لها أذان***)، الجميع في القرية على قناعة تامّة، وبالفعل أن للحيطان أذان، مُتربّصة، تسترق السّمع خوفًا من المجهول الذي صار أمرًا طبيعيًا، لا غرابة فيه، ويعشعش في كلّ القلوب.

- فارس: كما أن (***لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك***)، آلاف طرق الاحتيال مليئة بما لا تراه أعيننا، تنخز نفوسنا، تكبتُ مشاعرنا الحقيقيّة، وجوه غريبة تجوس الدّروب، لا جرأة لأحد منا أن يسألهم، عيونهم كأنّها مخارز منغرسة في وجه كلّ شخص من القرية، تتفرّسه بوقاحة المُومِسَات، اعتبارًا من الرّجُل المُسنّ العجوز والمرأة والبنت و الطّفل، شيء غير مألوف بتاتًا على الإطلاق.

عند المفترق وصلوا، انعطف فريز إلى بيته، كلمات التّوديع يرتَدُّ صداها مع صمت الليل، و خفّ ضجيج النّاس، عندما أَوَوْا إلى بيوتهم، نسمات باردة منعشة للأرواح المتعبة من وهج وحرارة الشمس نهارًا في مثل هذه الأيّام من الصّيف. تَابَعَا طريقهما.

- فارس تابع: يبدو أنّه لا مناعة لدينا من اكتساب عوامل الخوف، و لسنا بمنأى عن ذلك، انظر لصديقنا فريز، و ما يمثل بالنّسبة للقرية، وهو أمين فرقة

للحزب، و ما أدراك..!!، (***يهدّ ويرعد***)، كما يُقال: (***يقول و يفعل***)، والهوى هَواهُم، والسّاحة خَلِيَت لهم وحدهم بلا منافس، كيف تحدّث إلينا بصوت خفيض، وتغيير مجرى الحديث عندما دخل النّمس.

- الأستاذ فهيم: الكلّ خائف من الكُلّ، من يمسك بمنصب يحاول أن يحافظ عليه، بأيّ شكل كان، وأيّة وسيلة ممكنة، تمكّنه من غايته، وآخرون يطمحون لتحقيق مكتسبات لهم، وإيجاد موطئ قدم لهم على خريطة الأطماع للنّهش.

- فارس: يا سيدي،(***كلّ بسٍّ بيِعْرِفْ مين خنّاقه***) -أي كل قِطٍّ-.

- الأستاذ فهيم: الخوف صار يوزع بالمجّان علينا بجرعات كبيرة، أذابت فينا أيّة بقايا للجرأة.

- فارس: على رأي المثل (***اضرب المربوط، بيخاف الفلتان***).

- الأستاذ فهيم: ما تفضلتَ به حقيقة أخي فارس، فهذا المثل ينطبق علينا جميعًا، وكلٌّ يأخذ نصيبه منه، حسب إحساسه بالخطر، ألَا تذكر مقولة عريبي: (***ألله يعين إللي ما معاه عقل***)، في الحقيقة كان الله في عَوْن من يملك عقلًا.

- فارس: حسب تقديري للظّرف، أستطيع اتّقاء ما أمكنني من زلقات اللّسان، وأحسب ألف حساب لكلمة، ربّما لا أُلقي لها بالًا، من الممكن أن تؤدّي بي إلى سين وجيم، مُفضّلًا الابتعاد عن (***وجع الرأس***) كما يقال، وليس بغريب، ما يتردّد على ألسنة النّاس (***ابْعِدْ عن الشر و غنّيلوا***).

- الأستاذ فهيم: كلّ خوف يولّد خوفًا جديدًا، حتّى سيطرت الأوهام على العقول، وصارت فوبيا الخوف بتقنيّاتها، و ألوانها، و أشكالها العديدة، تعلّمها الناس بلا مُعَلِّمٍ، وانبعثت فيهم من جديد غريزة القطيع.

- فارس: أرى أنهم تحوّلوا لمرحلة الهروب من الواقع، بكلّ حالاته، كمن (***يمشي الحَيْط الحَيْط " أي التزام الجدار"، ويقول يا ربي السِّتِيرَة***)، تنصّلٌ من المسؤوليات الملقاة على عاتق الجميع، والأخذ على يد الفاسدين، و المفسدين في المجتمع، ابتعادٌ و تَغَاضٍ عما يدور في المحيط، كلّ شخص (***يريد إبعاد النار عن قرصِهِ***)، كي لا يحترق.

- الأستاذ فهيم: ألا ترى أن كل ما حدث ويحدث، صار يُقابَل بالصمت، وصار الصمتُ فضيلة يحرص عليها أهل الفضل، الذين لا يرتضون الإهانة، وهم يوصفون بالحكمة والأناة، فالصمت كثيرًا ما يكون مَثْلَبة في مثل حالتنا، خاصة وأنت ترى الظلم، ولا تستطيع ردّه، أو دفعه عن نفسك، فضلًا عن المظلوم.

- فارس: نعم عزيزي، ما قابلتُ أي شخص، إلا و يقول: (***بدّي أبْعِدْ النارَ عن قُرْصِي***)، (***وخلّيهَا تِجِي عن غير طريقي***).

- الأستاذ فهيم: أرى أن هناك تبدُّلٌ عميق، سيُحدث آثارًا سلبية على الحياة بشكل عام على المدى البعيد، مما يفتت العلائق الاجتماعية، و الروابط الأسرية، وخلق الضغائن المُسْتَجدّة، فلا تمحوها عمّن تلتصق به، و لو عمّدوه بماء نهر الأردن.

- فارس: من أين جاءنا كل هذا البلاء، وفَشَى فينا كالطاعون، فلم نكن ننظر منه شيئًا أبدًا، (***من وَيْن بِدْنَا نلاقيها، ونُلاقيها***) يا أستاذ.

- الأستاذ فهيم: فكما ورث الناس الأموال والأراضي و الأطيان عن آبائهم، فقد ورثوا مع التركات خوفاً مُستطيرًا، وهذا الإرث الثقيل سينتقل لأبنائهم.

- فارس: أنا خُلِقْتُ خائفًا، وسأموت خائفًا.

***

الحديث ذو شجون، و الحدث سيل مستمر جارف، في مثل هذه اللّقاءات الثنائيّة بعيدًا عن آذان تَسْتَرِق السّمع، وتتنصّت على كل ما يُحكى ويقال، يطول بهما المشوار إلى أطراف القرية، أدارا وجهيْهما عكس الاتّجاه، قاصديْن الرجوع من حيث قَدِمَا. مع متابعة حديثهما.

- الأستاذ فهيم: حادثة الأستاذ المسكين المشورب، جعلت القرية تعيد التفكير جَدِيًّا بما يدور، ونبّهتهم إلى مستجدّات لا يمكن التّهاون بها، فلتَةُ لسانٍ، أو كلمة طائشة لا مسؤولة؛ ستكلّف صاحبها حياته، يقضيها معتقلًا وراء القضبان، والله

تفطّر قلبي ألمًا على حالته، ووضعه لا يحتمل الهزّات المعاشيّة، ومحاربته بلقمة العيش.

- فارس: يا سيّدي، عليه أن يَحمد الله، أن انتهى الموضوع هكذا بإنهاء خدمته، وتوقيفه عن العمل في التدريس، أهون ألف مرّة من الاعتقال، فلو حصل له ذلك، فكيف سيكون حال أسرته؟، ربّنا يكون بعونه.

- الأستاذ فهيم: ألا ترى أن الثّقة شيئًا فشيئًا تتبخّر فيما بين الناس، وتنسحب من معاملاتهم في الحياة، ليحلّ الشكّ و الريبة، الشك في كلّ شيء، والرّيبة من كلّ شيء.

- فارس: أعتقد أن قوادم الأيام ستكون أقسى، وأصعب علينا، و الوطأة أشدّ مئة مرّة عمّا نحن فيه الآن.

- الأستاذ فهيم: لكن يا صديقي، نحن نتكلّم، ونُشخّص الحالة الحاليّة، و القادمة، ونحاول وضع أيدينا على الجرح، لنرى كيف نخلص مما نحن فيه، انظر، لترى أن تفتيت العلاقات و الوشائج ستؤدي إلى العزلة، والابتعاد عن التفاعل الاجتماعيّ في المضافات و الجلسات والمناسبات، إضافة للمجالس خاصّة المسائيّة على نواصي الحارات، وهي المجالس التي لا بدّ منها لدى أهل القرية.

- فارس: أرى القتامة، و الظّلام يلفّ كل شيء، ولا أرى بصيص ضوء في نهاية النّفق، فنحن في حالة استباحة لا سابق عهد لنا بها.

- الأستاذ فهيم: يبدو أن الأستاذ المشورب، صار مثلًا، و درسًا تلقنته القرية بأكملها، حفظوه ووعوْه عن ظهر قلب، وبدت مظاهر المرحلة تزداد قتامة، بحدّة قويّة عمّا ألفناه، أو مما سبقها من سنوات مضت، خاصة منذ ١٩٦٣م، من هنا انقضّ علينا الثوريّون الموتورون، المتعطّشون للسلطة؛ للدّعس على كرامة النّاس؛ واستباحوا دماءهم؛ وصادروا حريّاتهم؛ وجعلوا من البلاد سجنًا كبيراً، وشعارهم (***من لم يكن معنا، فهو ضدّنا***)؛ وأطلقوا أيدي رجال المباحث على الشعب لتعبث به، وأعادوا رعب عبد الحميد السرّاج في أيّام الوحدة مع مصر، بذكراه المشؤومة، واعْتُمِدَ المخبِرُون و تقاريرهم على نطاق واسع، ومن خلالها يُقَيّمُون الناس بدراسات أمنيّة، وربطوا كل شيء بموافقات أمنيّة،

الوظائف الدنيا و العليا والسّفر، ورُخَصِ الأعمال التجاريّة، و الزّواج، ولا أبالغ إذا جاء يوم ربما سنحتاج فيه موافقة من أجل دفن الميت، أو نوم الزوج مع زوجته في غرفة نومهما.

- فارس: التضييق لدرجة أخاف أن يأتي الوقت الذي يحصون فيه علينا أنفاسنا، بس الله كريم.

- الأستاذ فهيم: انْظُر ها هي ثقافة الهزيمة الروحيّة، والنفسيّة عاودتنا؛ لتستقرّ فينا، ونحن نَرْسُبُ في قاعها، أستعيد طائفة الأمثال التي ضربتها، للاستدلال بها خلال حديثنا، فبدل أن نُقلِع عن هذه الأطباع القميئة، فها نحن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنّعام، نتعامى عما يحيق بنا من خطر داهم؛ وستنسحب آثاره على مستقبل أبنائنا، لذلك يخطر ببالي أن أنسج موضوعًا حول الأمثال الشعبية، المترسبّة في ذاكرتنا، وسأرسله لمجلة نقابة المعلمين، لمعالجة الحالة بعيدًا عن أمور السياسة، علّ من يريد الفّهم، سيفهم مآل المقال.

- فارس: يا صديقي، لا ينفعنا دفن رؤوسنا، وتعامينا عمّا يدور في قريتنا، وما حصل من تبدّلات اجتماعيّة جديرة بالتوقّف عندها، والتأمّل، و مجيء أبو غليون زاد بالطنبور نغم.

- الأستاذ فهيم: هما حالتان أمام أعيننا، الأستاذ المشورب، وما آلت إليه أحواله في سبيل لقمة الخبز، وعائلة المنحوس صارت مضرب المثل في التفكّك و التشرذم، بعد أن كانت عائلة مستورة، وفضيحتها مجلجلة، و(***من عاش رَجَباً، رأى عجباً***)، الأيام القادمة حُبلى بالمفاجآت، أرى الحوادث متسارعة في انحدار قاسٍ.

- فارس: قضايا أهل القرية صغيرة جدًّا، وصراعاتهم لو تأمّلناها كانت على لا شيء، ومن هو المستفيد منها؟. يا خوف قلبي من القادم..!!.

- الأستاذ فهيم: تأخرت الساعة، و الحديث ذو شجون و فُتُون، ونحن على مفترق طرق، سأضطّر للوداع، على أمل بلقاء قريب.

***

(١٠)

فريز شخص متملّق يتبع مصلحته الشخصيّة أينما كانت، هذا رأي الأستاذ فهيم، قاله فيما بينه، وبين صديقه الحميم فارس، في لقاء جديد. وهذا رأيي كما تعلم، قديمٌ متجدّدٌ، ومع احتكاكي به، فهو يعتقد أنّ جانبي مأمونٌ، ولا خوف من جهتي، فهو يفضفض لي ببعض الأشياء، فلا أدري إن كان يقولها، ويخبرني بها على سبيل الإخبار فقط، أو هو يقصد إيصال رسائل للآخرين من خلالي كي يفهموها، ولا يقعوا في مهاوي ثرثرة ألسنتهم.

- فارس: يا شيخ، الله يستر، ويرحم من سعى له بهذه الوظيفة، ألا تَذْكُر أنه فشل في اجتياز امتحانات شهادة الكفاءة (الصفّ التّاسع)، ثلاث سنوات متتالية، حتى جاءت الرّابعة حالفه الحظ، و ها هي نفعته، كي لا يبقى عالة على أهله المساكين، وصرفوا عليه المال، وهم كانوا بحاجة ماسّة له، فسجّلوهُ في معهد خاصّ، عندما استنفذ فرص رسوبه، وعلّقوا كل آمالهم على نجاحه.

- الأستاذ فهيم: رحم الله والدته، فكما تعلم؛ تربطني بها صلة قرابة من جهة والدتي، هنّ في الواقع بنات الخالات، كانت تناديني: (يا خالة فهيم)، وتسألني دائمًا عن المدرسة والطلّاب، وما إذا كان سينجح فريز؟، فأجيبها: والله يا خالتي إذا قرأ، واجتهد؛ سيكون النّجاح حليفه، وكم كانت تتمنى أن يصبح أستاذًا، (يا خالة أتمنّى أن أراه أستاذًا مثلك، ربّي يعلّي مراتبك)، والدّموع تترقرق في عينيها، ثم تنسحبُ في طريقها لمتابعة مشوارها.

- فارس: الله يرحمها، كانت لا تذكره بالاسم، إلا بلقب الأستاذ؛ عندما أطلقته عليه، وهو سادر في غيّه مع أمثاله من الشّباب ذوي السمعة السيّئة، كما أن نساء حارتنا يرأفنَ بمشاعرها تجاه ابنها الوحيد، وهى تتمنّى أن تراه أستاذًا، فما عُدْنَ ينطقن باسمه أبدًا، إلا باللّقب المحبّب لوالدته.

- الأستاذ فهيم - يضحك بملء فِيهِ - يقول: ألا تذكر حين أطلقوا عليه أستاذ الطُّرْقَانْ (جمع طريق)، لكثرة تواجده في طرقات القرية على مدار السّاعة، إلا عندما يأوي إلى فراشه، فشله الدراسيّ انعكس على ازدراء النّاس له، بنظرتهم الدُونيّة له، ولأمثاله من الشّباب الهَمَلْ.

- فارس: نعم أذكر ذلك، و لن أنساه، وأزيدك شيئًا آخر، من المؤكّد أن تكون سمعتَ عنه وقتذاك، أن سبب فشله الدراسيّ، جاء نتيجة تنظيمه في الحزب، عندما رغّبُوهُ بالمكاسب المستقبليّة.

- الأستاذ فهيم: نعم .. نعم، قبل ذلك جاؤوا بالزعران، و الأزقيّة، وشكلوا منهم جهاز الأمن القومي، ليعيثوا فسادًا في المجتمع، و ليكونوا ميليشيا شبه عسكريّة؛ وذِرَاعًا لضرب المناوئين، وتثبيت حكم الحزب المسروق من العسكر، وصار الكثير منهم يتسابق في الإيذاء بشكل عام، و تخويف باقي أعضاء الأحزاب الأخرى، وكانوا مستودعًا قَذِرًا، لا يخرج منه إلا السّوء والخَبَث، ولهم اليد الطّولى في ضرب الاتّجاهات الديّمقراطية في البلد، والقضاء على كلّ من هو ليس من حزبهم، وانتهاك حقوق البشر بشكل سافر، دون حسيب أو رقيب.

- فارس: أعتقد أنهم لم يكونوا سوى أدوات، بصراحة هم لا يعلمون لمصلحة منْ يشتغلون؛ فالانتهازيّون قطفوا جهود هؤلاء الجهلة المغرّر بهم، أولادٌ حملوا السلاح، وشعروا بنشوة السّيطرة و القسوة، عندما أتاحها لهم النّظام، كي يثبت أركانه بواسطة هؤلاء المُتَحَزّبين الصغار، الذين لا حساب لهم في عُرْف، وموازين من بيدهم مقاليد الأمور.

- الأستاذ فهيم: لكن (أستاذ الطُّرقان)، رغم كلّ ما مررنا به من سيرته، إلاّ أنّه يبقى قريبًا منّا، نأمنه و يأمننا، أمينٌ بعمله لدرجة كبيرة، يخدم أسياده(***من قلبٍ، و ربٍّ***)، يحتفظ بالكثير من المعلومات لا يمكن أن يبوح بها لأحد، وله دور معلومٌ للقاصي و الداني في تدمير الكثيرين من أبناء القرية، مثله مثل من سبقه رَحِمَهُ الله، فالميّت لا تجوز عليه إلا الرّحمة، في أمانة الفرقة الحزبيّة في القرية، بمعلوماته التي دوّنَها في المُسُوحات التّقْيِيمِيّة من أجل التّرشيح لوظائف

الدولة، أوالبعثات الدراسيّة الدّاخليّة، والخارجيّة، كما حصل معي بالضّبط، في أيّام أمين الفرقة السّابق المقبور.

- فارس: المشكلة يا أستاذ، أنّهم أطلقوا عليهم لقب أمين، بربّك..!!، فما الذي أبقاه، وتركه للخونة؟. وما فائدة ما يُفْصِح عنه؟، هذا غيضٌ من فيضٍ، ولكنّه مُؤذٍ رهيب، وقلمه سمٌّ قاتل، الله لا يوفّقهم جميعًا، كلهم أسوأ من بعض، استعبدتهم الوظيفة، ولقمة العيش، ولا يستطيعون سوى مقولة: "حاضر سيّدي"، تِكرَم سيّدي، ولك أن تتخيّل عصر العبيد و الأسياد.

- الأستاذ فهيم: هذه إحدى ابتكارات الحزب العظمى، عندما أطلق على كل قياداته من أصغر تجمّع تنظيميّ إلى قمّة الهرم، بداية من أمين الحلقة، أمين الفرقة، أمين الشّعبة، أمين الفرع على مستوى المحافظات، الأمين القطريّ المساعد، الأمين العام المساعد، الأمين العام هو المتربّع على قمّة الهرم بيده كلّ السّلطات، على اعتبار أنه رئيس للجمهورية، وقائد أعلى للقوّات المسلّحة، وكلّ شيء بيده وحده، لا يترك لأحد مجالًا لأن يشاركه أيّ نوع من أنواع السّلطة.

- فارس: احتكر السّلطة له فقط، وكل مما حوله في الدّولة صاروا (***شرابيش أو شراشيب أو شناشيل خُرُجْ***)، فـ (***لا يَحِلّون ولا يربطون***).

- الأستاذ فهيم: لا والله، وأنت الصّادق، (***مثل العُضْرُط، لا يحل ولا يربط***)، الجّميع أحجار على رقعة الشطرنج، لا يتحرّكون إلا بأمر آمر.

جرى هذا الحديث، ويبدو أنّه كان بقيةً لحديث البارحة، عندما تأخّروا في مشوارهم.

بعد عصر هذا اليوم، جاء فارس إلى صديقه الأستاذ فهيم، جلسوا، وشربوا قهوتهم، وتجاذبوا أطراف الحديث في شؤون اعتادوا مناقشتها فيما بينهم، وبعد أن خفّت درجات الحرارة، وصار بمقدورهم أن يخرجوا مشوارهم لهذا المساء، وجرى حوارهم هذا فيه.

***

(١١)

كان وقع الصّدمة قاسيًا، على نفس النّمس عندما اصطدم بصراحة سليطين، وسلاطة لسانه، وهو يعبّر عن رأيه بصراحة مطلقة دون مواربة، وضحكته وقتذاك السّاخرة من حديثه، عندما أخبرهم عن صلة قرابته برامز، كما أنّ استهزاء إرحيّم بطريقة خيّبت كلّ آماله، وتُحطّم الثّقة به في نفوس أهل الحارة، ولم ينسِ تخوّف سويلم من الويلات، و المصائب التي ستجرّها هذه الصِّلة على الحارة و أهلها، مؤكّدًا، ومُدَلِّلًا على صحّة حدسه، بينما حمدان اتّخذ موقفًا مغايرًا قليلًا عن أصدقائه، وهو كمن حمل العصا من المنتصف، وترك مسافة تواصل حُرّة مع النّمس، على اعتبار أنّه من أبناء الحارة و القرية، وله الاحترام.

انغماسيّة النّمس المفرطة في مستنقع أنانيّته، وهو ماضٍ في طريق علّها تُحقّق له شيئًا من مصالحه، فأيًّا كانت غايته فهي تبرّر الوسيلة لديه، جعلته ينطلق بلا عِقَالٍ يحدّ من حركته الدؤوبة، ليؤدّي ما طُلِب منه، ولإثبات حُسن نيّته يؤدّي ما لا يُطلب منه، ابتعد شيئًا فشيئًا عن أجواء الحارة، هجر جلساتها، يمرّ بهم بعد العصر لا يلوي عليهم، يلقي السّلام، و يتابع مسيره إلى وجهته، و هو ما زال متأثّرًا بهذا الموقف كثيرًا، كلما تذكّر الحوارية الفاصلة في علاقته بأهل الحارة، تأجج الغضب عليهم في قلبه، وامتلأت نفسه نقمة وحقداً، يتمنّى زوال النّعمة عنهم، وأن تحلّ بهم المصائب، لكنه رغم ذلك لا يجرؤ على الاقتراب من ساحة أحدهم بالإيذاء، أو بالإخبار عن أحدهم، ولو من أجل الضرّر الكيدي، والانتقام لنفسه.

مرّ من أمامهم، رغم أنه حاول مرارًا تغيير طريقه التي يسلكها، ولكن لا خيار له بترك طريق السّاحة عبر الحارة، ألقى تحيته الجافة، غاب في منعطف

الطّريق، ارتياح أنفاسهم بَلّلَ حلوقهم برطوبة، بعدما توقفّت أحاديثهم، عندما لمحوه خارجًا من باب بيته، ومنهم من استعاذ من شرّ الشّيطان، وآخر استعاذ من شرور النّمس.

قادته قدماه إلى السّوق بلا تخطيط منه؛ لأنّه لم يكن في نِيّته المجيء إلى هنا، ومن فوره توجّه إلى دكّان سعفان، على غير عادته، فهو لا يقصدها إلا لشراء غرض، وقف بالباب، أطلّ برأسه، ألقى التحية على أبي ماجد سعفان، وجلس على الحافة الحجرية أمام الدكان.

سارع ماجد إليه، بأمر من والده لصبّ فنجان قهوة: "أهلًا عمّو أبو فرج، كيف حالك، شرّفتنا بهذه اللّفتة الكريمة بزيارتك غير المتوقّعة"، قال ماجد.

- النّمس: والله لا أدري كيف قادتني قدماي إلى هنا؟.

- ماجد: أهلًا وسهلًا، اشتقناك، فكما تعلم فإن والدي كرّسَ وقته كلّه للعمل، والبيت فقط يأتيه وقت النّوم، وأنا آتيه بعد انتهائي دوام المدرسة، وكتابة وحفظ واجباتي، وعند مجيء العطلة الصيفيّة أعمل معه؛ لأتعلّم منه أصول التّجارة؛ كما أنّني أحصل على أجرة بسيطة أجمعها من أجل مصاريفي المدرسيّة. توقّف ماجد عن الاسترسال في الكلام عندما خرج والده، بعد أن فرغ من تلبية طلبات الزبائن.

- سعفان: مرحبًا بك جارنا الغالي، وبهذه الخطوة الغالية بزيارتنا، وهي من نوادرك القليلة.

- النّمس: لا أحبّ الجلوس على أبواب الدكاكين، فهي أبواب رزق لأصحابها، وأنت من الجيران المُحترمين، ولم أر منك إلا كل خير لكنّي والله، كنتُ قاصدًا مفرزة الأمن، كما تعلم، فإن رامز هو من أقاربنا الحَمَاصِنَة (نسبة إلى حِمْصَ)، وكنتُ قد قصدته للتوسّط لابني فرج من أجل الحصول على وظيفة عند الحكومة، وعدني خيرًا، على أساس أن يجد له شاغرًا في شعبة الحزب بوظيفة مستخدم، نسيتُ أن أخبرك أن هذا الشاب رامز، هو ابن عمّ لي، وجدّي وجدّه هم أبناء عمومة لازمة، وهو بذلك يعتبر من (خمستي)، أي أننا لم نفترق لهذا الوقت؛ لأنّنا لم نخرج من الجدّ الخامس معه.

- سعفان: إن شاء الله خيرًا، والله المعرفة ممتازة لمثل هؤلاء النّاس، فإذا أخلصوا وصدقوا النيّة خدموا، الله يفرّحك بفرج، أولًا بالوظيفة؛ ومن ثمّ الفرحة الكبرى بزواجه. أكيد أن (***الدم لا يمكن أن يصير ماءً***)، والله يُبقيكم لبعضكم، وتدوم صلتك بأقاربك، هناك بعض النّاس يصنعون أقارب لهم من لا شيء، ويحكون لك عن انتماءات قبليّة وعشائريّة، حتّى أن النَّوَرْ (الغجر) لا تفوتهم هذه اللّفتة بتوثيق أنسابهم.

- النّمس: الله يسمع منك، إن شاء الله من فَمِكَ إلى باب السماء.

ماجد يستمع الحوار، وهو يجلس بجانب والده، يتأمّل تقاطيع وجه النّمس الحادّة، ويتخيّل هذا الوجه الحجريّ بقساوته الصّلدة، تهشّمتْ نضارة الشّباب فيه، كوجه أبي الهول، عندما عملت فيه عوامل الطبيعة عملها، ملامحه عميقة بغموضها القاتم، كأن الشيطان يتخفّي وراءها، وحركات يديه المترافقة بإشارات مع كلامه، مهتَّمٌ بتسويق موقفه للآخرين بشكل جدّي، ومتقن، وإيجاد مبرر شرعي لمثل هذه اللقاءات، يعمل جاهدًا على زرع فكرته هذه في أذهان الناس في القرية، وبالتّكرار يفهم الحمار كما يقال، بينما هما على هذه الحال، إذ خرج رامز للجلوس أمام باب المفرزة، حيث كان وحده، مُرتديًا بيجامة رياضيّة، ويتمطّى بيديه بحركات، تُنبئ على أنه صَحَا من نومه للتوّ.

تسرّب إلى نفس النّمس شعور بارتياح داخليّ، جلب له متابعة سلسلة أفكاره، إذا ما تقابل مع صديقه رامز، لكنّه فضّل التريّث بعدم الذّهاب إليه، حتّى يروق الجوّ قليلًا، كي يكون مرتاحًا، وعلى استعداد لاستقباله؛ لأن الجلسة ربّما تطول إلى أذان المغرب.

الأفخاخ معشعشة في حياة النّمس، وهي الدّواء النّاجع للكثير من القضايا التي يودّ الوصول إليها، و هي جزء لا يتجزّأ منه، ولكن لِمَ أستخدمها في تعاملي مع الآخرين؟، قال لنفسه، وهو يترقّب بتحفُّزٍ، الدقائق بطيئة بمرورها، متلهّف لذلك اللقاء منذ أيام انقطع فيها عن المجيء.

***

ما إن اتّخذ النّمس مكانه وجهاً لوجه مع رامز المشغول بشيء ما، بيده يحمل كأس المتّه، يشفط بصوت مسموع من المصّاصة، وبيده الأخرى السّيجارة، لاحظ النّمس أن مزاجه متعكّر، ودّ لو أنه لم يأته في مثل هذه الساعة.

- رامز: سأخبرك بشيء لكن على شرط، أن تأتيني بالبشارة و الحلوان.

- انفرجت أسارير النمس، نفسه مُتلهّفة لسماع خبر طال انتظاره: تفضل يا سيدي، أنت و ما تطلب، وما تريد، أنا حاضر.. يا سيدي، مهما كان.

- رامز: ألف مبارك، الأمور تمام بالنّسبة لابنك فرج، فما عليكم إلاّ أن تُجهّزوا الأوراق الضّروريّة، خلال أسبوع، ويأتيني بها هو بالذّات، لآخذه مع أوراقه إلى أمين الشّعبة، كي أضمن لك أن يرفعوا له أوراقه للقيادة، من أجل استصدار قرار التعيّين بشكل رسميّ.

- الفرحة رسمتْ بسمةً على وجه النّمس، تلعثم لسانه: من فضلك سجّل لي هذه الطّلبات على قطعة ورق؛ لأنك(***عارف البير، و غطاه***).

صَدَمَتْهُ الفرحة، خانته ذاكرته باستحضار الكلمات المناسبة لشكر رامز، وكأنّها عصافير فرّت عندما باغتها الصيّاد، أو الفخّ المختفي تحت التراب وهي تلتقط الطُّعْم.

- رامز: حاضر، قام وأحضر ورقة، صار يكتب، ويقرأ للنّمس ما يكتب: ثلاث صور شخصيّة، صورة عن شهادته الإعداديّة، ورقة غير محكوم، ورقة غير موظّف، وورقة حُسن سلوك، و سند إقامة، صورة عن الهويّة.

- النّمس: ربّي يقدّرني على مكافأتكَ، والله ثبت لي أنك صديق مخلص. هناك أمرٌ آخر، نسيتُ أن أخبركَ به.

- رامز: تفضّل.

- النّمس: في أول زيارة لكَ إلي بيتي، وقتها أخبرتُ أهل الحارة، أنك ابن عمّي، صراحة هناك جماعة منهم لم يصدّقوا الرّواية، فأرجو أن تعزز أنت هذه الرّواية، ولهذا مردود سيكون طيّبًا على علاقتنا، ولإبعاد الشّبهات عنها، بحيث نلتقي تحت غطاء قرابتنا.

- رامز: بالفعل نحن أبناء عَمٍّ، حتّى لو لم يكن هناك صلة دم بيننا، يكفي أن جدّك جاء إلى هنا من منطقتنا. واترك هذا الموضوع عليّ، عندما أسافر للقرية سأجلب لك شجرة نسب، تثبت صحّة كلامك، وبذلك يزول كلّ إحراج لكَ.

قام النّمس من فوره، وَدّع صديقه، مُتوجّهًا إلى بيته، زغرودة أمّ فرج انطلقت في أجواء الحارة، الضاجّة بصخب، و ضجيج أحد الأعراس فيها، لم يسمعها أحد، فقط هي عبّرت عن فرحة عمرها الأولى، وحدها دون مشاركة الآخرين لها، هي حبيسة أنانية زوجها وظلمه، هي صابرة مُصابِرَة، وكان أن عبّرت عن مشاعرها: يا ربّ، الحمد لله، عِشْتُ وشُفْتُ، بقي فرحة زواجه، و إنجابه، ولو مِتُّ من فوري بعد ذلك، فلستُ متأسّفة على الحياة أبدًا.

***

(١٢)

الأيام متشابهة في كل شيء، حدّ التطابق في كثير من معطياتها، في كل شروق تستنفر قرية (**أمّ الخنافس**) عن بكرة أبيها، في سباق مع زمن يمضي سريعًا، كالقطار لا ينتظر النّائمين المتأخّرين والكُسالى، والنّشاط يدبّ في البيوت.

النوم باكرًا سِمَة بارزة في حياة القرى، هكذا اعتادوا على مدار حياتهم، (***نَمْ بكّير، قُمْ بكّير، شُوفْ الصّحة كيف بْتِصِير***)، لكن ليس هذا ما يجعلهم يأوون مبكرّين، إنّها الأعمال الكثيرة تنتظرهم، وهم يتجنّدون لها، بإراحة أجسادهم من عناء، و كَدّ اليوم الذي قبله؛ كي تستمّر حياتهم فلا حياة بلا عمل، ومن لا يعمل لا يأكل، اللّقمة صعبة ينتزعونها من بين أنياب القساوة انتزاعًا، لا أمان لهم إذا لم تكن مخازنهم مليئة بالمؤونة من القمح، و الشّعير، و العدس و الحمّص وغير ذلك، حاجتهم للطّعام طوال أيام السّنة.

ما إن تغيب الشّمس، ويبدأ الظلام يتسرّب حتى يكون العَشَاء جاهزًا، خاصّة في الدّوُرِ (البيوت) الكبيرة، وعلى عادة الفلاحين فطبيخ المُجدّرة (البرغل و العدس) طعام كل يوم، وَكِيلَةُ الدّار تكون من الكَنَائِنِ اللّاتي يتقاسمن العمل فيما بينهنّ، فالدّوّارَة من يكون عليها دَوْر الطّبخ في هذا اليوم، بعد نضج الطعام في فترة الغروب، تسكبُ أكثر من مِنْسَفٍ في ساحة الدار، تأتي العمّة (الحَمَاةُ)، تحمل صحنًا صغيرًا من النحاس فيه شيئًا من زيت الزّيتون، تغمس يدها فيه، وتجثو عند كل منسف؛ لتمسح ظاهر الطّعام بما يعلق بيدها من الزّيت، وتدعوهم للتقدّم للأكل، وهي كلمة ينتظرونها من فمها بفارغ الصّبر، المحظوظ من يجد رأس بصل يابس، يكسره على الأرض مقتطعًا جزءًا منه مع كلّ لقمة. غالبًا ما تكون هناك حلقتان، أو ثلاث في ساحة الدّار تتمحور حول المناسف،

الأيدي تمتد بسرعة لتُسْكِتَ جوع البطون، فمن حضر أكل، ومن لم يحالفه الحظّ بات ليلته تلك، يصارع قرقعة الجّوع حتى الصباح، لا استمرار للحياة في القرية إلا بالجّماعة، و العمل الجّماعي، (***اليد الواحدة لا تصفّق وحدها***) كما يُقال، لا يستطيع الانفكاك من الجّماعة أحد، الأب يأمر أولاده فيطيعون، ومن يُظهر عصيانًا، أو تمرّدًا على سلطة والده، يعاقبه أحيانًا بالضّرب أمام زوجته (الكنّة) وأولاده، وبلا تردّد، لا أسرار مخفيّة كل شيء مكشوف تقريبًا، فـ(***حارتنا ضيّقة***) أي أنه لا مجال للاحتفاظ بِسِرٍّ أو معلومة.

غرفة واحدة لكل عائلة في الدّار، الزّوج و الزّوجة و الأولاد كلّهم في هذا الحيّز الواحد، المستوعب لكل نشاطات الأسرة، من نوم وشخير وتناكح واستحمام، فلا سرير لكل فرد، إنّما الجّميع ينامون على الأرض، والأولاد جميعهم في فراش واحد، لا فرق و لا تفريق بينهم في المضاجع.

بعد ساعات قليلة من مجيء اللّيل، يخيّم السّكون على أرجاء القرية إلا من صوت نهيق أو خوار أو نباح أو نقيق أو صرير ريح، أو حفيف الشّجر، وعرير ابن وَرْدَان(صرصور الليل) لا يتوقّف حتّى الفجر، وبزوغ أوّل خيوط النّور. قليل من شباب القرية، ورجالها الذين يسهرون لساعات متأخّرة، لغايات وشؤون هم أدرى بها، واللّيل ستّار العيوب.

في ظلام اللّيالي الأفخاخ تنتصب، الغايات تختلف، كلّها لتُبَرّرَ بها الوسائل، كلّ يريد الآخر، والآخر يريده، تبرير لأنفس أدمنت النّفاق، والتّعامل بأكثر من وجه، اعتادوا الاختباء خلف الأقنعة، لتجميل قبيح صورتهم في أعين الآخرين، ويلٌ للأقنعة من يوم إذا سقطت عن الوجوه، تتعرّى الأشياء، وتبقى الحقيقة المُذهلة مدهشة على غير ما هو متوقع.

***

حرص رامز على الاستحواذ يوميًّا على وردة جوريّة، من أجل صباح كل يوم، يَذْرَعُ طريق المدرسة بترقّب شديد، و كلّ قليل يرفع يسراه، ليرى أين وصلت عقارب ساعته، غالبًا يبدأ مشواره اليوميّ من السّابعة صباحًا، أوّلًا بذهابه إلى المخبز، لشراء الخبز، لا يأخذ منه المشوار أكثر من عشر دقائق؛ لقرب الفرن من المفرزة.

يعود ثانية، يرتدي ملابسه مُتأنّقًا، يطيل النظر في المرآة؛ لتصفيف شعره، وقبل خروجه يرشّ العطر النفّاذ من زجاجة جميلة، أهْدِيَت إليه من أحد القادمين من الكويت.

ما إن يلمح طيفها قادمًا من رأس الطّريق؛ فيتأكّد من حُسن هندامه، وتناسقه، يبقى يسير ببطء، ما إن يصبح على خطوات منها، يُطلَقُ نفسًا عميقًا ارتياحًا، و ابتهاجًا، ويقول: صباح الورد يا حبيبتي. يمدّ يده لمصافحتها، تتناول الوردة من بين أصابعه.

- تحييه: صباحُكَ وَرْدٌ، و رَيْحان.

- طال ليلي، جفاني النّوم، و أنا أتفكّرُ فيكِ، لم أنمْ أبدًا، انظري إلى وجهي، وعينيّ، منهما تعرفي الخبر، خيالكِ استحوذ عليّ، فَنَهَبَ النّوم من أجفاني.

- أصحيحٌ..؟، أنّني فعلتُ بكَ كلّ هذا، ولا أدري..!!، تتبع جملتها بضحكة عالية، - وهي تتمايل طربة كأنّما أنغام موسيقى تداعب عقلها، فيستجيب جسدها لحركات مثيرة غير إراديّة، بلا تكلّفٍ منها -.

- و أكثر من هذا، أنتِ حبّي الحقيقيّ.

- تبتسمُ، تُحَرّكُ حاجبيْها بِمَكرٍ، وهي تزمّ شفتيها مع هِزّةٍ خفيفة من رأسها، علامة تعجبّها مما تسمع منه، وهي لم تتعرف عليه إلا من فترة بسيطة، وقد حصل له ما حصل، و تقول: إذا كان ما سمعتُ منكَ حقيقيًّا، كان الله في عونك، ستتعب كثيرًا معي، ما زلنا في بداية الطريق(***ما صار لنا بالقصر، إلّا من إمْبَارِح العصر***).

- رامز: هذه هي حال المحبّين، يهيمون بمن يحبّون، وأنتِ ملكتِ كل أحاسيسي و مشاعري، للمرّة الأولى في حياتي.

- راحتْ شمسه تتأمّله بِمَكر، سريعًا فكّرت باستخدام دهائها، وهي تقف على مسافة من كلامه، ارتوتْ فيضًا من عواطفه الملتهبة، قرّرت نَصْبَ فخّها بإحكام، وهي تقول له: أأنتَ متأكدٌ من كلامكَ؟، هذا موضوع كبير بحاجة منّي إلى تفكير عميق؛ لأنّه مصير حياة، فمن غير الممكن أنّ أحدنا يُحِبّ اليوم، ويكرهُ غدًا، عليّ مراجعة الأمر لتقييم علاقتنا، سأرى إن كانت تستحقّ أن نستمرّ فيها، أو نتوقّف، أو نتباعد إلى غير لقاء.

- رامز: بالله عليك لا تقتليني؛ لأنّكِ تُدَمريني بقولكِ هذا، قلتُ لكِ: أنتِ وحدكِ فقط من دخل قلبي بلا استئذان، و استولى عليه، إلّا إذا كان هناك أحد غيري في حياتكِ.

- شمسه: حياتي أنا لي وحدي، لا أسمح أن يدخل حِمَاها إلاّ من أُسَلّمَهُ مفتاح قلبي عن طواعيّة منّي، على العموم غدًا نهاية الأسبوع، سأسافر للقاء أهلي، والاطمئنان عن حالتهم، لأنّني منذ أسبوعين لم أشاهدهم، بداية دوام الأسبوع القادم سيكون الجواب، سأترك لنفسي مجالًا للتفكّر، والاختيار عن قناعة تامّة، رجاء أن تتركني لأنّنا اقتربنا من المدرسة، لا أرغب أن تشاهدني إحدى زميلاتي من المعلمات، أو العاملين في المدرسة، مثلما تعرف أن كلام النّاس لا يرحم، مع السّلامة، إلى اللّقاء.

تركها لتتابع طريقها، وسَلَكَ زُقَاقاً ضيّقاً للعودة إلى مفرزته، فوقت الدّوام اقتربت بدايته، رئيس المفرزة على وشك القدوم من إحدى القرى المجاورة في سيّارته. الوردة الجوريّة ما زالت بين أصابعها، برومانسيّة رائعة، تُوحِي للمتأمّل بالكثير من الأفكار.

***

أم فرج تعبّر عن فرحتها، بإطلاق المزيد من الزغاريد، عادة ما تستجلب الزغاريد المهنئين من أهل الحارة، و الجيران مجرد سماعهم يأتون، وكلّ من يسمع من الجوار، لكن خابت كلّ توقعاتها، هي تودّ لو أنّ كلّ نساء الحارة أتيْن في هذه اللحظة، وشاركنها هذه الفرحة التي لم تتسع دنياها لها.

أضمرتْ في نفسها شيئًا، بأن تقيم مولدًا، وتدعو إليه جاراتها، ونساء الحارة جميعًا، دموع الفرحة تغالبها، حينها انصرف تفكيرها لكيفيّة مُفاتحة زوجها بما تنوي فعله، ووضعت في حُسبانها كلّ الاحتمالات من قبول، أو رفض، أو رَدٍّ قاسٍ، مع ذلك قرّرت المتابعة والمجازفة، ربّما يوافق على طلبها، وهو آخر ما لا تتوقعه منه، وهي تقول لنفسها: (***شوف حال العنزة، واطلب الحليب***).

- أمّ فرج: يا زوجي الحبيب، عندي طلب صغير، أرجو أن لا تُخَيّب أملي في تحقيقه هذه المرّة.

- النّمس: تفضّلي.

- أمّ فرج فركتْ عينيها، لَمَزَتْ أذنيْها، ممّا سمعت، و ما لم تكنْ تتوقّعه منه أصلاً، وهي من المرّات القليلة في حياتها الزوجية، أن يُنْصِتَ لها، وتسمع منه كلامًا لطيفًا: ما رأيكَ لو أنّني عملتُ حفلة مولد لإيفاء نَذْرٍ عليّ، كنتُ قد نذرته منذ أن ولدتُ فرج، وليس أعظم فرحة على قلبي من تلكَ، كأنّ الدنيا كشفتْ لي عن زُهوِّها، وابتسمت لي من جديد، وستعوضّني الكثير من الحرمان، عسى الله..!! أن يحفظه، ويوفّقه لنا، وسأدعو لحفلة المولد كلّ الأقارب، و الأصدقاء، و الجيران؛ لتكتمل فرحتنا، ألا ترى أنّنا مثلما يُقال كـ (***المقطوعين من شجرة***)؟؛ فلا أحد يدخل بيتنا، أسوة بأهل الحارة، لا أذكر بالضّبط متى دخلت علينا إحدى الجارات، إلاّ عندما جئنَ لتهنئتي بولادتي لابننا فرج، كان هذا منذ سنوات طويلة، كدتُ أن أنسى ذلك.

- النّمس: معك الحق، لكنّها ظروفنا كما ترينْها، ولا حاجة للمزيد من الشّرح، أعتقدُ أنّك حفظت هذا منذ زمن طويل، إلاّ إذا كنتِ بحاجة للتّكرار حتّى تستوعبي.

- أم فرج: يا بن الحلال هي فرحة العمر، إذا لم أفرح الآن، أفي القبر سأفرح؟، ضاع عمري سُدًى، و بلا فائدة، كلّه في الشّغل و الخدمة.

- النّمس: لا عليك سيّدتي، من الآن فصاعدًا ستتغيّر المعاملة بالنسبة لك، هذا ما كنت أنْويه، وأفكّر به منذ زمن، أطلب من الله أن أستطيع تعويضكِ شيئًا بسيطًا مما ضاع، أرجو أن تسامحيني، فكما تعرفين هو الفقر، وقسوته صبغت حياتنا بألوانها، و(***صَبْرُكَ على نفسك، ولا صبر الناس عليك***)، كفاحنا مرير من أجل البقاء، والوقوف على أرجلنا.

- أم فرج: يا أبا فرج، العمر ضاع، وما فات فات، ضاعتْ فيه زهرة حياتنا، و لا يمكن أن نسترجعه، فلنفتح صفحة جديدة، علّنا نستردّ شيئًا من سعادتنا المفقودة.

- النّمس: الأيّام القادمة سأجعلك أسعد امرأة في أمّ الخنافس كلّها. فعلًا فاتنا الكثير بإمكاننا استرجاع شيء منه.

- أم فرج: أعانك الله على فعل كل خير لنا.

***

استغرق فرج في استخراج أوراقه المطلوبة أسبوعًا بتمامه وكماله، في يوم الخميس مساء عرّج على رامز في المفرزة، وكان هو المناوب الوحيد في نهاية الأسبوع، جميع زملائه ذهبوا إلى بيوتهم، لرؤية أُسَرِهِم، حتّى أن شمسه سافرت إلى قريتها، ويقال: (**أنّ الصّدفة خير من ميعاد**)، كما أنّ سعفان تأخّر في محلّه، بانتظار سيارة البضاعة القادمة من العاصمة، هذه من المرّات القليلة التي يحصل له فيها التأخير. فربّما تعطّلت على الطريق، يا ربّ تسترنا، وتصل بالسّلامة، يقول ذلك لنفسه، على مسمع ابنه ماجد الجالس قبالة الشبّاك المطلّ على السّوق، يراقب جلسة فرج مع رامز أمام بوابة المفرزة.

تأتي كلمات والده على مسمعه، فلا يُلقي لها الانتباه الكافي، طال انتظارهما، وطالت سهرتهما، وهو ينصت باهتمام علّه يسترق كلمة منهم تصله بسهولة؛

لهدوء جلبة الناس، وانقطاع حركتهم، الظّنون تأخذ بذهن ماجد إلى كلّ الاحتمالات الممكنة، وغير الممكنة، وهو يلحظ الظّرف الورقيّ بِيَدٍّ فرج.

الساعة تعدّت العاشرة ليلًا، قام رامز من مكانه إلى داخل المفرزة؛ تبعه فرج، أغلقوا الباب الخارجي، أطفئت اللّمبة الخارجيّة، فأعتم المكان قليلاً، إلا من بقايا أنوار السّوق المتناثرة بتباعد ظاهر، في هذه الأثناء وصلت السيّارة، اصطفّت أمام المحل؛ فتناولوا بضاعتهم، وكدّسوها في عتبة الدّكان، أغلقوا الأبواب، وانطلقوا قاصدين البيت، لكنّ ماجدًا أضمر في نفسه العودة لاستطلاع الأمر، أثناء مرورهم بساحة الحارة قبل دخولهم للبيت، التقى ماجد بصديقيْه(أنيس ومحمود)، سلّم عليهما، وهمس لهما: أنّ أمامكما مهمّة، عليكما الاستعداد لها، انتظروني حتّى آكُلَ لقمةً، و يكون أبي قد دخل إلى غرفته، من فوري سأعود إليكما.

نصف ساعة استغرق غيابه عنهما في البيت، تناول مع والده طعام العشاء الذي كان جاهزًا، تسلّل من البيت خُفْيَةً بحركة مدروسة ماهرة، تأكّد من نوم والديْه. هيّا بنا يا شباب، اليوم يومكم، سجّل عندك يا تاريخ، قال لهما ذلك. - بزهوٍّ و ثقة - .

- أنيس: لم تخبرنا شيئًا عن المهمّة هذه المرّة..!!.

- محمود: ما الأمر يا ماجد؟، أكاد أجنّ إذا لم أعرف.

- ماجد: على رِسْلِكُما، في الأمس القريب كان النّمس لوحده، اليوم طلع علينا ابنه، منذ ساعات، وهو يجلس مع رامز أمام المفرزة، ومن ثمّ دخلا، وأغلقا الأبواب، وفي مثل هذه الأوقات عادة لا تغلق المفرزة أبوابها أبدًا، بل تبقى مفتوحة إلى آخر اللّيل، للمخبرين المتسلّلين إليها تحت جنح الظلام.

- محمود: اللّيل ستّار، وما تظنّ أنّهم فاعلون.

- أنيس: ربما أن فرج عنده تقارير كثيرة، فدخلوا ليدرسوها جيّدًا.

- ماجد: إذا كان الأمر كما تقول يا أنيس، فهو هيّن، ولكن الشّكوك تأخذني لأبعد من ذلك بكثير.

- محمود: هات أخبرنا بصريح العبارة، كي نفهم الأمر على حقيقته.

- ماجد: اليوم هو الخميس، جميع الموظّفين في المفرزة غادروا إلى بيوتهم، حتّى أنّ زميله خليل أيضاً مسافر، والمعلّمة شمسه، و زميلاتها سافرن إلى أهلهنّ.

الصمت يلفّ السّوق، المحلّات أغلقت أبوابها في هذه الزّاوية، أصوات عَرِير ابن وَرْدَان (صُرْصُور الليل)؛ وحدها هي السيمفونيّة المسيطرة على الجوّ، الأمور مطمئنة، استطلَعُوا المكان بشكل جيد، تَسَلّلوا ملتصقين مع الجدران و الزوايا، بحركة دبيب النّمل، ينقلون أقدامهم، حتّى أنّ حركة أنفاسهم خمدت فيهم، أنوار غرف المفرزة معتمة، إلا غرفة خلفيّة تطلّ بنافذتها على زقاق خلفيّ خالٍ من البيوت، صوت الراديو يأتي من الغرفة، على أنغام أغنية لأمّ كلثوم، همهمة غير مفهومة بشكل واضح، إلاّ من تأوهاتٍ، تصدرُ عالية بين الحين و الآخر.

ماجد يمشي على رؤوس أصابع قدميْه، حتّى وصل النّافذة، مُتَلَصِّصًا من زاويتها التي لم تأتِ السّتارة على تغطيتها بشكل تام. انعقد لسانه، توقفت أنفاسه، ازداد خفقان قلبه بشكل مريع، من هول ما رأى، انتصب شَيْؤُهُ بلا إرادة منه، انسحب للوراء فاسحًا المجال لمحمود؛ كي يقف مكانه لمتابعة المشهد، فأصابه ما أصاب ماجدًا، ثم انسحب ليتقدم أنيس، كادت درجة انفعاله أن تفضح خطتهم، وتُفشِل تناوبهم على متابعة الفيلم الجنسي الشخصي بين فرج المفعول به، و رامز الفاعل، وممارسته لِفِعْلِ اللواط الشنيع عدة مرات، والمثير في الموضوع، الاستسلام الكامل من فرج لرغبة رامز الجامحة، وهي تتأجج مرة تِلوَ أخرى، رامز يعلم في قرارة نفسه أنه مَلَكَ فرج، وصار خاتَمًا بإصبعه، ولن يرفض له أمرًا أبدًا. وهذا الأمر شائع في تنظيمات الماسونيَة التي تستخدم الاستعباد الجنسيّ لأعضائها، حتَى لا يفلتون منها إن حدّثتهم أنفسهم بذلك، فيكون مُستمسكًا ثقيل العبء عليهم مدى حياتهم، وبذلك لا يستطيعون فكاكًا من براثنها، وتنفيذ ما يُطلب منهم.

***

نامت القرية على هموم سكّانها بصمت أثقله التّعب، واستفاقت على فضيحة مُدَوّية، من الصّباح تناقلت الألسن الفضيحة همسًا، بالطبع لم يسأل أحد عن مصدر الخبر، والتأكّد من صحّته أو كذبه، فما إن جاءت الظّهيرة إلا و كلّ من في القرية يتداول الأمر، الفظاعة في الأمر أنّها فضيحة مُحْكَمَةٍ، صُودِق عليها في أذهان النّاس جميعاً بلا تردّد، أصحاب القضيّة لا علم لهم بما يدور حولهم، الماء سالت من تحتهم، وهم ساهُونَ لاهُونَ.

خوفاً من سطوتهم، لم يجرؤ أحد أن يوصل الخبر إليهم، غريزة الخوف منغرسة في قلوب الناس، وُلِدَتْ معهم، وتنامت معهم حتى استطالت لتصبح طبعًا متأصلًا، (***يا عمّي ابْعِدْ عن الشر، و غَنّي له***). اعتاد أهل الأرياف عمومًا على تفريغ شحناتهم الجنسية في الحيوانات، خاصة الأتان منها، و الكثير منهم بوغت أثناء فعلته، لكنّ فضيحة اللّواط كانت قنبلة الموسم، فلم يعتدها أهل القرية بهذه الجرأة. سجّل عندك يا تاريخ، قالها ماجد للأولاد في اليوم الثّاني أثناء مروره بهم، إلى البيت بعد يوم عمل طويل، من الصّباح حتّى اللّيل. مجلس نساء الحارة، منعقد في حالة استنفار تام، و التلهّف على خبر جديد، يلهب تأويلات، وتفسيرات كلّ واحدة منهنّ.

- أمّ سعيد موجّهة كلامها لأمّ منيف، وهي تجلس قُبالتها، وهنّ منزويات في ركنهنّ غير البعيد عن زاوية الرّجال؛ كي يأخذن حريتّهن في تداول الكلام: (يي يا خَيْتِي، شُفْتِ إللّي بِدْهُم يصيروا رجال، ويفتحوا بيوت؟ شو عَمْ يعملوا بحالهم، الله لا يوفقهم).

- أمّ منيف، تتلمّظ على بقايا طعام في فمها، تبصق ما تبقّى في فمها جانبًا، بعد أن ازدردت القطع الكبيرة، تمسح فمها بقطعة قماش ناعمة لا تفارق يدها أبدًا: تفووو (تُفٍّ) على هيك شباب، إذا كانوا حقيقة من جنس الشّباب.

تصل فليحة حاملة طفلتها الصغيرة تُهَدْهِدَها بين يديها، ما إن جلست حتّى أخرجت ثَدْيَها، و ألقمته فم طفلتها، من فورها بادرت الدّخول بالموضوع، دون استئذان من أمّ منيف، و أمّ سعيد، وتقول: للأمانة النّمس زَلَمَة (رجل) مشهور بالكذب، وتهويل الأحداث، وظلمه خاصّة لزوجته، لكن أن تصل به الأمور،

إلى هذا الحدّ من الانحدار و السّقوط، و جاء ابنه فرج؛ ليكون كمن (***زاد بالطنبور نَغم***).

- أمّ سعيد: كلّ شيء أهون ألف مرّة من شرف الرّجل وكرامته.

- أمّ منيف: و الله أستغرب من أمثال هؤلاء المخانيث، كيف سيتزوّجون، ويقومون بأعباء الحياة الزوجيّة؟.

- فليحة: و الله سيرتهم تقشعر لها الأبدان، بَدَنِي انهزّ من سيرتهم، الله يقطعهم، ويقطع أشكالهم.

- أمّ سعيد فطنت لغياب صالحة، متسائلة عنها: ما أخبارها؟، من كم يوم لم أشاهدها، أخاف أن تكون مريضة.

- فليحة: لا يا أمّ سعيد، هي مشغولة بمجيء أخوها محمد من السّفر، حيث قضى عدّة سنوات لم يأت.

- أمّ منيف: الله يهنيها، أكيد الهديّة ستكون على قدر غيابه.

***

نطاق القرية ضيّق لا يتّسع للأسرار و كتمانها، الكلّ مكشوف للكلّ، مجتمع أفراده معروفين بأكملهم، متشابهين في كلّ شيء، قليل هم المختلفون عن جوقة محيطهم، فالأرض حياتهم و منبتهم ومعاشهم، اختاروا عزلتهم طوْعًا، يعملون ليأكلون.

الرجال جالسون في الجانب المقابل للنّساء من ساحة الحارة، يتبادلون أحاديثهم المختلفة، أما موضوع الفضيحة، فمرّوا عليه مرور الكرام، مُسْتَرْذِلين و مُسْتَقْبِحين ما سمعوا، علامات الاشمئزاز بدت على وجوههم عندما فُتحت السّيرة. أولاد الحارة نسجوا من خيالاتهم الحكايات، و الروايات، تجاوزوا بها حدَّ المعقول على قدر فهمهم، اتّساع شطحات الخيال تزيد مساحة اللامعقول

عندهم بجديّة تكاد أن تُصدّق. يبدو أن العاصفة لن تمرّ على خير، خاصّة عندما سُمِعَ تهديد ووعيد سليطين، على مسمع الملأ من أهل الحارة، الجميع يخشى سطوته، هيبته تُلقي المهابة في دخيلتهم شاؤوا أمْ أبوْا، سلاطة لسانه تذعنهم بلا جدال.

أمّ ماجد تقوم بإبلاغ زوجها سعفان، بما يدور في الحارة، بينما هو يتناول طعام عشائه، يستمع فقط لكلامها، ولا يتفاعل معها لا بالكثير، أو القليل، عندها أشارت بإيماءة خفيّة من اصبع يدها الوسطى، رفعتها عامودیّة مع باطن كفّها بإشارة دالّة على الحدث...، بحيث لم يلحظ حركة يدها ماجد، و خجلًا من ابنها الجالس على المائدة قُبالَة والده، وهي جالسة خلف ابنها.

***

(١٣)

قال حكيم: (***معرفة الرّجال تجارة، ومعرفة البلاد إمارة، ومعرفة النّساء خسارة***)، آخر كلام قاله الأستاذ فهيم لصديقه فارس، أثناء لقاء عابر بينهما في السّوق، تزامن مع مرور شخص غريب الوجه عن القرية، ببزته الرسميّة الأنيقة، وربطة عنق أرجوانيّة اللّون متناسقة مع محيطها بجمال لا تخطئه العين، و رائحة دخّان غليونه اقتحمت أنفيْهما، منظر طريف، ألقى التحيّة عليهما، عندما صار بمحاذاتهما.

- الأستاذ فهيم تابع: سأخبرك شيئًا أفكّر به الآن، وهو وليد هذه اللّحظة، لم أتمنَّ في حياتي السّعي للتعرّف على شخص ما، إلا هذا الشّخص، وسأطلق عليه(أبو غليون)، فقد هفا قلبي إليه، والاسم مناسب جدًا لهيئته، استقرّت صورته عميقًا في ذهني، ووجدت زاوية تستقرّ فيها.

- ضحك فارس بملء فِيهِ، وراح يردّد، ما قاله الأستاذ فهيم: لله درّك يا أستاذ، أيْ نعم، كما تفضّلتَ حضرتك، فإن معرفة الرّجال تجارة، و تعلم أنّها قابلة للربح و الخسارة، أتمنى لك تجارة رائجة غير كاسدة.

- هزّ الأستاذ فهيم رأسه بتعجّب، رفع حاجبيْه، ترافق ذلك مع زمّ شفتيه، و مَطّهُمَا للأمام، علامة حَيْرَةٍ ارتسمت بخطوطها على جبينه؛ لعدم الاطمئنان من وخز كلمة صديقه فارس: على كلّ أستودعك الله، وإلى لقاء آخر، فإنّني على موعد مع العائلة للخروج لزيارة بعض أقاربنا، للمباركة لهم بزواج ابنهم، فهم بانتظاري، سنذهب ونعود قبل الغروب.

- فارس: بأمان الله، أراك بخير صديقي.

***

رائحة عطره النفّاذة عبقَت في أنوف كل من وافق مروره بمرور الشّخص الجديد الوافد(أبوغليون)، يمشي بخطوات ثابتة كالطّاووس مُتَبَخْتِرًا في مِشْيتِه، بقامة متوسّطة الطّول، أنيق بهندامه المتناسق، علامته الفارقة غليونه الذي لا يفارق فمه، كان شيئًا غير معهود لفت انتباه النّاس إليه في القرية، يمشي ويتوقّف، يقوم ويجلس، يتكلّم ويسكت، والغليون ثابت لا يتزحزح، ولا يقع على الأرض، و كأنّه يهزأ بقدرة الآخرين، ويتحدّاهم أن يستطيعوا فعل ذلك، تندّر البعض على إضافته إلى عجائب الدنيا السّبع، لتصبح ثمانٍ.

ما إن انتهت الفضيحة المدويّة بفترة غير بعيدة، ليكون (أبوغليون) حديث المجالس في القرية، تكهّنات أثيرت حوله، تخمينات أيضًا كلّها كلام بكلام، لا تستند إلى معرفة حقيقيّة به، وكان تندّر الأولاد عليه، بتقليده في مشيته، وهم يرفعون رؤوسهم، تنمّ حركاتهم عن التكبّر و التّعالي، ويضعون شيئًا بأفواههم يميلونه باتجاه اليمين، أو اليسار كأنّه الغليون، تقليد إعجاب بصاحبه.

***

أنا شاعر منذ سِنِي الصغر، قلبي مُرْتَحِلٌ في عالم من الأحلام الرومانسيّة، يُضفي بظلاله على مساحة الكرة الأرضيّة، لا أستطيع تشبيهه إلا بخيام البدو المهاجرة كما قيل، أصدقائي المقربون يُطلقون عليّ لقب ابن بطّوطة، و أنا أُشَبِّهُ نفسي بالسندباد عندما انْطلقَ في رحلته الشّهيرة يَجُوب البلاد، ويكابد المتاعب والمصاعب، يواجه الأهوال و المخاطر، للبحث عن الحق و الحقيقة، وتسجيل ما يرى ويلاحظ، ونَقْلَهُ للآخرين من خلال كتاب رحلاته، وأنا تَوْقُ بحثٍ دائم عن أرض ترتاح إليها نفسي، يستقرّ قلبي فيها، تسكن إليها روحِي، فلم أجد إلا قريتكم الجميلة الرائعة، الموحية لي بالجذب الرّوحي للابداع، وتلهمني؛ كي أكتب مجموعتي الجديدة التي لم أختر لها عنوانًا حتِى هذه اللّحظة، فأثناء دراستي الجامعيّة في قسم اللغة العربيّة، رَتّبَ لنا القسم رحلة إلى المناطق النائية، وكان لهذا المكان نصيب وافر من رحلتنا تلك، ومن يومها علقتْ روحي هنا، كطائر حُبٍّ صَادَهُ شَرَكٌ، قال(أبو غليون) هذا الكلام و الشّرح، للرّجال الجالسين في سهرتهم الاستثنائيّة غير الاعتياديّة بكل المعايير

في دُكّان عكّاشْ، رغم تأخّر الوقت، كان عنصر التّشويق هو ما جعل الانسجام سيّد الموقف، لاكتشاف القادم من المجهول، فقد اقتصرت على خمستهم، لكن الضّيف الجديد، فتح آفاقًا رحبة من الخيالات لهم هذا اليوم، في كواليس التّخمينات، و التّأويلات، غليونُه لم يفارق فمه، وكلّ قليل يتناول ولاّعته، ليُشْعِل التّبغ في غليونه، رائحته زاكية تعشّقَتْها الأنوف، حتّى الكارهة منها للدّخان بكل المعايير أحبّتْه.

- الأستاذ فهيم: أهلًا بك بيننا أخًا عزيزًا، وممّا زاد في سروري أن أرحّب بك شاعرًا، ومثقّفًا، وقارئًا، وهذا مما يجعلنا نتوق للتواصل الدائم معك، تحيّة من شاعر إلى شاعر، التقينا على مائدة الكلمة.

- أبوغليون: يسحب نَفَسًا عميقًا من غليونه البنّي الدّاكن، ينفث دخّانه للأعلى، يمدّ يده يتحسّس ربطة العنق، ليتأكّد من مكانها الصّحيح، ابتسامة خفيفة ترتسم على مُحيّاه، ويردّ على الأستاذ فهيم: أشكرك أستاذنا الفاضل، بكلّ تأكيد أنّني سأجد نفسي بينكم في ركنكم المكين الهادئ، والأصدقاء الجدد، و بكلّ صدق أشعر بتواصلي الروحيّ بكم، وكأنني عرفتكم منذ زمن طويل، حتى لو أني لم ألتقيكم مطلقًا، جاذبيّة ما، لا أدري مصدر انْبعاثها؟، لا أستطيع ترجمة مشاعري العارمة، وهي تنتابني الآن، وهل طبعتَ مجموعة أشعارك يا أستاذ فهيم؟.

- الأستاذ فهيم: من كمال سرورنا جميعًا في القرية، وجودك بيننا، في الحقيقة أنّني شاركتُ كثيرًا في الأمسيات، لكنّني لم أصل لمرحلة الطّباعة، كما تعرف حياة الموظف ومطبّاتها، وخاصّة المُدرّس سابقًا، والمتقاعد مثلي دخله متواضع، لا يكفي للدّواء فقط في بعض الأحيان مع متطلبات الحياة اليومية، من حُسن الحظّ أن كلّ قصائدي موثّقة عندي؛ أستطيع الرّجوع إليها في أيّة لحظة.

- أبوغليون: أستاذ لو أردتَ أن تنشرها، فأنا مُستعدٌّ لمساعدتك في ذلك، ولن تدفع ليرة واحدة، سأبذل قُصارى جهدي على أن تتبنّاها وزارة الثّقافة و الإرشاد، سيتولّى ابن عمّي الموظّف هناك كامل الموضوع، وباستطاعته أخذ موافقة الوزارة على نشرها، وعلى نفقتهم.

- الأستاذ فهيم: بارك الله بك، والله عرض مُغْرٍ، لا يمكن أن يُقاوم أو يُرفض.

- أبو غليون: أنا في خدمتك عندما تنوي أخبرني، و في أوّل مشوار لي إلى العاصمة سآخذ المخطوط معي.

يتناول عكّاش مصبّ القهوة البكرج (إبريق) النحاسيّ، ويدير الفناجين إلى الجالسين، يبتدئ بالفنجان الأول به عادة، ومن ثمّ إكرام الضّيف، درج النّاس على هذه العادة المتوارثة لطمأنة الضّيوف بأن ما يُقدّم لهم سليمًا من أي شيء ضار، عكّاش رجل يسمع أكثر مما يحكي، فمنذ بداية هذه الجلسة وهو مُستمع، فلم يبدُر منه إلاّ كلمة تفضّل، لمن يناوله فنجان القهوة.

انتقل(أبوغليون) من قريته في الشّمال ليستقرّ في العاصمة؛ بحسب وظيفته، ومن ثم انتقل عمله إلى القرية، كان عليه جلب عائلته معه، فاستأجر بيتًا، بجانب بيت الأستاذ(عطاالله)، وهو من مُحِبّي الأدب و الشّعر.

خلال فترة قصيرة اختلط (أبوغليون) برجالات القرية، وأهدى للكثير منهم نُسَخًا من مجموعته الشعريّة اليتيمة، فهي متوسطّة القطع تعادل حوالي المئة صفحة، وعلى حدّ قوله إن الجوّ الهادئ في القرية له جاذبيّة روحيّة، والهواء العليل، هما مبعثه للإبداع و الإلهام، من هذا الباب دخل على الوُجَهَاء، مُدّعيًا أنّه متواصل روحيًّا معهم، وأنّه يعرفهم بصورهم مما جعلهم يؤيّدون كلامه احترامًا له، وعدم إفشاله أمام الحضور، صار يتردّد كثيرًا على المضافات في القرية، يستمع الحكايات منهم، ومشاكل القرية المتداولة في جلساتهم، وسهراتهم تلك.

أبو غليون يسجّل رؤوس أقلام عن كلّ حاجة تمرُّ به، ولا ينسى شيئًا، وهناك في الخفاء له أعوان بين أبناء القرية، يستعينُ بهم؛ يفسرّون له ما خفي عنه، إذا لم يستطع معرفته، فيما بعد يقوم بدوره بعمل تقاطع معلومات. فيجمع المتناقضات، ولا يُغْفِل أيّ شيء في النّهاية، مهارته فائقة في تحليلها، وإعادة تركيبها بما يخدم ما يسعى إليه، ويرفعها بدوره لمرؤوسيه هناك في العاصمة في إدارة المخابرات.

انفضّت السّهرة من دكّان عكّاشْ، قام أوّلًا الأستاذ عطاالله، وجاره الجديد(أبوغليون) متوجّهين إلى حارتهم الجنوبيّة، بعكس اتّجاه الأستاذ فهيم، وصديقه فارس، ما إن سلكا طريقهم، تساءل فارس بدهشة لم تختف من لهجة كلامه: يااااه..!!، ألهذه الدرجة قريتنا أمّ الخنافس المنزوية في أقصى الزمان و المكان، صارت المكان المفضّل للشّعراء و الكتّاب و المثقّفين؟، و ها هو أوّل الغيث قطرة.

- الأستاذ فهيم، يضحك من قلبه: هذا فخرٌ لنا ولقريتنا، لتكون كعبة للعشّاق من هذه الفئة. صمَتَ فجأة، ولم يعلّق على الكلام الكّثير الذي سمعه من فارس طيلة الطريق. الشّك و الرّيبة لغرابة الموقف أدخلتاه في دوّامة، لم يتبيّن معالمها.

في البيت لم يتمالك الأستاذ نفسه من صدمة الموقف المدهشة، فتحدّث مع زوجته فاطمة في صباح اليوم التّالي، أثناء تناولهما طعام الإفطار، بخصوص سهرته البارحة في دكّان عكّاش، و استغرابه من أمر(أبو غليون)، فقالت: (***يا خبر اليوم تشتريه بمصاري، بُكْرَه -غدًا- تسمعه ببلاش***)، من المؤكد أن وراء صديقكَ هذا قصّة وحكاية، أبعد الله شرّه عنّا.

***

فاضت دروب الغرام، واشتعلت حرارتها، وتأجّجت العواطف بدفقها، فغاب العقل، وتوقّف الفكر، العلاقة عكسيّة متناظرة بين العاطفة و العقل، إذا طغى أحدهما، غاب الآخر عن الساحة، رامز وحبيبته شمسه، تركا العنان لرغباتهما دون كابح، وصلا لمفترق طُرُق خطير، خطوات جريئة حرقت مراحل الحب العذري، و الإعجاب المتبادل ليكون الجسد نهاية النهاية لكلّ شيء، غرقا في بحر لجيٍّ متلاطم، أمواجٌ عاتية حطمّتْ مجدافيْهما، غرق قاربهما، في الأصل هما لم يَرُومَا النّجاة، رامز بحاجة لمكان يقصده مع حبيبته لقضاء ليلة محمومة بالشّهوة، رامز يريد الثّمن من النّمس بالتّغطية على علاقته الغراميّة و الجنسيّة مع شمسة؛ عندما صارت حديث أهل القرية جميعًا؛ لا شيء يُقَدّمُ بلا ثمن، لا بُدّ

من تقديم الثّمن عاجلًا أم آجلًا، هل من المنتظر أن تكسب شيئًا يُقدّم لك مجانًا، أو يُقدّم إليك على طبق من ذهب، مَنْ أخذ توجّبَ عليه أن يدفع، أبدًا لا شيء يُعطى بالمجّان، هكذا هي لائحة العلاقات المرتبطة بالمصالح، من مَدّ يده اليوم لتناول شيء ما، غدًا عليه أن يمدّ يده لِرَدّ المقابل. تهونُ الأشياء عندما تُدْفَع إذا كانت ماديّة، أما إذا كانت معنويّة فهذا أمرٌ آخر، و أبهضها تكلفة على الإطلاق، هو ما كان يتعلّق بقضايا الشّرف و الكرامة. الكلّ يكذب، والكلّ ينافق لدرجة الانبطاح المُزْري، أحدهم لا يدري من أجل ماذا يفعل هذا؟، فيرجع باصقًا على نفسه، يحتقرها وبازدراء، لا مفر من إفراغ شحنة العقدة في زوجته و أولاده، وإذا كان من مرهوبي الجانب، فيتسلّط على الآخرين بكلّ وقاحة.

النّمس قبضَ مُقَدَّمًا حُصَتَه، ونالَ مُرادَه، وأمّنَ على مكتسباته على أنّها في حوزته، وعنده تهون الأشياء بعد الحصول على مطامعه، قاعدته(***فلأعشْ، ولْيَفْنَ العالم من بعدي***)، لا يحسب حسابًا لأيٍّ كانْ إلا إذا خافه، يرتع إذا وجد الطريق سالكة غير آبه بِعَثَرَاتِها، مطمئّن إلى رامز المرهوب الجانب من أهل القرية، فهو استقوى به، واعتبره حصنًا منيعًا يحميه من النّاس، المصالح تحرق علاقة الأصحاب، وتفرّق، وتُبَاعِد بينهم بأنانيّة مُفْرِطة.

شمسه تلألأ خاتم من الذّهب على يَدِها، فرحتها تجاوزت حدود واقع فقرها، تَحْسِبُ أنّها انتصرت، انفتحت شهيّة أحلامها على عالم خيالاتها، تناطح حدود الكّون بلا وَجَلٍ، آملةً بغدٍ أفضل و أجمل، رأت الدّنيا انفتحت لها، قبضت الثّمن مُقَدّمًا أيضًا، اشتراه رامز منذ فترة عندما دخلت في حياته، واعتبره مُقدّمة قويّة يدخل به قلب البنت، صارت به طوع أمره في النهاية بعد محاولاته المُضْنِيَة.

***

الآن جاء دور رامز لحصاد ما زرع، مهنته علّمته الصّبر، و الأناة بانتظار قطف الثّمار، و النّتائج، طلباته كثيرة، و قاسية في جرأتها، لدرجة ربّما تفوق طاقة احتمال صديقه، ما إن التقى بالنّمس في أحد الأماكن أثناء عودته للبيت،

بادره بالقول: أهلًا ابن العمّ، لي طلب صغير عندك. أرجو أن لا تخيّب أملي فيك.

- النّمس: أنا في خدمة شواربك، طلباتك أوامر.

- رامز: في الحقيقة لا أدري من أين أبدأ؟، بصراحة أنت تعلم علاقتي بالبنت شمسه، اتّفقنا سويًّا على الزواج فيما بعد؛ عندما نرتّب أمورنا، وحصلتُ على موعد خاص منها، أريد مكانًا نجتمع فيه سويّة، لم يخطر ببالي إلا أنت، أرجو أن لا تخيّب رجائي بك.

- النّمس: لكن هذا الموضوع كبير، من الممكن أن يحصل شيء ما غير محسوب، والفضائح ليست قليلة، وكما يقال: (***حارتنا ضيّقة، وعارفين بعضنا***)، فلا يخفى شيء الكلّ مكشوف للكلّ.

- رامز: هناك أمامنا من الوقت إلى نهاية الأسبوع، نرتّبُ الأمور على مَهْلٍ، زميلاتها يسافرن بعد انتهاء دوام يوم الخميس، على الأقلّ صديقتها في الغرفة الآنسة قمرة، هي العائق الأكبر، أما الغرفة الأخرى، فأمورها هيّنة.

- النّمس: إذا كان الأمر هكذا، تذكرتُ أن زوجتي أم فرج، تريد القيام بزيارة لأختها في القرية المجاورة، فهي منذ زمن طويل لم تَرَهَا، ستذهب يوم الخميس، وستعود في وسط الأسبوع القادم، هكذا ستكون أمورك بخير.

- الفرحة لم تتسع رامز، سَرَح بذهنه بعيدًا في خيالات محمومة برغبة عارمة بها، و قال: شكرًا لك، نحن على موعد، وإذا صار لك مشوار باتّجاه السّوق، تعال المفرزة لنتحدّث، ونتسامر، في بعض الأيام أكون وحيدًا، أتمنّى مجيء أي شخص أتكلّم معه، حتّى وإن كان عابراً، و لا أعرفه.

- النّمس: و لا يهمّك أنا في خدمتك، أنتَ ما قصّرتَ معي أبدًا، فقد أسديتَ لي من المعروف الذي أقف أمامه عاجزًا عن مكافأتك.

***

يُرْوى فيما يُروى، وفيما يشبه الأسطورة، أنّ قرية (أمّ الخنافس)، منذ قديم الزمان، امتلأت بالخنافس السوداء؛ تكاثرت فيها، و تعملقتْ؛ فصارت مُخيفة؛ اضطرّ الأهالي آنذاك لهجرتها؛ خوفًا على أنفسهم، وذراريهم من الأمراض الغامضة، التّي تناقلتها الروايات من قديم الزمان، وعادت للتفشّي على مدار سنوات مضتْ، وما زالت الخنافس تتكاثر؛ لدرجة لفتت انتباه بعض الرحّالة المغامرين القدماء، وقد سمعوا ذلك من تجّار القوافل العابرة للمنطقة، أو مما كتبه بعض الرحالة الأقدم عن ظاهرة الخنافس، بعد أن غيّر التُّجار طرق تجارتهم مُبتعدين بها عن المرور بالقرية؛ فأصبحت مهجورة، جفّت فيها منابع الحياة، خَربت بيوتها، فصارتْ مأوى للآفات من الأفاعيّ، و الحيوانات الضالّة، و مساكن للغولة، و الجنّ مرعبة موحشة.

عواء الذّئاب في دروبها، ونعيبُ الغربان على أفنانها، الخوف سيّجها؛ فامتنع البشر من الاقتراب منها، إلا أن ذلك الرحّالة الأوربيّ الغامض في منتصف القرن الثّامن عشر، قدم إليها من وراء البحار، دخلها، وسجّل مشاهداته وملاحظاته، رغم التحذيرات التّي تلقّاها ممّن التقاهم من أهل القرى المجاورة أثناء مسيرته إليها

يُقال أنه بعد مدة من الزّمان، طالت ما شاء الله أن تطول، وتقول الرواية: أنّ الخنافس اختفت فجأة من القرية، و كأنّها كانت مخلوقات من الجنّ، ومن غير المؤكّد أنّ أيًّا من هذه الرّوايات المتناقلة على ألسن أهل المنطقة موثّقة بشكل صحيح، كلّه قيل و قال، وأن ساحرًا مرّ بهذه القرية، وقام بتحويل الخنافس إلى الذّهب و الألماس، و أصدر أمرًا لمخدوميه من الجنّ؛ بدفن جميع الخنافس المتحوّلة إلى كنزٍ و إخفائها، وقيل في رواية أخرى: أنّه حوّلها للذّهب و الفضّة، وأثناء مرور ذلك السّاحر، وجد القرية على هذه الحال، فما كان منه إلاّ أن أصدر أوامره للجنّ من أجل حفظها، وحجبها عن أنظار النّاس. وهذه الحكمة من وجود الكنز، هو ما أعاد تأهيل القرية بالسّكان من جديد، كان هذا قبل مئتي سنة على الأغلب، حسب ما ورد عن الرحّالة الأوربّيين في العصر الحديث. ووجود بعض الأبنية الأثريّة العائدة لعصور قديمة، عززت أسطورة الكنز المفقود، وهو ما استجلب الحالمين على مدار السّنين، بداية من الأتراك و

الأوربيين إلى عصرنا هذا، يروى أيضاً عن الآباء، وقبل دخول الكهرباء للقرية، أنّ الجنّ يظهر في مختلف أرجاء القرية على أشكال الحيوانات، و الحشرات، وأحيانًا كانوا لا يسمعون إلاّ أصواتًا، ويختفي كلّ شيء عندما يقترب أحد منه.

***

(١٤)

صابر، شابّ نشيط من أبناء القرية، موظّف في دائرة البريد والبرق، عامل(سنترال) على المقسم، يستقبل طلبات أهل القرية الهاتفيّة، ويتمّ تلبيتها فورًا إذا كانت داخليّة، أما إذا كانت دوليّة أو خارج المحافظة عليهم الانتظار، وهو يحاول بإعادة الكرّةَ لالتقاط الخطّ لهم، وتأمين طلبهم، من فوره يقوم بتوصيل الخطّ للجهة الطالبة، وفي أغلب الأحيان ما يبقى متواصلاً مع الخط ليستمع للكّثير مما يُقال، يعرف كثيرًا من أسرار النّاس، بحكم طبيعة عمله، يتناقل أهل القرية كلامًا عنه أنه مرتبط مع مفرزة الأمن، أحيانًا لا يتردّد بتوصيل الخط مع المفرزة لإسْمَاعَهم المكالمة، وتسجيلها، حسب التّعليمات المشدّدة خاصّة المكالمات الدوليّة، إذا كانت لأشخاص ممن هم مسجّلين في القائمة السّوداء.

علاقاته الاجتماعيّة محدودة مقتصرة على صديقين أو ثلاثة فقط، لا يحلو له الجلوس إلا معهم، فهم يفهمون على بعضهم بتناسق يُحْسَدون عليه.

يحبّ كثيرًا الجلوس في البيت، كي يتسامر مع زوجته نعمات الوحيدة في غرفتها، وحريص كلّ الحرص على تطييب خاطرها، وإبعاد شبح التفكير في تأخرها عن الحمل و الإنجاب، رغم مرور أكثر من خمس سنوات على زواجهما، فأثر هذه النقطة انسحب رتابة و روتينًا مُملًّا، مما جعل الفراغ في حياتها قاتلًا لأوقاتها في درجة القصوى؛ فتسعى للتعويض عن ذلك بالتّواصل مع كلّ جاراتها في الحارة، والثرثرة فيما يخصّها ولا يخصّها؛ الأمر الذي أوقعها في المصائب الناجمة عن نقل الكلام للآخرين؛ مما جلب لها المتاعب و المعاتبات، وحلف الأيمان الكاذبة لإبعاد الشّبهة عن نفسها، نعمات مثلها مثل نساء القرية جميعًا، سمعن عن الوافد الجديد(أبو غليون).

صابر لم يألُ جهدًا في عرضها على أطبّاء النسائية الاختصاصيين في المدينة، ومتابعة الموضوع من خلال حماتها أم صابر بعرضها على كَتَبة الحُجُب، وكان آخرهم المشورب منذ شهرين تقريبًا، وهم بانتظار مفعول حجابه كما وعدهم بأن الحمل سيحصل خلال الستّة أشهر القادمة على أبعد تقدير، وختم قوله: بعون الله طبعًا، أموال طائله بذلتها العائلة على هذا الموضوع، مما اضطّر صابر للاستدانة في بعض الأوقات لمتابعة العلاجات، هما قد تزوّجا عن قصّة حبّ عرفها الصغير قبل الكبير على صعيد القرية، وعلى حدّ قولهم أنّه صار كمجنون ليلى، ولقبّوه بمجنون نعمات، يشاهدونه يسير وحده في اللّيالي المظلمة في ساعات متأخرّة، إلى أن تكلّلت قصّة الحبّ المثيرة بالزواج، والدته لا تفتأ بين الفينة و الأخرى، تردّد عبارتها: يا صابر ربي يُعَوِّض عليك بالخِلْفه، وأرى لك الذريّة. يسمع كلامها، قلبه يتمغّص، يصاب بحالة انقباض شديد، و عُبُوس يُكدّرُ كيانه الداخلي و الخارجي، ولا يَخفى ذلك على من يراه.

كثيرًا ما يترك أمّه تتكلّم، و تنسج أحلامها متأنيّة على سجيّتها، ولا تدري ما تسبّبه لابنها المحترق في داخله من ألم، يُحبُّ الأطفال، يلاعب أولاد أخته عندما تأتي لزيارتهم، ويراقب أولاد الجيران أثناء وقوفه أمام نافذة غرفته.

يختفي من فوره من البيت؛ خوفًا من أن تراه زوجته نعمات اليانعة، كوردة جورية في ربيعها الدائم، طيلة السنوات الخمس لم يظهر عليها أنها متأثرّة لموضوع الحمل، صابر يُداريها كما يُداري عينيْه، شغفه بها يُنسيه كلّ الهموم، لا يستطيع بُعادها، ولا أن يرى كدرها، يسعى لرضاها بكلّ ما أوتي من قوّة.

عاد بعد الظهر إلى البيت عندما انتهى من دوامه، وجد طعام الغداء مهيّأ، وهي بانتظاره على أحرّ من الجمر، ينصتُ لها وهو يأكل، يستمتع لنبرة صوتها المليء بالتعبيرات الكثيرة المتغلغلة عميقًا في مسارب نفسه.

حدّثها عن اكتشافه الجديد لهذا اليوم: أسَمِعْتِ عن هذا الرجل الجديد (أبو غليون)؟.

- نعمات: نعم سمعتُ، ما به؟.

- صابر: سمعتُ أخباره من النّاس، لم ألتق به شخصيًّا، قيل لي عنه أنه شاعرٌ، وأهدى نُسَخًا من ديوانه على من تعرّف إليهم خاصّة الأستاذ فهيم الذي استحسنها، أنا لم أحصل على أيّة نسخة أو أشاهدها، وإذا وقعت بين يدي سأقرأها بكل شغف لحبّي الشديد لقراءة الشعر، اكتشفتُ اليوم أنه ضابط مخابرات، قدم من دمشق إلى القرية بمهمّة أتخيّل أنّها كبيرة.

- نعمات: كل شيء جائز في هذا الزّمان، كنا آمنين مطمئنين في حوزتنا، إلى أن جاء الغرباء بداية من المشورب ورامز وجميع من هم في المفرزة، وهذا(أبوغليون)، و لا نعرف من هو القادم الجديد.

- صابر: شيء محير مخيف، ما الذي جاء به إلى هنا؟، صرتُ أتوجّسُ الرّيبة من كل غريب جاء قريتنا.

- نعمات: معك كل الحق في إبداء مخاوفك.

- صابر: لكن الذي لا أعرفه، هل أن جماعة المفرزة على علم به، وهل يعرفون عنه ما عرفتُ اليوم؟.

- نعمات: أكيد أنّه لا يخفى عليهم مثل ذلك، فَهُم على علم بكلّ شيء، ولا تخفى عنهم خافية.

- صابر: ما رأيكِ لو أنّني قمتُ بإخبارهم.

- نعمات: لا يا حبيبي،(***لا تدخل بين البصلة وقشرتها، ما ينولك غير ريحتها***).

- صابر: صدقتِ، نبّهَني كلامكِ لأمر غاب عن ذهني، لماذا لم يكونوا هم الذين يُنسّقون له الأمور؛ لتسهيل مهمّته.

اضطجع متكئًا على الوسائد، بعد أن شَبِعَ تراجعَ للخلف قليلًا، تناول كأس الشاي، راح يرتشف بصوت مسموع، وهو يطالع وجهها بشهوة تأججت في هذه اللحظة: حبيبتي بسرعة، خذي السُّفْرَة وعودي، أنا بحاجتك فورًا، لا تتأخّري. قامت من فورها، وهي تتمايل بغواية حوّاء؛ عادتْ كطودٍ عاتٍ تطوّح سيلٌ جارفٌ من على جنباته لا يُقَاوَم، جموحُ رغبة طارئة في نفسه،

تأجّجَتْ اشتهاءَ جسدٍ في لحظةٍ حميميّةٍ، جوع الشّهوة لا يقاوم تحت وطأة أي ظرف كان.

***

بعد قيامه من قيلولته، ارتدى صابر ملابسه بعد استحمامه في عتبة الغرفة على هدير صوت بابور الكاز النحاسيّ، رشّ شيئًا من عطره المعتاد، مشّط شعره بإتقان، وشدّد على تناسق مظهره، ونعمات واقفة تتأمله بصمت أطبق عليها في هذه اللّحظة، الْتَفَتَ إليها، طبَعَ قُبْلةً على خدّها، وهو يودّعها، كل ذلك لم يخرجها عن صمتها غير المعهود.

ما إن انتبهتْ من غفلتها، أرسلتْ نظراتها إلى ساعة الحائط، انتفضتْ، وكأنَّ مَسّاً أصابَها، قامتْ من فورها، قاصدةً جارتها فاطمة زوجة الأستاذ فهيم، بعد إخبار أم صابر حماتها بأنها ستذهب إلى جارتهم، علاقتها بفاطمة دافئة طيّبة لدرجة أنها تحبّها وتودُّ أنها لو لم تفارقها، فهي تطمئّن إليها، وتُفضي لها بمكنونات نفسها، ولا تتحرّج أمامَها في نفض جُعبة أسرارها، صفات فاطمة محبّبة، مميزّة عن الأخريات من الجارات بما تتمتّع به من تفهّم وكتمان للأسرار، طلبت من ابنتها صنع إبريق شاي بعد أن استقرّت نعمات في مجلسها بلا تأخرّ؛ كي تطيب جلستها بالأُنْسِ مع نعمات.

لم تتمالك نعمات نفسها من إظهار دهشتها لما سمعته من زوجها صابر عن (أبو غليون). وقالت: انْظُري إلى طيبة قلوبنا، دخل علينا رجلٌ غريب، وبعد قليل صَاحَبَ، وعرَف كل رجال القرية صغيرهم وكبيرهم.

- فاطمة: و الله لا أخفيك سرًّا أن زوجي فهيم، حدّثني البارحة عن لقائه بهذا الرجل، جمعتهما سهرة طويلة في دكّان عكّاش، هذا الرّجل كان بصحبة الأستاذ عطاالله، الذي عرّفهم عليه، ولم يعرف عنه سوى أنّه شاعر ومثقّف.

- نعمات: ولكن السرّ الذي اكتشفه صابر، بحكم طبيعة عمله، أن هذا الرجل ضابط مخابرات، لا أدري إلى أيّة جهة ينتمي، فقد أخبرني، ولكنني نسيتُ.

- فاطمة: لا أكتمك سرًّا أن زوجي فهيم، لم يقتنع بما سمع في سهرته تلك، رغم أنه جلب معه ديوان(أبوغليون)، وجلس في اليوم الثاني لقراءته، و الاطّلاع على محتوياته، ولما سألته عما وجد في الكتاب، قال: كلامٌ فارغ، لا يستحّق الورق الذي كُتِب عليه، يا خسارة..!!، وهو يلقيه على الطاولة بقرفٍ، بلا مبالاة، وكأنه ندم على الوقت الذي أضاعه في مطالعته، هذا ما أبداه لي، وفهمته من خلال كلامه.

- نعمات: أبدتْ تخوّفها لفاطمة من انتشار السرّ، خاصة إذا عُرِفَ مصدر الخبر، فتصبح حياة زوجها، ووظيفته(صابر) في خطر.

- فاطمة: سرُّكِ في بئر عميقة لا قرار لها، اطمئني.

انفضّتْ جلستهما قبيل الغروب، رجعت نعمات إلى البيت، فوجدت حَمَاتَها أم صابر في انتظارها، لإتمام بعض الأعمال المترتبة عليها.

***

عاد الأستاذ فهيم للبيت بعد الغروب، مُتعبًا من مشواره، راح يتأفف بقوله: يا أله من كثرة المناسبات، وتعلّق الناس بالشكليّات التي لا تقدّم ولا تؤخر، أتخيّل أنّ أحدهم لو أراد أن يمسك بشحمة أذنه اليسرى لأمسكها بيده اليمنى، لا يُعقل إلا أن يرفع يده من فوق رأسه؛ فيرهق نفسه بصعوبة حتّى تستطيع يده الوصول للأذن، وهكذا كان صالح ابن عمّي عندما أنفق الأموال الكثيرة، كما اسْتَدَانَ الكثير منها، من أجل إرضاء الناس، لِيَشْكُروا حُسن صنيعه، ولن يشكروا.

- فاطمة: إنّ الله نهى عن التبذير بهذه الطريقه، ومثلما قالوا: (***على قدر لحافك مُد رِجْلَيْكَ***).

- فهيم: والله يا فاطمة، هدرٌ بالنفقات كبير، شيء يُغضبُ وجه الله، و لا يرضى به العقلاء، لقد تعبتُ معهم، و أنا أشرح لهم، كان مُبرِّرَهُم الوحيد أنها فرحة العُمُر، وهل كلّ يوم سنفرح؟.

- فاطمة: أعذارٌ واهية، لا عليك، أبعد عنّك مشاكلهم المتناسلة، وأنت تؤدي واجبك تجاه أبناء عمومتك، مُحتّمٌ عليك الذهاب لمؤازرتهم، ولا تُعنيكَ أفعالهم التي لا ترضى عنها.

- فهيم: لا أستطيع رؤية الخطأ، و لا يمكنني السكوت عنه، فالنّصيحة واجبة، يا بنت الحلال، أو أكون كالشيطان الأخرس.

- فاطمة: اليوم زارتني نعمات جارتنا، زوجة صابر، وأخبرتني أن (أبو غليون)، ما هو إلاّ ضابط مخابرات مُتَخَفٍّ تحت ستار الشِّعْر و الأدب.

- فهيم: الحمد لله الذي لم يخيّبْ ظنّي به، وهذا الاحتمال كان واردًا ضمن تحليلي للسهرة تلك، عندما استعدتُ كلّ كلمة تذكرتُها خلال جلستنا، وتعابير وجهه تنبيءُ عن شيء غريب أجهله، ولا أستطيع تحديد كُنْهِهِ، و لكنّه حَدْسِي، وقد أخبرتُ فارس بمخاوفي، وهو كذلك أعرب لي عن هواجسه القلقة.

- فاطمة: خلال جلستنا، استعدتُ التفكير بما قلتَ لي ذاك اليوم، وقد توافق المخفيّ مع ما توقعتَ. والله(***كان الحُقّ ناقص بُق، وإجا الأقرع وَكمّلُه***)، كَمُلَتْ معانا بمجيء(أبوغليون)، هذا ما كان ينقصنا في قريتنا المتوارية وراء فقرها، وطيبة أهلها.

- فهيم: الحمد لله، أن الخبر اليقين لم يتأخّر علينا، من الآن فصاعدًا؛ يتوجب علينا المحافظة على الهدوء إذا ما التقينا به، وعدم الخوض في المسائل السياسيّة، ونحصر نقاشنا في الأدب و الشّعر و التاريخ، وحياة القرية بشكل عام فقط.

***

عريبي يخرج ليلًا هائمًا على وجهه، ربّما يبحث عن شيء مجهول له، يصدف كثيرًا أن يجلس بجانب حائط في زاوية مظلمة، ويرخي سرواله ليتبول، ولا يتحرّج من فعلته، ولا تجد الاستهجان لدى المارّة من أهل القرية؛ لأنهم

اعتادوه بهذه الوضعيّة، الأمر مختلف مع الأولاد، عندما تنفتح شهيّتهم على مُنَاكفته، بحركاتهم المستفزَّة لاستخراج غضبه، واستفزازه للحدّ الأقصى، ليُرْضي غرور ولدنتهم الطّائشة، وأحيانًا يقذفونه بالحصباء، ساعتها تنفتح قريحته بألوان السّباب و الشّتائم و اللّعنات لهم، ولأهليهم الذين أساؤوا تربيتهم، بأعلى صوت يستطيعه، ويبدأ قذفهم بالحجارة التي يحتفظ بها في جيوبه، للأمور الطارئة في مثل تلك الحالات، فينهزمون أمامه، وهو يلاحقهم من زقاق لآخر، وإذا ما أدركه التعب و أعياه، يجلس على أيّة حافّة أو حجر ليلتقط أنفاسه، ويستعيد نشاطه، وإذا غُلِبَ على أمره، ينفلتُ بالبكاء، ويندب حظه العاثر.

***

أمّ فرج، زوجة النمس، منذ أيام وهي تجهّز نفسها لسفرتها إلى إحدى القرى المجاورة لقرية(أمّ الخنافس)، لزيارة أختها التي لم ترها منذ ما يقارب السّنة، وهي تحلم بهذا اليوم الذي تخرج فيه من البيت لرؤية أختها(أمّ حميد).

- أم فرج: بعون الله سأسافر يوم الخميس القادم، وسأبقى عندها أسبوعًا كاملًا.

- النّمس: ألا تريْ أن فترة الأسبوع كثيرة علينا، وأنتِ بعيدة عنّا، فلا صبر لي على غيابك يا حُرْمَةْ، حاولي اختصار الأسبوع إلى النِّصْفِ.

- أمّ فرج: أمري لله، سأعود يوم الثلاثاء، هل يرضيك هذا؟.

- النّمس: وأنا كذلك أمري لله، ولا أدري كيف ستكون حالي في غيابِكِ.

- أمّ فرج: شعرت بالزهوّ في نفسها، ابتعد بها شريط الذكريات لسنوات طويلة من حياتها الزوجيّة، وهي تعدّ اللّحظات الجميلة المسجّلة بذهنها، أرادت أن تتمادى قليلاً، بقولها: زوجي الحبيب، ما رأيك أن آخذ ابننا فرج معي في هذه الزيارة، ليتعرّف على أبناء، وبنات خالته(أم حميد)، فهو في مرحلة الزواج،

و(***ما بقي على عينها قشّة***)، بَلْكِي نشوف له واحدة من بنات أختي، لتكتمل فرحتنا بوظيفته.

- النّمس: كأنّكِ في قلبي، أو أنّكِ قرأتِ أفكاري، لا مانع عندي، افْعلي ما ترينْه مُناسبًا، وهذه الحاجات هي من اختصاص النّساء.

- أمّ فرج: إن شاء الله بعد عودتي مباشرة، سأدعو كلّ نساء الحارة لحضور المولد الذي سأقيمه، بمناسبة توظيف فرج عند الحكومة، ولأنه صار ابن دولة، و صاحب راتب، من الممكن أن يعتمد على نفسه، ويفتح بيت، ويكفى زوجته، دون اللّجوء لمساعدتنا، أو أن يكون عِبئًا علينا.

- النّمس: الله يجيب العواقب سليمة، خيرًا فعلتِ باقتراحك، و لا يمكنني أن أمنعه أو أقاومه. توكّلي على الله.

- أمّ فرج: والنِّعم بالله.

***

اتّخذت الجلسة طابعاً هزليًّا مليئًا بالضحك، والفرفشة، بمجرّد أن دخل عليهم عريبي قبيل الغروب، الجميع رحّب به، خاصة عكّاش: أين أنت يا عريبي؟. اشتقناك يا رجل. صرتَ مثل هلال رمضان لا يجيء إلا مرّة واحدة في السّنة.

- عريبي: جئت إليكم حتّى أفضفض عن نفسي، وقبل قليل تناولت الغداء، وشربتُ القهوة.

- عكّاش، يتناول مصبّ القهوة: يعني ستعتذر الآن عن شرب قهوتنا يا عريبي - أتبع كلامه بضحكة مجلجلة -، أوَ تكسفني؟، وفي هذا يكون قد لَحِقَكَ حَقٌّ عَرَب.

- عريبي: عمّي عكّاش، قهوتك على رأسي، لا أستطيع رفضها أبدًا، ومجنون من لا يقبل أن يشربها من يد الخير، التي هي يدك.

- عكّاش: من أين قدمت الآن؟.

- عريبي: والله مررتُ على دكّان عمّي سعفان في السوق، والله ما قصّر، ودعاني للغداء الدّسم، الحمد لله ملأت بطني، وشربت بعدها كأس شاي(أُكْرُكْ عجم)، عبّأ رأسي.

- عكّاش: بالهنا و الشّفا (***مِطْرَحْ ما يَسْرِي يَمْرِي***)، أبو ماجد رجل غانم. هذا دعاء من عكّاش بأن يكون ما أكله عريبي، هنيئًا مريئًا.

لا زال فنجان القهوة في يد عريبي لم يزدرده، لانشغاله بالإجابة على أسئلة عكّاش، بينما الأستاذ فهيم وفارس، ينظران في وجه عريبي المسكين، المثير للفضول.

- فارس: كيف أنت يا بن عمي عريبي، عساك بخير.

- عريبي: حالي مثل ما تشوف، ها أنا أمامك، بخير وصحة، لو أنّ الله حجب عنّي الأولاد الزعران، فإنّهم لا يتركون شيئًا بحاله، عفاريت الله يجازيهم، والله الجنّ يتبّرأ منهم.

- الأستاذ فهيم: يا عريبي، لا عليك منهم، تجنّبهم قدر المستطاع، سأستفسر عنهم، فإذا تعرفتُ على أحد منهم، فسأخبرُ أهاليهم ليكفّوا شرّهم عنك.

- عكّاش: شو أخبار القرية، أنت تمشي وتسمع، يا عريبي.

- عريبي: أهَمُّ خبرٍ سمعته من كم يوم، بس بيني وبينكم، أن ابن النّمس، نام ليلة كاملة في حضن رامز في المفرزة، ويؤكّدون بأنّ الأمر مثبت بما لا يقبل الشّك. لكن الغريب في الأمر، أنّ رامز فعل به عدّة مرّات، وهو مستسلمٌ له، بلا أدنى اعتراض أو ممانعة.

- فارس: أبهذه السهولة يمكن أن يحدث هذا؟.

- عكّاش: كل شيء جائز هذه الأيام، فلا نستطيع أن نُكذّبَ الخبر أو نصدّقه.

- الأستاذ فهيم: بأعينِنَا ما رأينا، فلا نظلم حظّنا، الله يعلم يا جماعة الخير، أرى أنّه من الخير للجميع، أن يُدفنَ هذا الموضوع في مهده، ولا نُلقي له بالًا، ربّما لا يكون صحيحًا من الأساس، ونكون قد ظلمنا أنفسنا أوّلًا، ثم ظلمنا الآخرين.

- عريبي: متحفّز للمتابعة، ما إن التقط أنفاسه المتهالكة، سمعتُ: أن أم محفوظ، كتبتْ لطفلها حجابًا عند الشيخ المشورب، الذي أكّد لها أنّ الحجاب سيقضي على كل ما يُلّم بابنها محفوظ، واتفقتْ معه على الدّفع بعد أن ترى النتيجة، ولمّا لم يحدث أي تحسّن لابنها خلال أسبوع، امتنعتْ عن الدّفع، واتّهمتْ الشّيخ بالدجل و الكذب، و في اليوم الثاني لإشهار الخلاف بينهما، فُجِعَتْ بموتِ بَقَرَتِها، عندما دخلت الحظيرة في الصباح كي تعلفها وتحلبها، فوجدتها جُثّة هامدة.

- فارس: ارْتَعَشَ جسدي من هذا الخبر المُفْزِع.

- عكّاش: ممكن أن يكون الشّيخ قد سلّط عليها الجانّ، وأمرهم بإيذائها.

- الأستاذ فهيم: يا جماعة الخير، اسْمعوا بآذانكم، وفكّروا بعقولكم، أرى أن البقرة قد جاء أجلها، والنّصيب منها مقطوع، توافَقَ نُفُوقها مُتزامناً مع صورة الخلاف مع المشورب. و لا أظنّ أنّه ممكن أن يؤذي أحدًا؛ لأن الناس ستتجنبه فيما بعد، ويخسر زبائنه، خاصّة من النّساء، وهذا يضرّ مصلحته في كسب الأموال مستقبلاً.

- فارس: كلامك معقول أستاذ.

- عريبي: أما الخبر الأهمّ على الإطلاق، وحديث القرية في كل مجلس، هو(أبو غليون)، كثير من الناس يقولون أنه ذو شخصية غامضة مخيفة، ويعتقدون أنّه رجل مخابرات مُتَخَفٍ، ويتندّرون على غليونه الجميل، غير المألوف في مجتمعنا.

- الأستاذ فهيم: يهزّ رأسه موافقًا، وأردف: يا عريبي الأسبوع الماضي، كان (أبو غليون) يجلس مكانك على نفس الكرسيّ، وسهر معنا، وأخبرنا أنّه شاعر، وأهدانا نُسَخًا من ديوانه الشعري، وأنه جاء بقصد كتابة الشعر، فأجواء القرية توحي له بالصّفاء الروحيّ، و تحفزّه على الابداع والإلهام.

- عكّاش: أستاذ، أنا قرأتُ بعض نصوصه، ما وجدت أنّني أقرأ شعرًا حقيقيًّا مع خبرتي المتواضعة، فطويْتُ الديوان، ووضعته هناك مع الكتب، ولا أعتقد

أنّ لي رغبة في معاودة قراءته، الملل أصابني من غموض المعاني، و الأفكار، مما جعلني لا أنوي العودة إليه ثانية.

- عريبي: سمعت الآن خبرًا مزعجًا، لكنني لم أتأكّد من صحته.

- عكّاش: خير إن شاء الله.

- فارس، بعصبية مفاجئة بدت على وجهه: ما هو؟.

- عريبي: قالوا أنّ هناك ولدٌ غارق في البركة.

- فارس: من هو؟.

- عريبي: قالوا إنه ابن المنحوس.

- الأستاذ فهيم: يا لطيف..!!.

- عكّاش: الله يرحمه، ويلهم أمه الصبر.

- فارس: تلك فاتورة سنويّة تدفع فيها القرية واحدًا من أبنائها، لا حول ولا قوة إلا بالله.

- لا يستطيع عريبي أن يغادر مجلسه إلاّ بعد أن يَنْفُضَ ذاكرته من كل الأخبار التي بحوزته، ما زالوا في دوّامة خبر ابن المنحوس، ليفاجئهم هذه المرة بخبر طريف، لم ينتشر إلا هذه الساعة: البارحة عمّي سليطين، أخرج ضَبعًا من مغارته، واقتاده إلى مشارف القرية وهو يركبه، وهناك ذبحه.

- فارس: ما سمعتُ بهذا، يا عريبي، أأنت متأكد؟.

- عكّاش: وهل يقول عريبي أخبارًا كاذبة؟، - ويعطيها ضحكة مُدَوِّيَةً -.

- الأستاذ فهيم: كلّ شيء جائز في هذه الأيام، لا نستطيع أن نُكذّبه أو نُصدّقه، ولا غرابة فيما نعرف عن سليطين، فهو شجاع ومقدام، مقتحم لا يهابُ المنايا، وقصّة الضّبع لحدّ الآن لم يصل أحد فيها إلى نتيجة، فلو جلسنا في أحد المضافات، وجاء ذكر الضبع، لطال الحديث ورُوِيَتْ القصص و الروايات عنه، و لاستغرق اللّيل كله حتى الفجر، ولا تنقضي قريحة المتحدّثين، يؤكّدون

ذلك بما لا يدع مجالًا للشّك، وبأن من تستمع له، نقل حديثه عن فلان، وفلان عن فلان، في تسلسل لا ينقطع.

- فارس: مخيال يتسّع إلى فضاء الرّوايات الواسع، بلا تدقيق و لا تمحيص، المهم أن يُدلي كل واحد بدلوه، ويشارك في الحديث.

- عكّاش: و الله يا أستاذ ذكرني حديثك بموضوع الغولة، يا أله..!!، كم يذكرون عنها من الأشياء المعقولة، و غير المعقولة، و لا يمكن الوصول لحلّ وسط، حالة من الهوَسِ تنتشر في مثل هذه الأجواء.

- الأستاذ فهيم: المشكلة العظمى فيمن يُسلّم عقله بالكامل، وإطلاق العنان للخيال في الزّيادة والتأليف، بالزيادة و النقصان، ومنهم من يحاول أن يثبت للآخرين، صحّة قصّته بإضفاء عنصر الغرابة و الخوف، أنا أطالب الجميع بتشغيل عقولهم، ومحاكمة الأخبار مهما كانت ماهيتّها ومصدرها، قبل نشرها على الملأ.

- فارس: سلم لسانك أستاذ، ذكّرتني بالآية الكريمة: ***(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)***، صدق الله العظيم.

- عكّاش: لو أنّ النّاس تأكّدوا من صحّة الأخبار المتداولة، لما ندموا بعد فوات الأوان.

- فارس: أنا لم أشهد بعيني ما حدث مع سليطين، لكنني أميل إلى تصديق القصّة، رغم تشابهها مع ما سمعتُ من النمس في العام الفائت، أذكر أنني لم أصدق كلمة واحدة مما قاله النّمس، رغم أنه من الممكن أن يكون صادقًا ولو بجزء قليل منها.

- الأستاذ فهيم يستمع ولم يعلّق، بل راح يردّد الآية من جديد، ويتوقّف عند كلمة فاسق مُؤكّدًا عليها، مُظهرًا لأهميّتها، تابع: انتبهوا يا جماعة للفاسق إن جاءكم بنبأ.

- عكّاش: للحقّ أقول، ومن خبرتي الطويلة بالرّجال، فالنّمس كثيرًا ما يحلف الأيمان المغلظّة، ويضفي تهويلًا هائلًا على شيء حصل معه، لمحاولة إقناعك

بشتّى الوسائل، رغم الحبكة القويّة لما يروي، لكنّه من طريق خفيٍّ، يوحي إليك بأنه غير صادق.

قرعُ خطواتٍ يقترب شيئًا فشيئًا، صوت حديث متبادل يأتي بانتظام، ولا يكاد يكشف عن ماهيتّه. دار فنجان القهوة في يد عكّاش، ثم ناوله للأستاذ ثم فارس ثم عريبي، بعدما شرب الفنجان الأول. فما إن وضع البكرج على نار المنقل النحاسيّ، حتّى دخل الأستاذ عطاالله أوّلًا، يتبعه (أبو غليون).

استمرّت الجلسة ساهرة إلى العاشرة ليلًا، بعد مجيء الضّيوف الجدد، قام عريبي من مكانه، ومشى باتّجاه الباب، واتّخذ مكانه(أبو غليون).

***

سجّلْ عندك يا تاريخ، يقول ماجد لنفسه، وهو يقف أمام دكانهم؛ ويرى أمّ فرج مع ابنها، تحمل كيسًا بيدها، وابنها يحمل حقيبة مليئة بالأغراض، مرتدية أفخم ما تملك من لباسها، وعُصبة رأسها السوداء ترتفع حوالي عشرين سنتمترًا شامخة فوق رأسها، كأنّها علمُ البلاد فوق ساريته على دار الحكومة، وجهُها مُتورّد، زهوٌّ عام يحفّها، تحُثّ خُطاها للوصول إلى موقف السيارات، هناك عند نهاية السّوق في ساحة تتّسع لمثل هذا النّشاط. تبتعد التوقعات بأفكار ماجد، تجعله يشرد عمّا حوله، مُتَفكّرًا، يأتيه صوت أبيه، كأنه قادم من قعر بئر: هيّا يا بني، لنغتنم الفرصة بتناول طعام الإفطار قبل أن ننشغل.

- ماجد: حاضر يا أبي، ها أنا قادم.

قام ماجد من مكانه، وهو يردّد: الحمد لله، متوجّهًا إلى الشّباك وتناول إبريق الوضوء؛ لغسل فمه ويديه من آثار الطعام. لمح النّمس واقفًا أمام باب المفرزة مع رامز، لحسن الحظ أنه بقي ربع ساعة يراقبهُما، وهما يتحدثان، بينما النمس يؤشر بيديه للأعلى و الأسفل، ثم انصرف. الأفكار تتلاطم في رأس ماجد، يستقرئ الحالة، ولا يصل إلى نتيجة، ما إن انقضى من الوقت حوالي السّاعة،

حتّى رجع النّمس ثانية إلى المفرزة، صافح رامزًا، فأخذ رامز بيده، وأدخله إلى مكتبه.

الآن تأكّدت ظنوني، لا بدّ أن هناك شيئًا ما سيحدث، الوضع غير طبيعيّ أبدًا، أمّ فرج سافرت مع ابنها، حركات زوجها حفزّتني لمتابعة تحركّاته لهذا اليوم، هذا ما قاله ماجد لنفسه، مُرَدّدًا بصوت مغمغم: سجّل عندك يا تاريخ.

***

(١٥)

كما هي العادة، يبدأ صباح أهل القرية في كلّ يوم، و على مدار العام، عندما يتجدّد الفزع في قلوبهم، وينتابهم الخوف على أولادهم، عندما يذهبون إلى البَرْكَة، فهي جزء من حياتهم، ولا غنى لهم عنها، حيواناتهم ترتوي منها، وغسيل الصّوف الموسميّ، و المفارش في بداية كلّ صيف، بعد أن تمتلئ من الأقنية الرافدة لها يتزامن ذلك مع ذوبان الثلوج عن الجبال و المناطق المرتفعة، وامتلائها، فيصبح منظرها مَهيبًا، يأخذ من النّفس كل مأخذ.

دموع أمّ مرعي زوجة المنحوس تنهمر من عينيْها مدرارةً بلا انقطاع، المنحوس هذا اللقب الذي غلب على اسمه الحقيقيّ عبدالودود، يستحيل أن يتعرّف عليه أحد من أبناء قرية أمّ الخنافس إلا إذا ذُكِر لقبه، منذ البارحة، عندما جاءها خبر غرق ابنها فهد لم تتوقّف عن البكاء، ولم تغمض عينيْها لحظة واحدة طوال اللّيل، الطّعام لم يدخل بطنها، كل قليل تتناول إبريق الماء، ترتشف منه لتبلّل ريقها النّاشف، صُداع رأسها لم يتوقّف، رغم أن بعض النّساء يناولنها حبّات وجع الرأس (الأسْبِرُو أو السّارِدُونْ)، ندبتْ حظّها العاثر، و(***عيشة الشّحْشَطَة***)، مع زوجها المنحوس على مدار أكثر من عشرين سنة: كلّ سنة تَقْدُمُ علينا تأتينا تجعلنا نترحّم على سابقتها، الأولاد هم من كسروا ظهري، فلولاهم لطلبتُ الطّلاق منه منذ البداية، عقدتُ كلّ آمالي عليهم بأن يعوّضني الله بهم خيرًا، ويجزيني على ما صبرتُ، و يعيدوا لي وجه الحياة الأغرّ.

غريزة البُكاء لدى النساء في مثل هذا الموقف طبيعية جدًا، ذهابهن فرجٌ لهن، جميعهن باكيات، ومُبْكِيَاتٌ يُهَيِّجْنَ البَوَاكِيَا.

- أمّ سعيد: تمسح دموعها بطرف منديلها، وتضحك في سرّها، تميل إلى يمينها قليلاً لتهمس في أذن صالحة الجالسة بجانبها: لا أدري، ما الذي يُبكي أمّ راشد؟، فَتّشْتُ عن صلة قُربى لها مع أمّ مرعي أو زوجها المنحوس فما وجدت.

- صالحة: هي تبكي حظّها العاثر، و فشلها في إثناء زوجها من الزّواج بأخرى ستصبح الضرّة لها، لم تُفلح الحُجُبُ، و التمائم التّي كتبتها عند المشورب، وغيره.

- أمّ سعيد: سمعتُ أنها لم تترك شيخًا في القرى المجاورة، و البعيدة إلاّ قصَدَتْهُ.

- صالحة: كان الله في عونها، لو كان في الحُجُبِ وكُتّابها خيراً؛ لنفعوا أنفسهم، هذا المشورب إذا كانت عنده هذه القدرات الخارقة، لماذا لم ينفع نفسه؟.

- أمّ سعيد: الله يجازيهم هؤلاء المشايخ، هدفهم فقط سلبُ الأموال من خلال النّصْبِ والاحتيال، سمعتُ أنّ منهم من بنى القصور.

- صالحة: صارت هذه المهنة، مهنة من لا عمل له.

- أمّ سعيد: صدقتِ، وهذه حال المشورب، بعد أن كان أستاذًا مرموقًا، انظري لحاله هذه الأيام، منظره يوحي لمن يراه، بأنه إزاء إنسان قادم من خارج التّاريخ، أو أنّه من أهل الكهف، شكله لا يُطمْئِن القلب.

بعد العصر انفضّ المجلس، ولم يبق إلا عددٌ قليل من النّساء حول أمّ مرعي، ومن بَقِيَ هُنّ من قريباتها و أخواتها.

***

المقابر مساكن الذين انتقلوا من دنياهم، هنا يتساوى الجميع، الحاكم والمحكوم، الظّالم و المظلوم، المَجِيدُ و الحقير، ينتقلون إلى هنا بلا قرار، ولا اختيار منهم، تركوا الدّوُر و القصور، تركوا أحبابهم وأزواجهم وأولادهم، والأموال و الأملاك لمن خلفهم، لا يأخذون منه شيئًا، حرصوا و جَدّوا في جمعهم وتحصيلهم، ها هم يتركونهم، أخرَجُوهُم من الدّنيا بقطعة قماش بيضاء

فقط، وهم يُجرّدونهم من ملابسهم، وقد جمدت أحاسيسهم، وتوقّفت الحركة في خلاياهم، لا خيار لهم ولا إرادة، يُسرعون بهم إكرامًا لهم، إلى هذه الحفرة الموحشة، بكلّ تأكيد تضيق عن حمّامٍ، لقضاء الحاجة في أحقر بيت من بيوت القرية، ويطمرون التراب عليهم بسرعة وهمّة عالية من ذويهم، ومُحبّيهم، ويُنزلهم إلى هذه المفازة الموحشة أحبُّ النّاس إليهم، وأقربهم منهم. هذا ما يقوله الأستاذ فهيم لنفسه، وهو ساهم الطّرْفِ، ولا يرفّ له جفن، ولم يسمع ما كان يقوله فارس، إلا بعد أن لكزه بطرف يده، حتى تنبّه إليه.

- ما بِكَ، يا فارس؟.

- فارس: أنظرُ إلى طول وعرض المقبرة، فتذكرتُ ممن قطنوا فيها على الأقل منذ أن وعيتُ على هذه الدنيا، يا الله..!!، قبور نعرفها، وأخرى دارسةٌ تَقَادَم عليها الزّمن، صارت منسيّة، جهل النّاس أصحابها، لا دلالة تُرشد إليهم، إلّا حجارة مصفوفة على هذه البقعة من الأرض، لا تتعدى في أحسن حالاتها المتر عرضًا، و المترين طولًا.

- الأستاذ فهيم: بئست من حياة هذه نهايتها.

- فارس: ليتنا نتّعظ من هذه القبور، وأصحابها الذين طمحوا، وأَمِلُوا، وتَعِبُوا، وَكدّوا، واخْتَلفوا، وَهَبَشُوا على الحياة.

- الأستاذ فهيم: يا فارس، لو لم تكن هذه النهاية، لما كان هناك عدل إلهيّ في الأرض أبدًا.

- فارس: هنا يتأكّد، أن العالم أضيق من ثقب إبرة.

- الأستاذ فهيم: نعم، هنا نهاية عالمنا، وبداية عالم جديد لا خيرة لنا فيه، فدائمًا ما تكون النّهايات بَنَاتٍ شَرْعِيّاتٍ للبدايات.

- فارس: خاصّة إذا كانت النّهاية في واحة الصمت العظمى.

***

توجّهَ الأستاذ فهيم، والأستاذ عطاالله، وفارس إلى بيت سليطين، عندما وجّه لهم الدّعوة لزيارته، بعد انفضاضهم من الدّفن، ومراسم العزاء، وقاموا بواجب تقديم العزاء لأهل المُتَوَفّى.

يتّخذ كلٌّ منهم مكانه في المضافة، الفسيحة الواسعة ذات النّوافذ المتعدّدة، المفروشة بالسّجاد، يتوسّط ساحتها مِنْقَلٌ نحاسيّ، يحتوي على الدِّلال، و المعاميل (أباريق القهوة) الصّفراء النُحاسيّة المتلألئة، ببهجة تريح نفس من ينظر إليها، أو يتأمّلها، يقف المهباش شامخًا في وسط جُرن القهوة، يربض بتاريخه العريق بجانب المنقل، رائحة القهوة ترحّب بالقادم قبل دخوله إلى رحاب المضافة، صورة الأب الكبيرة تتخذ من وسط الجدار المقابل للباب مكانًا لها، بمهابة روح الآباء و الأجداد، وهي لا تبرح هذه الأماكن، تُهيمن على قلوب أهل البيت، ولا يشعرون أنّ صاحبها قد غادر الدنيا، يتخيّلون أنه يعيش معهم وبينهم.

منذ الصباح الباكر مع طلوع الشّمس وقبل القيام بأي عمل، يكون أي صاحب مضافة على موعد مع دِلَال القهوة، والمهباش يسحق حبّات البُنّ المحمّص بعناية، يرنّ بدقّات راقصة، ورائحة غلي القهوة تنتشر في ربوع الحارة، طُرُق المضافات معروفة لا حاجة إلى دليل، رائحة القهوة هي دليل القاصدين زيارته.

يلتحق بهم فليحان ونوّاف، يتّخذان من الجهة المقابلة لمن سبقهم مجلسًا لهما، دار فنجان القهوة العربية على الحضور من يد المُعَزِّبْ سليطين، بعد أن شرب الفنجان الأوّل قبل الضيوف، هكذا جرت العادة، لغرس الطّمأنينة و الأمان في قلوب الضّيوف، كما يتوجّب على المعزِّبْ أن يأكل أوّل لقمة من المِنْسَفِ، أو أيّ طعام يقدمّه، وبعدها يوجّه الدّعوة للضيوف بالاقتراب من الطّعام.

سليطين فلاح ملاّك أراضي، ورثها عن أبيه، وهو ذو بنية جسديّة قويّة، شجاع لا يهاب التقحّم لأيّة مشكلة، والتصدّي لها، الكثير من أهل القرية يتجنّبه لسلاطة لسانه، ومنهم من يخاف سطوته، ويُعبّرون عن ذلك (***إبعدْ عن الشرِّ وغنّيلوا***).

***

- **الأستاذ** عطاالله: يبتدئ كلامه بتوجيهه إلى فليحان ابن عمّه، هما يلتقيان عند الجدّ الثّالث، بينهما وحدة حال، و من الودّ الأسريّ المفعم بالاحترام المتبادل: يا بن عمّي. كيف أصبحتْ حَالُ ابنكَ بعد العملية الجراحيّة التي أجريتها له، رجاء أن تقبل اعتذاري لتقصيري في زيارتكم، منذ فترة انشغلت بقضايا الامتحانات و الطّلاب و التحضير، وعلى حدّ علمكَ أنّها تستنزف جُلّ وقتي.

- فليحان: لا عليك يا أستاذ، بدل العذْر لك مئة عُذرٍ، و الله تحسنّت حال الولد، ورجعت له عافيته، وصحّته بحمد الله.

- الأستاذ عطاالله: عسى أنك استردَدْتَ البارودة التيّ بِعْتَها للنّمس؟.

- فليحان: لا والله، يا أستاذ، لم يرضَ النّمس بأن أردّ له فلوسه، وفوقها مربح معقول، بل طلب بها ضِعْفَيْ المبلغ.

- نوّاف يتدخّل بحماس زائد: هذا النّمس الخسيس استغلاليّ، وجشع، يريد أن يربح عليك.

- فليحان: والله، حاولت معه كثيرًا، وتدخّلت بيننا وساطات لكنّه رفض، و أصرّ على رأيه.

- نوّاف، لم يُخْفِ حدّة نبرته العدائيّة الزائدة للنّمس، وجدها فرصة مناسبة لتنفيس حقده عليه، لأنّه منافسٌ له في مجال إقراض النّاس المحتاجين المال بالفائض (الرّبا)، المئة يستردّونها من المَدينِ مئة وخمسين خلال سنة، وإذا

تعسّر الدّفع يمنحونه سنة أخرى مقابل إضافة خمسين أخرى عليه، هذه المُنافسة خافِيَة على الحاضرين، ولم يتبيّنوا سبب هذا العداء، وقال: هذا النّمس، لا تنفع معه إلاّ القوّة، رأسه يابس، لا يفهم بالكلام الليّن، كان يجب أن تتخّذ معه موقفًا حازمًا.

- سليطين: يا قرابتي يقصد فليحان، لماذا لم تخبرني بموضوعك، لوفرّتُ عليك عناء، و تعب المفاوضات، فالنّمس يحترمني، ولا أعتقد أنّه سيرفض لي طلبًا كهذا.

- فليحان: أقسمُ أنّ هذه البارودة تعادل روحي، أو واحدًا من أولادي، لأنّك تعلم أنّها بارودة الوالد رحمه الله، لهذا السبب أريد استعادتها هي بالذات، ولم أبحث عن بديل لها يماثلها.

- فارس: هذه أوّل مرّة أسمع بهذه القضيّة، فلو كنتُ أعرف بذلك لما سمحتُ لك ببيعها، وكنتُ قد نقدتُك المبلغ الذي تريد، قِرْضَة الله حسنة، حتي تتيسّر أمورك، وتعيده لي.

- فليحان: والله، هذا ما حصل، وقتها لم أحبّ أن أكسر نفسي بالطلب من أيّ شخص، فكما يقال: (***صبرك على نفسك، ولا صبر النّاس عليك***).

- فارس: يا بن الحلال، الدنيا يُسْر وعُسْر، يومٌ لكَ ويوم عليك، ربّنا يفرجها علينا و عليك وعلى كل محتاج.

- الأستاذ فهيم، يتطلّع في وجوه القوم، ولم يشترك معهم في الحديث، ما زال ذهنه عالقًا هناك في واحة الصمت، هناك في المقبرة، كأنّه رأى في هذه المرّة من ذهابه إليها، أنّه قادم إلى وحشتها يومًا ما، لا محالة، طال الزّمن أو قصر، وقال: يا جماعة الخير، والله من يتفكّر بحال الدّنيا، يجدها تافهة لا تساوي هذا العناء و المكابدة، و الحرص عليها بكلّ ما أوتينا من قوّة، فلو كلّ واحد منّا علم حدّهُ ووقف عنده، لما وصل اثنان إلى قاضٍ.

- نوّاف: لا غبار على كلامك يا أستاذ، ولكن في مثل هذا الموقف، يجب ردّ الاعتبار إلى فليحان، وهذه تعتبر إهانة كبيرة.

- فارس: الله يجيب العواقب سليمة.

- نوّاف: هذا النمس لا يستحي، لا هو و لا ابنه، أمَا سمعتم ما يقال عنه في القرية، و هذا ما لا نعهده من سُمْعَةٍ سيّئةٍ.

- الأستاذ عطاالله: نخاف الله من الخوض في هذا الموضوع.

- الأستاذ فهيم: يا جماعة الخير، إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبيّنوا، فمن لم يشهد بعينيْه، ويسمع بأذنيْه، وهو بكامل وَعْيِه، لا ينبغي له الخوض مع الخائضين، صيانة اللّسان في مثل تلك القضايا أسلم في الدّنيا و الآخرة، كي لا نظلم أنفسنا، باكتساب الآثام و الخطايا.

- سليطين: نوّر الله قلبك يا أستاذ، رغم أنّ الكثير من النّاس لا يتوقّف عند قولك، فلا يُحَلّلون و لا يُحَرّمون.

- فارس: (**فذكّر إن نفعت الذّكرى**)، وما على الرّسول إلاّ البلاغ المبين، و(***كُلْمَنْ نَنْبُو على جَنْبُو***).

- نوّاف، يريد استغلال الظّرف، لدفع الأمور إلى الصّدام، ولتحريض سليطين على التدخّل لإذلال النّمس، بأيّ طريقة من الممكن أن تؤذيه، فقال: يا أستاذ، إنّي أخاف الله، وكأنّني أرى أنّ قضيّة اللّواط ثابتة على فرج بن النّمس مع رامز، بما لا يدع لديّ مجالًا للشّك أبدًا، أيضاً فإن النّمس رافع خُشُومَهُ (أنْفَهُ) فوق، ولا أحد بعينه في أمّ الخنافس كلها، أو له اعتبار عنده، خاصّة من يوم مجيء هذا الرّامز، ويدّعِي أنّه ابن عمّ له، ومن قريتهم التي جاؤوا منها من حِمْصَ، و صار خطره على أهل القرية، وهو ينقل أخبارها إلى المفرزة، يبدو أنّه ظنّ أنّ أهل أمّ الخنافس هم خنافسها، قالها بسخرية، لإغاظة السّامعين، ودفع الأمور للأمام كي ينتقم من النّمس، عن طريق غيره.

- سليطين: على كُلٍّ، الله يجيب الخير. واعدًا فليحان عَلَنًا بالتدخّل لصالحه. وقد بان الغضب على وجهه من كلام نوّاف، ويعتبر هذه إهانة بحقّه، خاصّة و أنّه سمع بالقضيّة للتوّ في بيته، ولا علم له بها سابقًا. قام وأدار فنجان القهوة من جديد، عندما رأى الأستاذ فهيم يتململُ في مكانه، مُتَهَيّئًا للقيام.

***

انتهى كل شيء، بعد أن باءت محاولات الشّباب المتحمّسين، بالقفز في الماء، بحثًا عن الجثّة الغارقة، طال الوقت لأكثر من ساعتين، عندما انزلقت قدم فهد؛ وفَقَدَ توازنه وهوى إلى البركة، صاح وصرخ، و لم يستطع المقاومة لأكثر من دقيقتين، غطس رأسه في الماء، غاب عن الأنظار، الأولاد يتراكضون من بعيد، وصلوا ولم يستطيعوا أن يفعلوا أي شيء سوى الصّراخ، لطلب المدد لإنقاذ فهد، صراخ لم يُجْدِ إلا في تنبيه الآخرين، الوقت تأخّر إلى ما بعد العصر بقليل، جاء الغطّاس بلباسه الجلديّ الأسود، والكمّامة تغطي وجهه وأنفه، الخبر شاع في القرية، مع ذلك فأمّ مرعي، لا علم لها بما حدث، ولم يجد أحد الشّجاعة في نفسه للإقدام على إخبارها بما حدث لابنها، متسبّبًا لها بفجيعة قاتلة.

ما هي إلا دقائق قليلة، بعد نزول الغطّاس في المكان الذي أشاروا إليه، العيون تترقّب بقلق خروجه من قاع البركة، وهو يحمل على كتفه جثّة فهد، توقّفت عقول الأطفال، وما إن انتشر الخبر في القرية حتّى توافد إلى المكان الكثير من الرّجال و الشّباب، و الأولاد. توقفت عيونهم عن ملاحظة ما حولهم، أبصارهم متركّزة على نقطة واحدة فقط، دموع بعضهم تنساح على خدودهم، يمسحونها بأطراف أكمامهم، الشّباب الواقفون على الدّرج ساعدوا الغطّاس، عندما وقف على أوّل درجة، تناولوا الجثّة منه، ورفعوا الرِّجْلَيْن للأعلى، و الرأس للأسفل، نزل الماء من الفم كالمزراب أثناء المطر.

قالت أم منيف هذا الكلام، نقلته لجليساتها نقلًا عن ابنها الذي حضر الموقف، وتابعت: يا وَيْلَ قلبي على فهد المسكين رحمه الله، ويعين قلب أمّه.

نعمات زوجة صابر، رافقت فاطمة زوجة الأستاذ فهيم، في زيارة أمّ منيف، وهنّ بنات عمٍّ، من فورها، وعندما وصلن، أرسلت ابنتها الصّغيرة إلى أمّ سعيد وصالحة وفليحة، كي يحضرن، لتكتمل جلستهنّ مساء هذا اليوم، وهنّ يشعرن بالبرودة في ساحة الدّار، فجلسن في الغرفة.

احتفلت أمّ منيف بمجيء فاطمة ابنة عمّها ورفيقتها، لأنهن قلّما يجتمعن، أو يتزاوَرْنَ إلّا في المناسبات، وعلى فترات متباعدة. قامت بسرعة لإعداد بكرج القهوة المُرّه، عطر المجالس في كلّ زمان ومكان.

- فاطمة: يا مسكينة، يا أمّ مرعي على هذه المصيبة.

- نعمات: ألا يكفيها مصيبتها الكبيرة مع زوجها المنحوس؟.

- أم سعيد: (***المنحوس منحوس ولو حطّوا على رأسه فانوس***)، أفلا تكفيه هَمَالته، وقلّة أشغاله؟، وزاد لعبه القمار بالطنبور نَغَم، ونومه حتّى الظّهر، فلا يسعى على رزق أولاده، تراهم فتحسبهم كأنّهم شحّادون، حالتهم بالويل يُرثى لها.

- صالحة: يعني هو طلّقها؟.

- أم منيف: الله لا يسامحه، رماها بظهر رجل آخر(قذفها في عِرْضِها)، متهّمًا إيّاها في شرفها، هذا بعد عشرين سنة من الزواج و العِشْرة.

- فليحة: الله يجيرنا من الأعظم.

- أمّ منيف: وهل هناك أعظم، من هذا الاتّهام الخطير.

- أمّ سعيد: الله لا يوفقه، أنا متأكّدةٌ أنه لن يرى الخير في حياته، من ضيّع مثل أمّ مرعي، هذه الجوهرة، أين سيلقى مثلها؟، لكن ماذا سنفعل، إذا كان المنحوس منحوسًا واسع الذمّة، ولا يخاف الله.

- صالحة: أنا أعلم أنّ خلافاتهما كانت كثيرة، و متكرّرة في معظم أحوالهم، كان يضربها ويُهينها، ولا يحترم أنّها أصبحت أُمًّا للشباب.

- نعمات: سمعتُ أنه في آخر مشاجرة لهما قبل طلاقها، أنّ ابنها الكبير مرعي، وقف في وجه أبيه، حماية لأمه، قالوا أنّها المرّة الأولى التي تجرّأ فيها على مواجهة أبيه الذي لطمه على وجهه، ثم ضربه على ظهره بعصا غليظة، عندما أدار ظهره، ممّا أقعد مرعي أرضًا، عندها رفعت أمه صوتها بالدعاء على المنحوس، بأن يشلّ يده، ويشغل باله.

- فاطمة: هناك بعض الناس تقضي معظم حياتها بعيدة عن الحياة بمسافات، وقد حُسِبَت عليهم حياة، وعيشًا، أمّ مرعي امرأة لا تستحّق إلّا كل خير واحترام، والمنحوس عليه من الله ما يستحّق، على قوله، و افتراءاته المتكرّرة عليها، رغم أنّها جعلت منه رجلًا بعملها وجدّها وكدّها، فهي تشتغل على مدار العام،

ما إن يأتي الرّبيع، حتّى تشدّ أزرها، وتخرج للحقول لجني العكّوب، والكزبرة والرّشاد و البابونج والزّعتر؛ لتبيعه وتستر نفسها وعائلتها، ما إن يبدأ الرّبيع يجرّ آخر أذياله، حتّى يأتي موسم الحصاد، موسم الأعمال الشّاقة، وما إن تنتهي من الحصاد، لتبدأ بالعمل في منزلها، في تطريز القماش، ونسج الكنزات الصوفيّة بالأجرة لمن يطلب منها.

- صالحة: امرأة مثلها تعادل عشرة رجال من أمثال المنحوس، لكن (***إللي ما له بَخْت، لا يتعب و لا يشقى***).

- أمّ منيف: المرأة التي بمثل حالها، ما حاجتها لمثل هذا الزّوج العاطل، ما فيه شيء من الرّجولة إلا اسْمه.

- أمّ سعيد: فليذهب إلى الجحيم، لم يختلف عليها شيء بعد طلاقها منه، ها هي تقوم على تربية أولادها على أحسن ما يكون.

- فليحة: (***و الذي ما له أب، له رب***)، وهذا ابنها الكبير صار زلمة (رجل)، وسيكون ساعدها الأيمن.

- أمّ سعيد: يا ويل قلبي،(***إِجَتْ المسكينة لتفرح، مالقت بالمدينة مطرح***)، الله يعينها على مصيبتها.

- أمّ منيف: (**لا بدّ من يوم تزغرد فيه الحزينة، لو بعرس جارتها**)، ستزهر أيامها من جديد.

***

(١٦)

ضابط الجوازات المساعد، يتأمّل جواز سفر مصطفى القادم من بيروت، بتقليب صفحاته، و تدقيق غير معهود، بطريقة موحية بالخوف، دبّ الرّعب في قلبه، وهو يتأمّل نظرات الضّابط على صفحات جواز سفره، خمس دقائق مرّت عليه كأنها خمس سنين، شكّ بالأمر، الحيرة بدت على وجهه، قلق غير طبيعي انتابه، وهو يتلفّت في أرجاء صالة استقبال القادمين في مركز حدوديّ بين لبنان وسورية، هكذا روى مصطفى مشاعره فيما بعد.

يدخل ضابط صفٍّ (برتبة مساعد) إلى المكاتب الداخليّة حاملًا الجواز بيده، ازداد شُحوب وجه مصطفى، خفقان قلبه يتسرّع بحركات تكاد تكون مسموعة، لمن هو قريب منه، لا يدري ما العمل، تمنّى لو أن الضّابط يخرج، ويتسلّم منه جوازه لمتابعة مشواره الطّويل إلى بلده.

توقّف عقله عن التفكير، حارت الكلمات على شفتيه، تجمّد لسانه وتخشّب، يرقبُ الباب الذي دخل منه المساعد، طال الوقت قليلاً، استطال قلقه ليبدو ظاهرًا على ملامحه.

الصّالة على وسعها ورحابتها، ضاقت عليه، وهو يسحب نفسًا عميقاً، صُمّتْ أذناه، فلم يسمع إلا وَجِيبَ قلبه، وكأنّه يُعاين فيها وحدته، فلم يحسّ بوجود أحد من القادمين، ولا بأصواتهم وضجيجهم ووَقْع أقدامهم، وهم يستعجلون خطواتهم للّحاق برحلاتهم المنطلقة إلى دمشق، بينما خرج شرطيٌّ من الباب الذي يركزّ عليه بصره، وصاح من مصطفى؟.

- مصطفى: بلا إرادة منه رفع يده، وبصعوبة بالغة تحرّك لسانه وهو يلوكه في فمه الجاف، وقال: أنا؟.

- الشرطيّ: تعالَ إلى هنا، أنت مطلوب.

- مصطفى: حاضر. ما إن اقترب من الشرطيّ حيث يقف، سلّم عليه، وقال: خير إن شاء الله، ما هنالك؟.

- الشرطي: صراحة لا أعرف شيئًا، لكن المعلّم يريدك في المكتب، وهو من طلبك لمقابلته.

لم ينبس ببنت شفه، سار وراء الشرطيّ عبر الممر الطّويل المُفْضي إلى صالة صغيرة مربعة الشّكل، في وسطها تتدلّى ثريّا ذهبيّة، تنفتح عليها أبواب مكاتب رئاسة مركز الحدود، ومعاونه ومكاتب للأمن.

طرق الشرطيّ باب المدير، دخل، وأغلق الباب خلفه، ثم عاد وفتحه، آمِرًا مصطفى بالدّخول.

يتذّكر مصطفى: لم يُوحِ منظر الصالة الخارجية بأنّها مُفضيةٌ إلى هذه الأبهة من المكتب الوسيع، بفرشه الفخم من أطقم الكنب بمخملها الخمريّ المتناسق مع السّتائر، وسجّاد الأرضيّة، في الواجهة تتربّع طاولة المكتب الخشبيّة المُرتّبة، و النّظيفة، خلفها يجلس ضابط برتبة عميد، وخلفه صورة كبيرة للرّئيس بإطار ذهبّي عريض، وأمامه على جانب الطاولة مجموعة من أجهزة الهواتف لا يتوقّف رنينها بين لحظة وأخرى.

بقيتُ واقفًا أتأمّل المعالم القاسية لوجه الضّابط، ساهمًا في لعبة اللاشيء في ذهني، أفكر و لا أفكر، لا أدري ما هو مصيري. داخلني شكٌّ بأنّني لن أستطيع متابعة رحلتي في التاكسي إلى دمشق.

انتهت المكالمة بكلمات وداع رقيقة، ووضع سمّاعة الهاتف بمكانها، بلهجة آمِرَةٍ للشرطي: اذهب يا بني، وأحضر أغراض مصطفى، وأخبر سائق التاكسي أن لا ينتظر، ثم وجّه كلامه لي: بالتّرحيب و الجلوس. ها يا مصطفى أخبرني، عن سر أختام الدخول إلى قبرص فتركيّا، والعودة ثانية إلى قبرص، ثمّ بيروت؟، كأنّك مبعوث أمميّ للمُباحثات في محاولة التخفيف من توتر الأزمة القبرصيّة بين تركيّا و اليونان، على اعتبار أنّك زُرت قبرص مرّتين خلال فترة بسيطة، هل التقيت بالأسقف مكاريوس؟، بلهجة هازئة، وبسمة لم تفارق شفتيْه، و دخان سيجارته المتصاعد على شكل غيوم، حجبت ملامحه عني.

- مصطفى: جولة سياحية.

- العميد: لا أخفيك سرًّا أنّنا وجدنا عندك تشابه بالأسماء، وعلينا تحويلك إلى فرع فلسطين.

- مصطفى: دبّرْها سيدنا، وما يصير إلا و خاطرك طيّب، و أنا حاضر لكل شيء.

- العميد: لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا، سامحني لأنّ القضيّة ليست عندي، كما ترى إنها عند المخابرات، ولا أحد يستطيع أن يلعب معهم.

ثمّ كبس بيده على زر الجرس، ما هي إلاّ لحظات حتى حضر عنصران بلباس مدنيّ، اقتاداني إلى مكتبهما، حملت معي حقيبتي.

***

بعد أيام قليلة من زيارتها لأختها(أم حميد)، عادت أم فرج زوجة النّمس، فما إن وطئت قدماها أرض القرية، تزامن ذلك مع مرور أمّ سعيد، وتوقّفها لتهنئتها بالسّلامة، وإبلاغها نشرة القرية الإخبارية.

- أمّ سعيد: الحمد على السلامة يا أمّ فرج، كيف حال أختك؟.

- أمّ فرج: ربّي يسلّمك، ويقويّك، والله أمّ حميد أختي بخير هي و أولادها، أيّام الزيارة مضت بسرعة كبيرة، وكأنّها ساعة واحدة، وَدِدْتُ لو أنّها طالت قليلًا، أحدنا لا يشبع، و لا يملّ من لقاء أحبّته، خاصّة إذا كانوا في مكان آخر غير مكان إقامته، و الدّنيا فيها موت وحياة.

- أمّ سعيد: القرية قائمة وقاعدة، جاء موت ابن المنحوس ليكون افتتاح موسم المصائب، و المشاكل علينا.

- أمّ فرج، لم تتمالك نفسها، قبل انتهاء أمّ سعيد من كلامها: وكيف حدث ذلك؟.

- أمّ سعيد: مات غرقًا في البركة، وما استطاع أحد استخراجه، إلا بمجيء الغوّاص بعد ساعات، لينتهي الأمر.

- أمّ فرج: كان الله في عون أمه، إن شاء الله غدًا، سأذهب لتعزية أمّ مرعي بولدها؛ لأنّني أعتبر هذه المرأة مكافحة، يجب أن نقف بجانبها.

- أمّ سعيد: كان الله في عونها، وعونك أيضًا، وتوقّفت عن الكلام فجأة، وكأن مسًّا أصابها.

- أمّ فرج، اكتسى وجهها بالدّهشة، وهي تتساءل: أكملي يا أم سعيد، ما بك؟.

- أمّ سعيد: و الله إنّني مُحرجَة بإخبارك أمرًا خاصًّا بكِ، لفظاعة الأمر، حدّثتني نفسي بالإحجام عن ذلك.

فرج يقف على بعد أمتار من مكان أمّه، و أمّ سعيد، وضع الأغراض على الأرض، بعد أن تعبت يداه من حملها، وهو ينظر باتّجاههما. لم تلتق عينُه بعين أمّه المستغرقة في حديثها مع أمّ سعيد.

- أمّ فرج: بالله عليك، أخبريني، وبرِّدي قلبي، أشعر أنّ الأمر الخاصّ بي خطير جدًّا، هكذا قلبي يحدّثني، قبل أن أسمع منك.

- أمّ سعيد: أنا سمعتُ فقط، أتمنّى أن يكون الخبر غير صحيح، يقال أنّ رامز ابن عمّ زوجك، جاء إلى بيتكم برفقة الآنسة شمسة، قضى معها ليلة كاملة في بيتكم، على ذمّة الذين قالوا، واللهُ أعلم بالصّحيح.

لم تتمالك أم فرج نفسها، انهلّت دموعها مدرارة، راحت تمسحها بطرف منديلها الأسود المتدلّي من رأسها، تغمغم بكلام نصفه مفهوم، والآخر غير مفهوم، وتقول: والله يا أمّ سعيد، إنّ قلبي دليلي، للمرة الأولى في حياتي، أطلب زيارة أختي، وزوجي لا يعارضني أبدًا، بل وافق بكل يسر وسهولة، بلا تحرّزات وتحفّظات، بانت الصّورة، و اتّضحت معالمها، والله مثلما قالوا: أن (***المَثَلَ نبيٌّ***) ما ترك شيئًا إلا قاله،(***يا خبر اليوم تشتريه بمصاري غدًا يأتيك ببلاش***).

***

هناك أشياء أراد التأكّد منها بنفسه، ويكتشف أخرى بذكائه، وبحكم خبرته الطّويلة، في كتابة التّقارير و الدّراسات الأمنيّة، بخصوص الأستاذ(الشّيخ)

المشورب، قرّر (أبو غليون) القيام بزيارة المشورب للتعرّف عليه عن قرب، وبناء علاقة متينة معه، ومفتاحه لهذا الباب هو الأستاذ عطاالله، كونهما(الأستاذ عطاالله و المشورب) أبناء كَارٍ واحد في المدرسة سابقًا، مؤكّدٌ أن بينهما من العلاقة و الودّ ما يجعل(أبو غليون) يطرق الباب باطمئنان، هذا ما يدور في خلده.

ذات مساء تأبّط ذراع الأستاذ عطاالله، بعد التنسيق للقيام بهذه الزيارة البريئة بالنسبة للأستاذ، ذات الأهداف المخفيّة المخطّط لها في ذهن(أبو غليون).

- الأستاذ عطاالله: في الحقيقة إنّ قلبي يتقطّع لحال الأستاذ المشورب، عندما أوقفوه عن التدريس، إنّه يُعِيلُ عائلة تحتاج للكثير من المصاريف، وإيجار البيت، كان الله في عونه.

- أبو غليون: يا أستاذ، كان عليه أن يحافظ على لسانه.

- الأستاذ عطاالله: صحيحٌ ما تفضلّتَ به، لكنّهم استفزّوه بالكلام، لولا أنّني كنت حاضرًا و شاهدًا على الموقف، لاستهجنتُ ما حصل له، فهو أطلق لسانه بمجرّد كلام لا يؤخّر، ولا يقدّم.

- أبو غليون: أنت تعلم يا أستاذ أنّ الأمر ما فيه مزح أبدًا، (***والطايِحْ رَايِحْ***).

- الأستاذ عطاالله: بعد أن وقعت الفأس بالرأس، فلا نفع للترقيع.

- أبو غليون: بلا يمين يا أستاذ، الشّهادة لله، أنّني أشفقتُ على الأستاذ المشورب، فلا يستحقّ ما حصل له، وهذه القسوة التي عومل بها.

- الأستاذ عطاالله: كان متفوّقًا في تخصّصه العلمي، مخلص في عمله، هَمّهُ الأول هو النهوض بحال الطّلاب العلمية، لانتشالهم من الجهل، وإيصالهم إلى الطريق الموصلة إلى الجامعة، فقبل مجيئه كان كل الطّلاب لا يعرفون شيئًا عن المعادلات، ولا عن طريقة كتابتها أي شيء أبدًا.

- أبو غليون: كلامك جعلني أحبّه، وأرتاح له قبل رؤيته، شوّقتني للقائه، وأنا متأكّد من أنّه سيكون بيننا من العلاقة الحميمة، وسأتخذّه بمنزلة أعزّ أصدقائي.

- الأستاذ عطاالله: من يلتقيه مرّة، يسعى إليه مرّة أخرى، فهو متواضع، بسيط في تعامله مع الآخرين، رغم أنّ شكله الخارجيّ غير موحٍ بذلك، طيّب لدرجة كبيرة.

- أبو غليون: كفى تشويقًا يا أستاذ، وإثارة لي.

- الأستاذ عطاالله: لكن ردّة فعله كانت قاسيةً على نفسه، فقد اعتزل الحياة العامّة، و لازَمَ بيته، و من النّادر أن يخرج من بيته، قليل الاختلاط بالآخرين.

- أبو غليون: على رأي المثل(***ريّح راسه من تعب البال***).

- الأستاذ عطاالله: من وقت لآخر أقوم بزيارته للاطمئنان عليه، ولكنّ مأخذي عليه، هو اتّجاهه للروحانيّات، ففيها الكثير من الدّجل و الشعوذة، وما يُغضِبُ وجه الله في جوانب عديدة.

- أبو غليون: كان الله في عونه، لقمة العيش مُرة، ولا يُلام فيما يقوم به، قساوة الحياة لا ترحم يا أستاذ، على كُلٍّ، من الروعة أنّه كان لديه القدرة لتغيير مهنته، وتجاوز ما حصل معه، أعرف آخرين في مثل حالته، أصابتهم أمراضٌ نفسيّة، وبعضهم دخل المصَحّات العقليّة.

***

حركات النّمس هذا اليوم كانت مُلفتة على غير العادة، وهو يذهب ويعود إلى المفرزة، ما إن يدخل حتّى يخرج بسرعة، يبدو التوتّر على حركاته المثيرة، فمن يشاهده بخطواته السريعة، يبدو أنه في عجلة من أمره، وكأنّه على موعد مُهمّ، القلق سيطر على حركات لا إراديّة فيمدّ يده لحكّ رأسه أو ذقنه، أثناء حديثه مع رامز أمام باب المفرزة، وانسحب ذلك على حالته أثناء المشي، التوتّر بادٍ على وجهه، كأن هناك شيئًا ما

غير مفهوم؛ هكذا يظهر على شكله الخارجيّ، و سيصبح ذا معنى خاصّة إذا اكتستْ به تعابير وجهه، من تقطيب لجبينه، وحركات رأرأة عينيْه السّريعة المتكرّرة في جميع الاتّجاهات.

منذ أن سافرت أم فرج قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، ماجد لم يستقر له رأيٍ، أو يهنأ بلحظة، إلا بعد أن تَصْدُق ظنونه وشكوكه؛ لأنه على يقين أنّ شيئًا ما سيحدث، هو اعتاد ذلك، وراح يردّد فيما بينه وبين نفسه: سجّل عندك يا تاريخ..!!، مع حركة من حاجبيْه علامة تعجبّه، وهزّة من رأسه مع إمالته يمينًا أو يسارًا.

لحسن الحظّ أنّه خلال هذه السّاعة، لم يأت أحد من الزبائن إلى الدّكان، فبقي جالسًا أمام المحلّ، يرقبُ النّمس، وكوّن فكرة، استدعت رسم خطّة لكشف المستور، وهو الذي اعتاد ذلك، برهافة إحساسه، وفهمه العميق لما يدور حوله بطريقة مختلفة عن أقرانه من الأولاد، بينما بقي والده جالساً في الداخل، خلف طاولته الخشبيّة، يراجع دفاتر الحسابات، و الدّيون المتأخرّة الدّفع، وهو بصدد إنشاء قائمة بالأسماء لتجديد مطالبتهم.

أضمر ماجد في نفسه الطّلب من والده، بأخذ إذنٍ منه بُعيد الغروب بقليل، قبل موعد ذهابه مع أبيه إلى البيت عند إغلاق الدّكان، للبحث عن أصدقائه المقرّبين أنيس ومحمود، قرّر ذلك عند عودة النّمس المفاجئة، وإشارة من يد رامز له، هزّ النّمس رأسه علامة الإيجاب و الموافقة، و (**اللبيب من الإشارة يفهم**)، فهم النّمس تنفيذ الأمر بحذافيره، كما أمره سيّده، وفهم ماجد شيئًا مغايرًا سيكون له الأثر الحاسم، في كشف المستور.

يقول ماجد لنفسه: أربعة مشاوير، وهذا الأخير خامسها، لم يكن الأمر عبثًا، هذه هي المرّة الأولى التي ألحظه فيها، بمثل ما هو فيه هذا اليوم، الآن .. الآن، تأكدتُ أنّ أمرًا عظيمًا سيحدث هذه الليلة، فلن أتوانى في الطّلب من أبي الإذن لي بالمغادرة قبله بساعة، لكن سأدّبر حيلة، أختلق فيها حكاية لإقناع أبي، يا ربّ..!!، ماذا أفعل؟. أعصابي متوترة، لن أحتمل ساعة أخرى، أودّ لو أنّ أبي يبقى يراجع حساباته؛ لكي لا يرى توتّري وقلقي، وأتعرّض لأسئلته و استفساراته، و أكون في موقف لا أحسد عليه، لأجدني مضطرًّا للكذب على أبي الذي يكرهه بشدة

مبالغ فيها؛ للخروج من حالة الضّيق التي تنتابني هذه اللحظة، صرف ماجد ذهنه، و تَشَتَّتَه إلى شيء آخر بعيد عن موضوع الحدث، للخروج من حالته.

***

في السّجن تتضاءل الأحلام، تتحطّم الطّموحات بين الجدران، تكاد أن تتوقف عجلة الحياة لبطئها الشّديد، ربّما تسمع صوت ارتطام الإبرة إذا وقعت على بلاط أرضيّة السّجن، ران صمت ثقيل على المكان، مريبٌ بإطباقه على قلوب ونفوس المساجين، وتنسحب أذياله على السّجانين، و الجلّادين، متلازمة التجهّم رافقت وجوههم، فصارت جامدة كجليد القطب المتكدّس منذ آلاف السنين، صقيع كأنّه الموت يكسُو ملامحهم المخيفة، المقروءة لمن يرى أحدًا منهم ، ولا يعرف عنهم أي شيء، أو ما هي طبيعة عملهم، الجلّادون قساةٌ غلاظ بطباعهم الفظّة، تخلّوا عن إنسانيّتهم،وهم يتلقّون أوامر سيّدهم، ينفذونها بكلّ أمانة، ويضيفون عليها زيادة منهم، لإرضاء نزوات ذلك السيّد القابع خلف طاولته في مكتبه.

مصطفى سجين وقع بين براثنهم، بداية الظنّ بأنّ الأمر لن يتعدّى السّاعات، ويُخلى سبيله، ابتلعته زنزانة صغيرة حقيرة في بحر ظلامها، وصل حدّ الغرق، كابد هبوط معنويّاته ووضعه النفسيّ انخفض إلى موازاة مؤشر تحت الصفر المئويّ، تائه في صقيع الصحراء الجليديّة، سكونها العميق يرسب فيها أعماق قلبه، انكسر شعاع النور في نفسه.

التحقيق استمرّ ساعات طويلة، خضع خلاله للضّرب المُبْرح، لسحب الاعترافات منه بالقوّة، ليتوافق بذلك مع التّهمة التي ستنسب إليه.

- المحقّق: أنت متّهم عندنا بالتآمر، و التخابر مع العدوّ.

- مصطفى: أيّ عدوّ يا سيّدي؟.

- المحقّق: العدوّ الإسرائيليّ، ليكن معلوم لديك، أنك ستذهب من عندي من هنا، إلى ساحة المَرْجَة حيث ينتظرك هناك حبل المشنقة، عليك أن تقول الحقيقة، وتعترف، لاختصار المشوار عليّ وعليك.

- مصطفى: الحقيقة يا سيّدي، أنّني لا أعلم شيئًا عمّا تقول، أنا في حياتي لم أسمع بإسرائيل أبدًا إلا من أخبار الرّاديو فقط، واطّلعتُ على الجريدة ثلاث مرّات في حياتي كلّها.

السّوط يعلو ويهبط، تأوّهات ممزوجة بأنفاس الجلاّد الحرّى، يتأجج الحقد فيه على مصطفى الذي يتلوّى بين يديه، لا حيلة له بِرَدّ لسعاتٍ ترسم خُطوطًا متقاطعة على جسده، متشابكة بحجم وطن مأزوم بإنسانه، ينتهي المشهد الأول من التحقيق، بأمر من المحقّق.

- المحقّق: سأعطيك فرصة كافية لتراجع فيها نفسك، وتتذكر بشكل جيّد الأحداث يا مصطفى، أما أنت يا عسكريّ، خُذْهُ إلى مكان يليق به، غير تلك الزنزانة الانفراديّة.

- مصطفى: أشكرك، يا سيدي.

- المحقّق: انظر إليّ جيدًا، هذا قلم، وهذه مجموعة من الأوراق البيضاء، عليك أن تكتب كلّ شيء عن حياتك، منذ أن جئت إلى هذه الدّنيا، إلى هذه اللحظة التي تقف فيها بين يديّ هنا.

- مصطفى: حاضر، يريد أن يتخلّص من الموقف العصيب.

- المحقّق: ليكن معلوم لديك أنّ إضبارتك عندنا، فيها كلّ شيء عنك، وإذا حدّثتك نفسك بإخفاء أيّة معلومة، سيكون الحساب عسيرًا، ما حصل الآن، هذا مجرد ضيافة فقط، أما هناك، عندنا أشياء كثيرة لا تخطر على عقل بشر.

وقف المحقّق خلف طاولته، فَهِمَ العسكريّ من ذلك، أنّ الجلسة انتهت وعليه المغادرة مع السّجين.

***

جلس في زاوية الغرفة الصغيرة، ضوء منبعث من كوّة صغيرة في أعلى الجدار، الضوء يجعل الحياة فيها بطعم الحياة إن جاز تسميتها بذلك، تأملّ زواياها وجدرانها ولم يستطع رؤية معالمها الحقيقيّة لانشغال ذهنه فيما سيكتب، الباب الحديديّ فيه نافذة صغيرة مغلقة من الخارج، بسط الأوراق، و القلم أمامه، من جديد اتّسعت مساحة الورقة، لتكون كمساحة القارة القطبية، أولّها بياض و آخرها بياض، الصقيع جمّد أفكاره، يمسكُ بالقلم، تتهربُ الكلمات منه، تأبى ذاكرته أن تسعفه بشيء ما، توقفتْ أفكاره عن التدفّق كما كان يحصل له عادة.

آلام السّوط سيطرت على السّاحة، اغتصبت المساحة، يا إلهي.. ماذا أكتب، سأكتب تاريخ ومكان ميلادي. تعود ثانية خطوط الضوء، وتشكيلات ذرّات الغبار الطّائرة في هواء الغرفة، تسحره بتشكيلاتها، بحركاتها الدّؤوبة لم يفهم من أجل أيّ شيء تتحرّك، ما دامت هي أيضًا في سجن، وبين جدران مظلمة، هل هي تسعى للضوء أم الضّوء يسعى إليها، أمِنْ أجل أن تتحرر من ظلمة المكان، أم محاولة الهروب من جحيمه.

من جديد يكتب، درستُ في مدارس قريتي أمّ الخنافس، لأب فلّاح، لم أنتسب لأي حزب كان، ولا إلى أيّ تنظيم، أو تجمّع له قيمة، ممكن أن يحسب له حساب، أرسل روحه من كوّة الضوء من جديد لتسبح مع سُحُبِ الغبار، علّهُ يستنشق هواء نظيفًا نقيًّا، انفتحت شهيّته على الكتابة، يُسوّد أوّل ورقة على الوجهين، يتوّقف، يتمنّى سيجارة، يتأكّد في قرارة نفسه أنّه يطلب المستحيل بعينيه، هيهات أنّى يحصلُ عليها في مثل هذا المكان، و في مثل هذا الظّرف.

سرح بخياله بعيدًا، فجأة انتبه من غفلته، تذكّر الورقة الصغيرة المطويّة (الخارطة) في جيب الحقيبة الجانبيّة، ماذا لو وجدوها؟، هل سيتحوّل مسار التّحقيق إلى طريق آخر؟، شيءٌ مضحكٌ تهمة العمالة لإسرائيل، يا لهم من مُفْتَرين، ومجرمين، لكن كيف لهم أن يصنعوا لي إضبارة مُفتراة من أوّل كلمة فيها، وُصولًا إلى حبل المشنقة؟، كما قال لي مُحَقّق النَّحْس المشؤوم، رغم أنّني هذه أوّل مرّة في حياتي أجيء إليهم، هل من الممكن أن يكون ذلك حقًّا؟، بعد أن أخذ نفسًا عميقاً، وبِرَوِيّةٍ، قال: لا أعتقد ذلك، بل من أجل التهويل و التخويف، سأكتب فقط عن رحلتي على أنها سياحة، كما أخبرتُ العميد بذلك في مركز

الحدود، والثّبات على الأقوال الأولى، وعدم التّناقض في الإفادة سيُسهِّل الأمر عليّ، أستعيدُ كلّ كلمة كُتِبَت في ورقة الضّبط الأوّل، يبدو أنّ الرّياح لا تجري بما تشتهي السفن، وأنّ (***حسابات القرايا، لا تنطبق على حسابات السرايا***).

***

قرّر ماجد عقد اجتماع عاجل على جناح السّرعة لمجموعته (أنيس و محمود)، فغادر الدّكان، بحث عنهم طويلًا في الأماكن المعهودة، أخيراً فطن للبيادر، راح راكضًا بأقصى سرعة، وجدهم هناك مُنهمكين في لعب كرة القدم، المحبّبة في مثل هذه الأماكن، وهي البّديل للملاعب في مجاهل الريف.

ما إن لمحهم، حتّى خفّف من سرعته، دقات قلبه سريعة، صدره يعلو ويهبط، لهاثه عميق، لحظات، وقف ينظر للاعبين، يستعيد هدوءه شيئًا فشيئًا، تهدأ أنفاسه إلى حدّها الطبيعيّ، توقّف زفيره العميق، على حافّة الملعب جلس على حجر، بانتظار انتهاء اللّعبة، انتظارهم ربع ساعة، شجّع فيها فريق حارته، مقابل الفريق القادم من حارة أخرى، انتهت اللّعبة بفوز فريق حارته، تزامن ذلك مع بداية تشكّل الشّفق، الشّمس تسير بسرعة إلى مقرّها الأخير. جلسُوا قليلًا لالتقاط أنفاسهم، دُهشوا من مجيء ماجد إلى هذا المّكان في هذا الوقت، لعلمهم أنّه مع والده في الدّكان.

- أنيس: ما الذي جاء بك؟.

- محمود: بكلّ تأكيد، اشتياقه إلينا.

- ماجد: على كُلّ حال جئت إليكما، لا تسألوني عن السّبب، أمامنا مهمّة علينا تنفيذها لاكتمال الصورة كاملة ونكمل ما نقص منها.

عيونهم تتركّز على حركات يديّ ماجد، مُشَنِّفَيْ آذانهما باهتمام بالغ، بترقّب، بكلمة واحدة، و صاحا بصوت واحد، وبلا اتفاق منهما، قالا: (جاهزون).

- ماجد: **سجّل عندك يا تاريخ**.

- ردّا بكلمة واحدة، وردّدا خلف ماجد: سجّلنا، هيّا تكلّم يا ماجد، فقد شوّقتنا.

- ماجد: على خلاف الأيّام السّابقة، النّمس تردّد في هذا اليّوم على المفرزة حوالي خمس مرّات، كانت حركاته مثيرة لاهتمامي، وأنا أراقبه في كلّ مرّة، من المؤكّد أنّ هناك شيئًا ما، لو يأخذون عمري، ويخبراني بما سيفعلان، هو و رامز، حركاته المشبوهة خاصّة عندما تذكرت أنّ زوجته أمّ فرج مسافرة مع ابنها، من يومين.

- أنيس: خسئوا، عمرك ثمين لنا، وكلهم لا يعادلون حذاءك.

- محمود: أنا جاهز، لا عمل عندي، سأذهب للبيت أولًّا، أشعر بالجوع ينهش أحشائي، وبعد ذلك سألتقيكما في ساحة الحارة.

- أنيس: كذلك أنا أشعر بما يشعر به محمود، مع حاجتي إلى أخذ حمّام لإزالة آثار التعرّق و الروائح، لأجدّد نشاطي.

- ماجد: ولستُ بأقلّ منكما إلى هذه الحاجات، توكّلوا على الله، سنلتقي بعد العشاء مباشرة، وهذا وقت كاف لإنهاء هذه الأشياء، وننطلق، ربّما ستطول مهمتنا إلى الفجر.

وقفوا جميعًا، مدّ ماجدٌ يده للأمام، و مَدّ أنيس ومحمود يديْهما، ووضعوهما فوق يد ماجد، بكلمة واحدة صاحوا: نحن لها. وانطلق كلٌّ منهم إلى شأنه، استغلالًا للوقت، على أمل العودة للقاء جديد.

***

يا أنت.. يا أيّها النّمس، لا أدري لماذا أَطلَقَ عليك والداك هذا الاسم، النَمس جاء اسمٌ على مُسمّى، تُجيد فنّ المراوغة، تخدع البسطاء بحركاتك التّافهة، من يوم وَعَيْتُك في الحارة، لم أر فيك كمال الرجولة، بما يليق بك، أو يتناسب مع عمرك، لكنّي أخذتُ عهدًا على نفسي، إذا كنتَ أنتَ النّمس، فسأكونُ أنا الفخّ المترصّد للإيقاع بك، بلا كللٍ ولا ملل، ماجد يُحدّث نفسه، أثناء طريقه إلى البيت، ثم

يضحك بِسُخرية من كلامه لنفسه. ويُتابع: تبًّا لكَ يا نمس، ولابنك الخنيث، حالة مخزية، (خَرا عليكم، وعلى القرية إللي احتوتْ أمثالكم يا كلاب).

***

(**أبو غليون**) يتناول قلمه من جيبة الجاكيت الداخليّة، يفتح غلاف ديوانه، على الصّفحة الأولى التالية البيضاء، كتب كلمة إهداء، توقّف عن المتابعة رفع حاجبيْه، أرسل نظراته، ليستأذن الأستاذ المشورب، بسؤاله عن اسمه الحقيقي، ظنًّا منه أنّ المشورب هو لقبٌ وليس اسمًا، لم يلحظْ غضاضة على وجه المشورب الذي تأمّل القلم، و هو يكتب به كلمة الإهداء، عاد به الزّمن لأيّام الدراسة الجامعيّة والتعلّق الشّديد بالشِّعْر.

تعالت ضحكاتهم في أرجاء الغرفة، هزّ الأستاذ عطاالله رأسه مُتعجّبًا باستغراب للتساؤل، لم يخطر بباله أبدًا بتوجيه هذا السؤال للمشورب رغم صداقتهما.

- المشورب: في الحقيقة هو اسمي الحقيقيّ، رغم أن ظاهره لقب، أخبرتني أمّي، أنّها لمّا ولدتني تمنّت أنْ أصبح رجلًا، وشارِباي يملآن وجهي أسوة بأعتى مظاهر الرّجال، و الشوارب أحد مظاهر الرّجولة القويّة، كثيرًا ما تُعطي الانطباع الأوّل بالهيبة، و الخِشْية تستقرّ في أعماق نفس من يطالع مثل ذلك الوجه، فاقترحتْ عليها إحدى جاراتنا هذا الاسم، لم تمانع والدتي، وصار ما صار.

- أبو غليون: ربّي يُطوّل بعمر الوالدة.

- الأستاذ عطاالله: اللّهم آمين.

- أبو غليون: رفع رأسه باتّجاه جلسائه، وقدّم الكتاب للمشورب، وقال: تفضّل يا أستاذ، أنتم جماهيري المثقّفة، أطمح أن تقرأه، وتعطيني ملاحظاتك عليه في جلسة أخرى، لأستفيد منها في مشواري الطويل على درب الشّعر، وسنعيش

ونموت ونحن نتعلّم، من شدّة حرصي على سماع الرأي الآخر، كثيرًا ما أُتَّهَمُ بإضاعة هيبتي في استجداء الآراء و النّقد، مثلي كمَثَل الشحّاد هكذا يفسرّونها.

- المشورب: تناول الكتاب، تأمل الكلمات، باهتمام راح يقرأ، بصوت مسموع: إهداء، عُربون محبة وصداقة، هذه أجمل هدية يا أستاذ، سعادتي كبيرة بالتعرّف إليك، وأتوجّه بالشّكر للأستاذ عطاالله بهذه الخطوة الطيّبة، و سعيه لجمعنا، أهلًا و سهلًا بكم، البيت بيتكم.

- الأستاذ عطاالله: لا شكر على واجب، الأستاذ (أبو غليون) مُنفتح على كافّة الشّرائح الاجتماعيّة، شخصيّته محبّبة، آسِرٌ بتواضعه الجَمِّ، يحبُّ اللقاءات، و السّهرات، خاصّة إذا كان جلساؤه من المثقّفين، فهو يحلّق في سماء الإبداع.

- أبو غليون: أخجَلْتَنِي أستاذ بكلامك.

- الأستاذ عطاالله: الحقّ يُقال، ولا أقول إلا ما أعرف، ومُتيقنٌ منه، ولا أُجامل.

- المشورب: أنا أحبّ الشّعر منذ صغري، وكان لي من المحاولات الخجولة أيّام زمان، ولكنّ هموم الحياة أفقدتني كلّ شعور جميل، ولم يبق لي من همٍّ سوى تأمين لقمة الخبز، الأفواه الجائعة، البطون الخاوية، لا تنتظر حتّى يصير معك.

- أبو غليون: يعني ألا تتلقون مساعدات من المنظّمة أو الأونروا؟.

- المشورب: الأونروا جعلها اللهُ للهدم، منذ زمن طويل قطعت مساعداتها الغذائية، ونفضت يدها منّا، ومن قضيّتنا، أما المنظّمة فلها محاسيب هم مَنْ يأخذون حصّة الأسد من عطاءاتها، ومن هم من أمثالنا ليس لهم أيّ شيء، ولا أحد ينتبه إلينا، والله..!!، صرنا تائهين لا نعرف أين نقف..، وأين نحن ممّا يجري حولنا؟، و المنظّمة عندها تصنيف للشّعب الفلسطينيّ، فمن لم يكن معها فهو ضدّها، كأنّي أرى أنّ قضيّتنا آيلة للسّقوط، والثورة تعتبر فاشلة، و(***ثوار الأمس هم رجعيّوا اليوم***)، ما هذه الثورة؟، التي لها مئة قائد، ومئة فصيل، ومئة حزب، ومئة ممول، وآمِرٍ على قيادتها، فإذا لم تكن على قلب رجل واحد، وتنطبق قيادة الخارج مع الداخل، كما أن كل عشرة رجال عملوا منظمّة وحدهم، وأعلنوا أنّهم هم أحَقُّ بالقضيّة، أمّا غيرهم عملاء، أو بداية عملاء لجهة ما هي الّتي تمولهم،

وتفسح لهم المجال الإعلاميّ، بينما هم جميعًا يتلقُّون تمويلاتهم من الخارج، ويستغلّونها لمنافعهم الشخصيّة.

- أبو غليون، بدت على وجهه علامات الاندهاش مما سمع من كلام المشورب، وقال: أمعقول هذا الكلام يا أستاذ؟، كما أعلم أن الأمور بخير، الرّفاق المناضلون في المنظّمة يعملون ما بوسعهم من أجل القضيّة.

- المشورب: ليس هكذا كما تظنّ، هم فقاعات تطفو على السطح، لا خير فيهم، هذا رأيي.

ضربات خفيفة على الباب، قام المشورب لتناول إبريق الشّاي مع صينيّة الكاسات من يد زوجته، من فوره (أبو غليون) أخرج غليونه لأنه منذ بداية الجلسة لم يعمّر غليونه، العدوى أصابت الأستاذ عطاالله فتذكّر علبة سجائره، سَحَبَ منها لُفافة، ووضعها في فمه، بينما مدّ يده بأخرى للمشورب، بدأت سحب الدخان تعبق في أجواء الغرفة.

طالت الجلسة، تشعّب الحديث لمناحي عديدة، اسْتفاد (أبو غليون) منها الكثير و الكثير، وهو يدير الحوار باتّجاهات هو بحاجة إلى سَبْرِ كُنْهها، واتّضحت لديه معالم كثيرة. وعلى ضوء مشوار الطّريق برفقة الأستاذ عطاالله استطاع تقييم المشورب، فقد عرف الكثير من دقائق حياته، الآن اكتملت الدراسة في ذهنه، في اللّيل سيعمل على تفريغها على الورق، من أجل رفعها للجهات العليا في العاصمة.

فكلٌّ يُغنّي على ليلاه، والأفظع من ذلك كلّه، المخدوع، خاصّة إذا عاش ردحًا طويلًا من عمره مُضَلّلًا، ومن ينصب الأفخاخ لاصطياد عثرات الآخرين، يتخفّي تحت ستائر الصداقة و الجيرة، يتثعلبُ على كلّ من تطاله يده، يعمل بصمت هذه هي حال (أبو غليون)، فهو لا يهتمّ كثيرًا للعواطف، مطلوب منه شيء ما يجب عليه تنفيذه، وعليه أن يجتهد ليظهر بمظهر المخلّص لينال، و ينال رضا الأسياد هنا، ومن رضاهم يستمدُّ الترقّي في سُلّم وظيفته.

***

(١٧)

من جديد يعود مصطفى إلى غرفة المحقّق، أمام مُسْتَجَدّات ظهرت للمرّة الأولى، لا يدري عنها شيئًا، خاصّة بعد التفتيش الدّقيق لأغراضه في الحقيبة، ظهرت الخارطة، حاول إخفاء أمرها عند إلقاء القبض عليه، وفي الجولة الأولى من التحقيق.

يجلس المحقّق وراء طاولته، وخلفه تتربّع على الحائط صورة متوسّطة الحجم للرّئيس، ولوحة شعار الحزب على شكل دائري، وفي وسطها يد تحمل شعلة (***أمّة عربيّة واحدة – ذات رسالة خالدة، وحدة حريّة اشتراكيّة***)، لَمْبَةٌ تتدّلى من السّقف يعلوها ما يشبه الصّحن، لتجميع الضّوء، ويتركّز على الكرسيّ الذي أجلسُ عليه، بينما على الطاولة يأتيها الضوء شحيحًا، أقرب إلى العتمة في حالته، مما حجب انفعالات وجه المحقّق عنّي، فلم أستطيع رؤية وجهه بوضوح.

المحقّق يلبس معطفًا عسكريًّا أخضر اللّون، حاسر الرأس، شاربه يتدلى على جانبيّ فمه، بشرته ازدادت اسْمِرَارًا من خُفُوت الضوء، أوراق كثيرة، وملفات مُكوّمة أمامه على الطّاولة، علبة سجائره تحتّل زاوية مهمة بجانب المنفضة، و الولّاعة. بينما السيجارة ثابتة بين شفتيه يمجّ دخانها ينفثه في جوّ الغرفة المرعب.

ما إن أدخلني العسكريّ، من فوره غادر الغرفة بناء على حركة من رأس المحقق مترافقة مع رفع لحاجبيْه، حدّة الخوف انخفضت لديّ، وكأن الاعتياد على أمر يمحو رهبته من النّفس، هذا ما أخبر به مصطفى زوجته فيما بعد. المهمّ أنّه لا ضرب، ولا تعذيب جسديّ في هذه المرحلة خلاف الأولى.

- العسكري: حاضر سيّدي.

- المحقّق: إيه يا مصطفى، طالعتُ الأوراق التي كتبتَها، رغم أنّني أعطيتُك فرصة كافية؛ لتستريح وتكتبَ كلّ معلومة تجدها ناقصة.

- مصطفى: أشكرك.

- المحقّق: عندي إحساس أنّك أخفيت أشياء كثيرة، كنت أتمنّى أنّك لم تفعل ذلك، سأضطّر للنّزول إلى المستودع لاستخراج إضبارتك وكافّة المعلومات عنك بالتفاصيل الدّقيقة.

- مصطفى: سيّدي لم أترك شيئًا إلا كتبته هنا في الأوراق أمامك.

- المحقّق: أنا متأكّد من أنّك لم تكتب الحقيقة، حاولتَ تضليل مجرى التّحقيق، مما سيصّعب المهمّة عليّ وعليك، بِشَرفي كان في نيّتي مساعدتك قدر استطاعتي؛ لأنّني تعاطفتُ معك منذ أن رأيتك في المرّة الأولى، وأوصيتهم أن لا يضربوك.

- مصطفى: أكرّر شُكري، وأن أستطيع ردّ الجميل لك مستقبلًا.

- المحقّق: يبدو أنّك رجل محترم، سأطلب لك فنجان قهوة، وهذه علبة سجائري تحت تصرّفك. كلامه رسالة بعثت طمأنينة، جاءت برداً وسلامًا على قلب مصطفى، من كلمات المحقّق، فقد كان يتصوّر أنّ الأمر عسير جدًّا، وعليه مواجهته، وقد تهيّأ لذلك.

- مصطفى: أنا جاهز، إن شاء الله سأكون متعاونًا معك.

- المحقّق: لأرى..!!.

دُقّ باب الغرفة، دخل العسكريّ يحمل فنجان قهوة إلى مصطفى، تناول السّيجارة من يد المحقّق مع الولّاعة، أشعلها، وسحب نفسًا عميقًا لتعويض حرمان قاسٍ على مدار ثلاثة أيّام، أتبعها برشفة قهوة، تلمّظ عليها.

- تابع المحقّق: بخصوص سفرك ما بين تركيا وقُبرص، هناك ثغرات في كتابتك، عليك توضيحها. لم توضّح حالتك المادية.

- مصطفى: حالتي المادية متوسّطة، حيث أنّني كنتُ أعمل سابقًا في الكويت، وتركت العمل هناك، واستقرّت بي الأمور هنا في البلد فلّاحًا في أرض والدي.

- المحقّق: يعني الأرض لوالدك، وليست لك.

- مصطفى: نعم.

- المحقّق: منذ متى تركتَ الكويت؟.

- مصطفى: من ثلاث سنوات تقريبًا.

- المحقّق: وماذا كنت تعمل هناك.

- مصطفى: كنت أملك دكّاناً مع شريك لي، وانفصلنا بعد شراكتنا لثلاث سنوات، وأخذ هو الدكان بعد خلاصنا، وأخذت حصّتي، وغادرت الكويت إلى غير رجعة.

- المحقّق: أفهمُ أنّك سافرتَ لمدة ثلاث سنوات فقط.

- مصطفى: نعم.

- المحقّق: لم تخبرني، عن أمر هذه الورقة. وناولها لمصطفى، وراح يتأملها، اتّسعت حدقتاه، اكتسى وجهه مُجدّدًا بالحيرة، لاكتشاف أمرها. وماذا تقول فيها؟.

- مصطفى: إنّها ورقة قيّمة كنتُ أحملها مع باقي الأوراق الضروريّة في جيبي، نسيتُها، وسافرت، ولم ألق لها بالًا، ولا تعني لي شيئًا.

- المحقّق: يضحك بصوت عالٍ مملوءًا سخرية، ترتّجُ جنبات غرفة المكتب برجع الصّدى، ويضرب بِكَلْتَا يديْه على الطاولة، ويقول: يا مصطفى من البداية، قلتُ لك: الكذب لن ينفعك، هذه الورقة ليست عادية إنها خريطة كنز، بربّك أخبرني، كيف ستكون عاديّة؟، بهذا الشّكل أمورك ستكون من الصّعوبة لا يعلم بها إلا الله..!!، فأنت تعلم عقوبة من يعمل في التنقيب عن الكنوز في الخفاء عن الدّولة، ولم تتوفّق في إجابتك بأنّك كنت في سياحة، أرأيت تناقضات اعترافاتك؟.

كما أن هناك أمرًا لم تنبته له، أنّه من خلال دراستي لوضعك المادّي، فمن هم من أمثالك من الفلاحين، فالسياحة لا تعني لهم شيئًا، و لا يمكن أن يُفكروا بها؛ لأن عندهم من الأمور الهامة و الضروريّة في حياتهم، ما يجعلهم، لا يطرأ

على بالهم السّفر للعاصمة إلا للضرورة القصوى، فضلًا عن القيام برحلة سياحيّة تحتاج للأموال.

- مصطفى: بالفعل هي كذلك، ولكن ما العمل الآن؟، دخيلك يا سيادة المحقّق، أدفع عمري فداء لك، إذا ساعدتني للخروج من هذه الورطة، فإنّني أملك الآن عشرة آلاف مع أغراضي في الأمانات، هي لك من نفس خالصة.

- المحقّق: يا مصطفى، أنت تعرف أنّ هذه رشوة..!!، وهذه جريمة أخرى تقترفها، وهي وحدها كفيلة أن تُسجن عليها توقيف عُرفي من ثلاث إلى خمس سنوات.

- مصطفى: يا سيّدي، هي ليست رشوة بل هديّة منّي لك، والأمر سيبقى بيني وبينك، وإذا خرج الأمر عن إطارنا، فلك أن تفعل ما تريد وقتها.

- المحقّق: حسنًا، سأكتفي بأن يكون موضوعك سياحة فقط، وهذه الخريطة لن أكتب عنها شيئًا، لكن ذلك مرهون بقرار العميد رئيس الفرع.

تنتهي الجلسة عند هذه النّقطة، يأتي العسكريّ عند سماعة رنين جرس مكتب المحقّق؛ لاقتياد مصطفى إلى زنزانته المنفردة، المحقّق يتابع كتابة تقريره بصياغة جديدة مقنعة، لعرضها على رئيسه.

***

التّسارع في حدرة الحياة، سمة ربّما لا يحسّ بها الكثير، وإذا أقبلت الأيّام بحلوها على إنسان، ستعود بمُرّها عليه مرّات عديدة، وكأنّها أصرّت على امتحانه، فما بين مِنْحةٍ و مِحنةٍ حدّ رهيف يكاد لا يبين لمن لا يُنعِمَ النّظر جيّدًا، ويُعْمِل عقله.

كم من مِحْنةٍ كانت عطاء، ومِنْحَة، وجاءت بخير عميم، وإذا تحوّلتْ المِنْحة، وانقلبت إلى مِحْنَة، عندها يتساقط أمام وقعها أقوى الرجال ممّن لا يحتملونها، وقليل منهم من يمتلك القدرة على تجاوزها، أو التأقلم مع معطياتها.

مضى شهران على غرق ابنها فهد في البركة، و وقعُ المصيبة على أمّ مرعي والدته لم تخفّ حِدّتها، فدمعتها لم تجفّ، الأحزان تكالبت عليها من كلّ حدَب وصوْب، قلبها ضَعُفَ عن الاحتمال، فهي تكبُتُ آلامها في أعماق داخلها المُحطّم، تتماسك إلى أن جاءت لحظة وَهَنَ فيها القلب، كانت لحظة حاسمة، يتفتّت الصّخر الأصّم من هَوْلِها، وتنحني أعْتَى هامات الرّجال الأشدّاء أمامها، وضعت عائلتها على مفترق طرق، عندما توقّف قلب الأم المحزون المرهق، وكما يقال: (***ضربتان بالراس يوجعوا***)، للمرّة الأولى في تاريخ القرية، أن تعلن الحزن من كل ناسها، الذين أجمعوا بكلّ فئاتهم على الترحّم على أمّ مرعي بعدما فارقت الحياة، و التوجّع و التألّم لها، عندما تكالبت عليها المصائب بحدّة عجزت وحدها عن مواجهتها.

جاءت مصيبة خلافها مع المنحوس، لتضع حدًّا لحياتهما الزوجيّة، ويكون الانفصال هو الحلّ الذي كان، وهو الحلّ الذي لم تطلبه هي أبدًا، رغم ما لحق بها من أذى ودمار، لكنّه خيار زوجها، ثم تتطور الأمور لديه للقيام بطردها من البيت أوّلًا، ومن ثمّ بالتنازل عنه لأخيه بموجب عقد بيع بينهما، بذلك قضى على كلّ أمل عندها بالبقاء فيه، فكان عليها البحث عن بيت يُؤْويها مع أولادها، وفي حارة أخرى، وجدت بيتًا مكوّنًا من غرفتين مع منافعهما، بإيجار معقول لِتَساهُل مالِكِيه معها، تتكلّل مصيبتها بغرق ابنها، التي كانت السبب المباشر بوفاتها، و كانت بداية النهاية للاستقرار الذي حلمتْ به طويلاً للعائلة، فبذلت قُصارى جهدها ليكون ذلك، وما كان ليكون أبدًا، فكانت كبش الفداء لأولادها.

بعد طلاقها، لم تترك أيّ عمل إلا واشتغلته؛ لتكسب المال القليل من أجل إعالة أولادها، ومصاريفهم المُتزايدة يومًا بعد يوم، وفي العطلة الصيفيّة تتّجه بابنها الكبير للعمل في الحصاد معها.

دموع أبنائها، أحرقت قلوب أهل القرية عليهم، تألّموا عليهم، للمرّة الأولى بلا مُنازع، و لا خلاف حَظِيَتْ حالتهم بإجماع، وتعاطف الجّميع.

***

المحقّق هو يوم مُناوبته، متزامنٌ مع مناوبة العميد رئيس الفرع، وعليه إنجاز الأعمال المطلوبة منه، و تحضير عدد من الملفّات التي يباشر التّحقيق فيها من جديد، لتكوين فكرة عنها، فما إن ارتاح قليلاً بعد انتهائه من التّحقيق مع مصطفى بخصوص قضيّته، حتّى وضع خلاصة التّحقيق في تقرير مُفَصّل مُرفَق مع الخريطة، و فيه وضّح رأيه، صريحًا مَحبُوكًا بدقّة مُتناهية، بما لا يدع مجالًا للعميد من الاعتراض على أيّة نُقطة، في المساء تهيّأ للذهاب، و الجُلوس مع العميد، ليُطلِعَه على آخر ما توصّل إليه في جلسة التّحقيق.

دخل الحاجب على مكتب العميد، وأخبره بقدوم المُحقّق إليه، خرج الحاجب، وقال: انتظر قليلًا سيّدي، العميدُ مشغول فقط لمدّة عشر دقائق.

- المحقّق: هل عنده ضيوف؟.

- الحاجب: لا يا سيّدي، هو مشغول بمكالمة على الهاتف.

- المحقّق: يهزّ رأسه، ويُخرج من جيبه سيجارة، راح يسحب عليها بنفس عميق، ينمّ عن راحة مُرتسمة على وجهه، مَشُوبة بشيء من القلق، ويقول للحاجب: ها أنذا أتّمشى هنا عند الباب، أخبرني عندما ينتهي. يتمّشى ببطء شديد، ويعيد النظر في التقرير، بعد أن فتح الأوراق، وراح يتأمّلها مُدقّقًا على سلامة الكتابة خوفًا من ثغرات مكشوفة.

سحب آخر نفس من سيجارته، جاءه صوت الحاجب: تفضّل سيّدي، المعلّم بانتظارك.

- المحقّق: أشكرك. يقرع الباب.

- العميد، بصوته الأجشّ، مع نوبة سُعال ناتج عن التّدخين الكثير: تفضّل.

- المحقّق: احترامي سيّدي.

- العميد: يهزّ رأسه، وهو يطوي بعض الأوراق المتناثرة على سطح الطاولة من أمامه، يضعها في مجلّد البريد بعد إطلاّعه عليها، ومهرها بتوقيعه،

وتوجيهها لرؤساء الأقسام. رفع رأسه، و السّيجارة عالقة بفمه، ابتسم، وقال: أهلاً وسهلاً، تعال هنا اجلس هنا بجانبّي. هاتِ ما عندك.

- المحقق: أشكرك سيّدي. بخطوات متثاقلة وصل إلى جانب الطاولة حيث الكرسي، جلس، و فَرَدَ أوراقه أمامه، راح يُرتّبها حسب الأولويّة، خطّط أن يُطلع العميد بداية على الخريطة، لتشتيت تركيزه، وإلهائه بها، حسْبَ ما خطّط: تفضّل سيّدي، هذه الخريطة.

- العميد: ما هي قصتّها؟.

- المحقّق: هذه كانت مخبّأة مع المعتقل مصطفى، مع أوراقه الخاصّة وجدناها في الحقيبة، عندما واجهتُهُ بها من فوره لم ينكر صحّتها، وأبدى كلّ تجاوب معنا في التّحقيق، وأرى أنّها فاتحة خير لك، ووعدته بالمساعدة في الإفراج عنه بعد مُوافقتكَ؛ لأنّه أبدى استعداده للتّعاون معنا بخصوصها، وإرشادنا إلى مكانها في قرية أمّ الخنافس، وإنّني لم آتِ على ذكرها في التقرير، لأنّي شعرتُ أنّها ستكون مُفيدة لك، إذا استطعتَ الوصول إلى مكانها، وأنّ مُصطفى أكّد صحّتها مئة بالمئة.

- العميد: قُلتَ أمّ الخنافس؟. من فوره ذهب بذهنه إلى(أبو غليون)، رَجُلِه الموثوق هناك منذ فترة، يعمل على هذا الموضوع، عندما أرسله للتّأكد من حقيقة الكنز في القرية، والمعلومات التّي جمعها ما زالت ناقصة فيها حلقة مفقودة. وهذه الخريطة هي أتمّتْ المعلومة النّاقصة.

- المحقّق: نعم سيّدي، بحسب إفادته، و إذا أردت سأجْلِبَه لك حتّى تتأكّد منه بطريقتك.

- العميد، يهزّ رأسه، وهو يُقلّب أوراق تقويم المكتب أمامه على الطاولة، ووجّه كلامه للمحقّق: اليوم السّبت، في يوم السّبت القادم وبعد الاجتماع الصبّاحي، اجلبْ معك مصطفى، وأنا بانتظارك.

- المحقّق: حاضر سيّدي، أمرك على رأسي.

- العميد: سأصرف لك مكافأة ماليّة هذا الشهر، وإجازة فورية، وسأقترح لكَ كتاب شكر خاصّ لك، وكذلك لأحد زملائك، لأدائه المتميّز، وتفانيه في الخدمة. انصرفْ الآن، موعدنا صباح السّبت القادم.

***

زيارة (أبو غليون) إلى المشورب، برفقة الأستاذ عطاالله جاءت في الوقت المناسب؛ لأنّ حساباته دقيقة تستبق المواقف، فهو عارف بما يريد من أيّة كلمة يقولها، لإيصال رسالته للآخرين.

ما إن أغلق المحقّق باب المكتب، حتّى امتدّت يد العميد لجهاز الهاتف، وطلب مقسم قرية أمّ الخنافس؛ ليردَّ عليه صابر: أهلًا، وعليكم السّلام.

- العميد: من فضلك أوصلني مع بيت الشاعر (أبو غليون).

- صابر: حاضر سيّدي.

رنين جرس الهاتف في بيت (أبو غليون)، حينما رُفِعَت السّماعة.

- صابر يقول له: تفضل معك الشّام يا أستاذ، وراح يتنَصّت على المكالمة، فجاء كلامها مَقتضبَا جِدًّا لم يفهم مآل ما قيل فيها، سوى طلب الذّهاب للعاصمة.

- العميد: سلام أستاذ كيفك.

- أبو غليون: أهلًا سيّدنا، كيفك أنت.

- العميد: شو أخبار الشّعر، وما هي آخر إبداعاتك.

- أبو غليون، يضحك بصوت مسموع للطّرف الآخر، والله سيّدنا الأمور تمام، وتسرّ الخاطر، والعيش هنا في أمّ الخنافس رائع.

- العميد: (عاوْزينك) أستاذ هنا، إذا سمحت غدًا تأتينا.

- أبو غليون: حاضر سيّدنا، هل توصينا بشيء من هنا؟.

- العميد: أشكرك، لا أريد شيئًا، سوى حضورك العاجل.

صابر سمع المكالمة بأكملها، أعاد تحليل ما سمع، لم يتوصّل إلى نتيجة، بقي الأمر يحتّل زاوية من تفكيره، إلى أن انتهى من نوبة دَوامِه، ذهب إلى البيت، خلع ملابسه، وتمدّد قليلًا، بينما نعمات جهزّت طعام الغداء على عَجَلٍ. راحا يتجاذبان أطراف الحديث، قصَّ عليها حكاية اليوم عن الاتصال مع (أبو غليون)، وأعرب لها عن فَشَلِه في استجلاء حقيقة الموقف.

حَكَتْ نعمات له ما سمعت من زوجة الأستاذ عطاالله، حينما التقتا في بيت فاطمة بطريق الصّدفة، عندما شرحت - زوجة الأستاذ عطاالله- عن الاهتمام الزّائد من(أبوغليون)، بالسّعي للتعرّف على المشورب، ومحاولته معرفة دقائق الأخبار عنه، وهو يتساءل عن أشياء كثيرة يريد سماعها من الأستاذ، أثناء طريقهما إلى زيارة المشورب، و ما حَدَثَ في اللّقاء الأوّل عندما دخلا بيته، البداية كانت بتقديم ديوانه الشعري للمشورب، والخوض في أحاديث شتّى طالتْ جوانب كثيرة، سياسيّة وغير ذلك.

***

التأم شمل شِلّة الأولاد من جديد، بعد أن تهيّؤوا لِمُهمّة جديدة، فهموا من كلام ماجد أنّها أقوى مهمّة سيقومون بها على الإطلاق في تاريخ شَيْطَنَتَهُم، في زاوية على طرف السّاحة هناك انتظروا لاكتمال نصابهم.

- ماجد: مُؤَكّدٌ أنّكم تهيّأتُم بشكل جيّد، من الممكن أن يطول بنا الوقت إنها ليلة ليلاء، بداية يجب أن نعرف مكان النّمس، و نتأكّد منه.

- أنيس: قد حسبنا حسابنا، لا تقلق.

- محمود: اليوم سنقول بملء أفواهنا، لِنُسمع قريتنا: (***سجّل عندك يا تاريخ***)، فلنمض على بركة الله.

تقرّر أن يتفرّقوا، ويذهب كلّ منهم في طريق مختلف عن الآخر، حَدّدُوا خُطة بحثهم، وخلال نصف ساعة عليهم العودة لنفس المكان، للالتقاء لتبادل المعلومات المُتَجَمّعة لديهم.

ما إن انقضى نصف الوقت المقرّر حتّى التأم شملهم من جديد، حينما وجدوا ضالتهم في النّمس، وهو خارجٌ من المفرزة، يمشي وخلفه رامز يتبعه بخطوات بطيئة، فما إن غاب النّمس مُنْعَطِفاً في طريق فرعية حتى رجع رامز إلى غرفة مكتبه، النّمس يتلفّتُ حوله، هكذا بدا تحت الضوء المُنْبعث من عمود الكهرباء أمام المفرزة، وفي بداية المُنْعطف، كان القلق بادٍ على خطواته المُتَسَرِّعة، هناك وقف هنيهة أمام باب بيت شمسة، تنحنح بصوت مسموع، من جديد عَايَن المكان حوله بنظرات مرْعُوبة، مثل لِصٍّ يتفحّص فريسته للإجهاز عليها، اطمأن أن لا أحد يراه، فتحت شمسة الباب، و أطلّت برأسها، أشار لها بيده علامة تجهيز نفسها إلى أن يأتيها رامز ليأخذها معه، هزّت برأسها، تابع سيْره بخطوات مديدة إلى بيته، ثلاثّي الشياطين يُتابِعه بخفّة حَذِرَةٍ، أقرب إلى أن يكونوا ظلّه الذي لا يفارقه، ولا ينتبه لوجوده أو عدمه.

على غير عادته عندما يدخل إلى بيته يغلق الباب مباشرة خلفه، هذه المرّة ترك بوابته نصف مفتوحة، من فوره قصد غرفته التي ينام بها، ما هي إلا لحظات إلا و خرج حاملاً بارودة (الجِفْت)، صعد إلى السّطح حيث عريشته مقرّه الصيفيّ، تقرّر لدى الثلاثّي التسلّل إلى داخل البيت باطمئنان، وفي الثلجة الكبيرة قبل شهرين ضربت العاصفة جانبًا من سور بيته على الجانب الآخر المقابل للطّريق، وإذا اضطّروا، فإن الخروج من الباب الرئيسة سهل عليهم أيضًا. تفرّقوا في زوايا متباعدة في حديقة المنزل، أحدهم صعد على شجرة زيتون تجاور شبابيك الغُرَف، بإطلالة يسهل منها المراقبة بوضوح.

***

فتح حارس السّجن الكُوّة الصغيرة في باب الزّنزانة، صوت المزلاج أنبأ مصطفى من غَفوته في الصّباح الباكر، صرير الباب أثار شهيّة الحياة في دوحة الصّمت الباردة، فأزاح ستار النوم عن العيون المتعبة في الزنازين المجاورة، و بثّ التحفّز في الأعصاب المرهقة، وهي تعاني طوال ليلها الخروج من دوّامة التفكير الملتبس بالخوف من القادم غير المعلوم لدى سكان هذه القبور.

حاجبُ المحقّق جاء بالخبر إلى الحارس، بناء على أمر المحقّق الذي لم ينَمْ ليلته تلك، وهو يبني قصورًا من الأحلام، والفرح يدغده في داخله؛ عندما اسْتطاع بسهولة ويُسْر صرف نظر العميد إلى قضيّة أخرى، بعيدة عن قضية مصطفى، و التّهمة التي كان من الممكن أن تُودي بحياته، بداية من العمالة، و التخابر مع جهات أجنبيّة للإضرار بأمن البلد، أو تهمة البحث عن الكنوز، كلّ منهما أخطر من الأخرى. عشرة آلاف ليرة بالنسبة إليه تعادل راتبه لسنتيْن تقريبًا، قضيّة مصطفى هي الأبرز في حياته الوظيفيّة.

- الحارس، يطلّ برأسه لتصطدم نظراته بمصطفى واقفًا متسمّرًا خلف الباب، بانتظار المجهول الآتي: كم رقمك؟.

- مصطفى: لم آخذ رقمًا لحدّ الآن.

- الحارس: جهّز نفسك بعد ساعة ونصف، أنت على موعد مع المحقّق، لمتابعة التّحقيق.

- مصطفى: بالله عليك، أنجدني بسيجارة (خَرْمَان) عليها منذ يومين لم أحظ بواحدة، حكّةٌ في جسمي، وتلهّفٌ لها يسري في عروقي، ويجري مع دمي.

- الحارس: من أين أنت؟.

- مصطفى: من قرية أمّ الخنافس.

- الحارس: أهلاً وسهلًا يا بن البلد، أنا في خدمتك عند مناوبتي، فأيّ شيء تحتاجه، فقط أُطْرق على الباب.

سكنتْ نفس مصطفى؛ لهذا الودّ غير المعهود من حارس في مثل هذا المكان، لم يتشجّع بسؤاله عن أي شيء لعدم إحراجه، وكلمة ابن البلد، رنّتْ في أذنيْه بهدوء نفسيّ عجيب، سكبت في قلبه سيلًا من الطمأنينة، جعلته متفائلًا بوجه ذلك الحارس صباح هذا اليوم، رغم أنّه ما من شيء هنا، يبعث على التفاؤل أبدًا، موت بطيء ينهش الأجساد، و كالسّوس ينخر الخشب، فيتآكل على المدى البعيد، هذه لحظة غريبة شاردة من سياقها، سيطرت على مصطفى، مُستشعرًا أنّ فكرة الخروج قريبة جداً قاب قوسين أو أدنى؛ بمجرّد مقابلة العميد، ولم يستطع أن يُحدّد مصدر هذا الشّعور الغريب، إلا من بقايا إحساس مُشوّش الرؤية بغموض المصير.

خطوات الحارس المنتظمة تقرع سمعه، تشقّ صمت السّكون، برجوعه، مُبتعدًا عن زنزانة مصطفى، في طريقه جيئة وذهابًا، بينما أشعل له السيجارة قبل ذهابه، سُحُب الدخان لا أثر لها في عتمة المكان، وانعدام مشاهدتها، بينما رائحتها نشّطتْ ذاكرة مصطفى السّابحة بعيدًا في لُجّة العمر.

يا إلهي..!!، ما هذه المصيبة التي وقعت عليّ؟، كأنّ أثقال العالم كلّها جثمت فوق رأسي، لا أدري ما هي حال أهلي و أولادي؟، لكنّهم على أيّ حال لا يعلمون عنّي شيئًا، سوى أنني مسافر خارج القطر، ليت فُلوسي تكون قد نفعتني، وتعيد ترتيب الأمور للخروج من هذه الورطة، عندي إحساس، أن المحقق بذل أقصى جهوده من أجلي، لكنّي لا أدري ما حصل بينه وبين العميد، هنا مربط الفرس، وهو الآمر النهائيّ لإخلاء سبيلي. يُردّد مصطفى فيما بينه وبين نفسه.

***

(١٨)

أضيئت الغرفة، الضوء انبعث من النافذة عبر فُرجَة واسعة قصور السّتارة عن حجمها الطبيعي عَجِزَ عن تغطيها؛ فأفسحت المجال في جانب النافذة، لفريق ماجد أن يُراقبوا بسهولة ووضوح من غير بذل جهد في ذلك، وعلى غير إرادة منهم، ولكن بِعِنَاد السّتارة و قُصورها؛ ليُشاهدوا كلّ شيء بأمّ أعيُنهم بحريّة تامّة بلا حواجز، الشّجرة مثّلتْ دورها كَمنصّة مُشرفة، من على قمّة عالية على ما هو قُبالتها، فاللّيل ستّار العُيوب، هذه اللّيلة مختلفة بشذوذها عن القاعدة، ففي وجود الثلاثيّ ماجد يكون السرُّ قد شاع، وافْتُضِح السّتر، وانقلبت النتيجة إلى غير مُشْتَهى رامز وشمسة، رغم أنف النّمس وحِيَلَه، و هَبُوب الرّياح تأتي بما لا تشتهي السُفُنُ.

النّمس مُرابطٌ عند البوابة الخارجيّة المطلّة على الطّريق، يبدو التبرّم عليه، يروح جيئة وذهابًا، التوتّر ظاهر في حركاته، قلق بادٍ على قسمات وجهه، عندما يصبح تحت (لمبة) الضّوء في الممرّ، بارودته(الجِفْت) استخرجها من مخبئها تحت فرشات الصّوف المطويّة بانتظام في زاوية الغرفة، أخيرًا صعد إلى السّطح عبر الدّرج الحجري المؤدي إليه، السّاعة اقتربت من تطابق العقارب.

ينظر إلى ساعة يده، يُطلق نفَسًا عميقًا مصحوبًا بآآآآهٍ طويلة، يَلوبُ بلا فائدة، وهو مستنفر، كحارس ليليّ على ثغر من الحدود قُبالة العدوّ، مُتيّقظ لدرجة قُصوى من سطوة الخوف المُسيطر عليه، فإن غفتْ عيناه، ربّما اقتنص العدوّ تلك اللحظة، وتسلّل، فيكون قد خان وطنه، والنّمس قبض الثّمن مُقدّمًا، والآن

عليه الدّفع بقيمة أعلى بكثير مما قبض، مخاطرة أقدَمَ عليها، ربّما تورّط في فضيحة، الله وحده يعلم نتائجها المستقبليّة.

فمن كان ينتظر مثل هذا المَأزِق، حشرجة أنفاسه الحرّى، مسموعة لعدّة أمتار في هدأة الصّمت هذه، إلاّ من صوت فرار طائر مستقرّ في عُشه على الأشجار المحيطة بالبيت، أو عرير ابن وردان(صرصور الليل) صفيره يشقّ عُباب الظلام، وكأنّه يعلن نوم الكون من حوله، وهو الوحيد المتيّقظ فقط.

يتلألأ انعكاس الضوء على صلعة النّمس، كسرابٍ في حرٍّ الهَجيرة تراهُ كطوفانٍ قادمٍ داهمٍ، العصا بيده، يضرب بها الحائط بِنَفْرَزَة عصبيّة.

الظلام يلفّ محيط البيت، والثلاثيّ ينصبُ كمائنه لاقتناص لحظة السّبق في اكتشاف القادم المجهول لهم، هم طفوليّون بالفطرة بتصرفاتهم بإصرار عجيب، وكأنّهم أخذوا على عاتقهم مهمة كشف المستور، وفضح الكذب، والزيف المُتخفّي خلف الأقنعة، منذ الكذبة الأولى التي اكتشفوها حادثة الضّبع، عندما زعم النّمس أنّه قتله.

سجّل عندك يا تاريخ، آخر كلام تداولوه فيما بينهم، وهم يضعون أكفّهم مُجتمعة على بعضها، علامة للتحدّي، بذكائهم الفطري المميّز عن أقرانهم، وانْقيادًا لملاحظات وتعليمات ماجد.

***

لم يَطُل الأمر كثيرًا، فساعات الانتظار هي الأطول، و الأبطأ في دنيا الانتظار، خاصّة بعد جلسة التّحقيق، وتلقّيه وعدًا من المحقّق بالمساعدة، والسعي لاقناع العميد، كلّ دقيقة مرّت على مصطفى كأنّها دهر، أسبوع كامل من السبت إلى السبت، كان حافلاً بالمعاناة، التي لا توصف لسجين جديد مثل مصطفى. رطوبة الزنزانة، برّدتْ قليلاً من غلوائي، ظلامها ابتلع حياة ممّن أقام فيها من قَبْلِي، وخرج منها إلى المستشفى أو القبر، هنا مدفن الحريّة، ومقبرة الآمال و الأحلام، مأوى الرّعب الأبديّ في صفحات الظلم، والحكم الجبريّ في ظروف الطوارئ، و الأحكام العرفية، لا أدري على وجه الدّقّة، كم

احتوتْ على معتقلين سَبَقُوني إليها، موتٌ مُحَقّق بلا مواربة، رغم بصيص الأمل عندهم في عفوٍ أو إفراج، وانخفاض نسبته لدى البعض، إلا أنَهم على قيد الحياة بأنْفَاسٍ بطيئة التدفق، كَبُطْءِ مرور الأيّام في رحاب ظلام زنزانتي هذه.

صرير مزلاج الباب العلويّ للقبو، كَسَرَ رتابة الصمْت الموحش، نبّهني إلى قادم جديد، شنّفتُ أذنيّ، وأرهفتُ سمعي لما سَيُقال، خطوات العسكريّ تنزل الأدراج، عَدَدتُها إلى بلغتُ بالعَدِّ إلى الخامس و العشرين، قرعُ خُطوات البسطار على أرضيّة المهجع، تقترب منّي رويدًا رويدًا، ربّما أنا، هاجسٌ دغدغ مشاعري، تحرّكت الدِّماء في عروقي من جديد، بثّتْ حرارة مفاجئة في أوصالي، فتبخّرتْ الرُّطوبة بفعلها، و تذكّرتُ أنّ اليوم هو السبت، وجلستي الأولى مع المحقق كانت في السبت الماضي.

فراغ قاتل، موحش في بيدائه، يستجرّ حديث النّفس المُطوَّل عند مصطفى، وأحيانًا تخرج كلمات هامسة بحروفها، يسمعها بأذنيْه عن غير قصد، فيتنبّه، إلى أنّ له لسانًا ما زال قادرًا على الكلام، بحديث مُغْرَقٍ في تفاصيل التفاصيل، واستجرار تداعيات شريط ذكريات منسيّة، غائبة عن ساحة شعوره منذ زمان بعيد، لولا الفراغ لما استطاع تذكر شيء منها، لعدم اهتمامه، الفراغ عزلة ذات فضيلة ترمي للتوقّف أمام مرآة الذّات لكن في غير هذا المكان القذر، وتابع: شكرًا لك أيّتها الزنزانة الحقيرة القميئة، عندما أجبرتِنِي؛ بإتاحة فُرصة الجُلوس إلى ذاتي.

- الحارس: أنت مصطفى؟.

- نعم سيّدي، أنا مصطفى.

فتح الحارس باب الزنزانة من الخارج، وأمَرَ مصطفى بمدّ يديه ليضع القيْدَ فيهما، وتكبيلهما خلف ظهره، وألبسه (الطمّاشة) على عينيْه، واقتاده في الممرّ.

يتذكر مصطفى، ويقول: إنّني قمتُ باحتساب خطواتي من زنزانتي إلى بداية رأس الدّرج؛ فبلغتُ سُتّون خطوة، ثم صعدت الدّرج للأعلى، حتّى صرتُ على وجه الأرض، عندما أصبحت في الممرّ الطويل، أوقفني الحارس ووجهي

للحائط رغم أن (الطمّاشة) على عينَيّ، وأمرني بعدم التحرّك، و الثّبات حتّى عودته.

طرق الباب ودخل، بعد دقيقة عاد، وأمرني بالسّير معه، وهو ممسك بذراعي، بعد الباب بخطوات قليلة توقفتُ بجانبه، امتدّتْ يده، نُزِعَت (الطمّاشة) عن عينيّ، وفكّ الكلبشة (القَيْد) من يديّ، وغادر، لأواجه المحقّق جالسًا خلف طاولته. هُيُولَى دخان سجائره المتعاقبة، شكّلت سحابة حول رأسه، وهو مُنهمك بمطالعة أوراق أمامه، مُنشغل، لم يلتفت إليّ إلا بعد قرابة العشر دقائق، هواجسي تنهش قلبي، تكهنّات غامضة بما أنا قادم عليه، ولا أدري، كيف سيكون الحلّ؟، أفكاري تُشرِّق وتُغرّبُ، تذهب بعيدًا في احتمالات سيّئة جدًّا، أحرّك يديّ بحريّة تامّة، عيناي تجوبان تفاصيل غرفة المكتب.

رفع رأسه بتمهّلٍ، وهو يَمُجّ نفسًا عميقًا من سيجارته، وما تزال عيناه على الأوراق يعتصرهما، كأنّما أغشيت عليه الكتابة. وقال: ها يا مصطفى، شو صار معك؟.

- مصطفى: لم يحصل أيّ جديد، ما زلت على حالي بانتظارك.

المحقّق: إحمدْ ربّك أنّ العميد اقتنع ببراءتك، الأمر لا يتعدّى إلا رؤيتك، بانتظار قراره الأخير، اجلسْ على الكرسيّ خلفك، حتّى أنْتَهِي مما بين يديّ، لن نتأخر.

- مصطفى: على رِسْلِك.

***

ضربتان بالرأس موجعتان بكلّ تأكيد، عائلة عبد الودود، الملقّب بالمنحوس، القليل من أهل القرية من يعرف اسمه الحقيقيّ، كانت عائلة مستقرّة، مستورة بين جدران بيته، لا يُعرف عنهم إلا كلّ خير، لمّا طاف الكيل، وبرزت خلافاتهم للسّطح، صاروا حديث الأقارب أولًا ثمّ الجيران، أمّ مرعي عانت

كثيرًا، وصبرت صبر أيّوب، إلى أن جاء يوم طرْدِها، وأولادها من البيت، انْسدّت كلّ الطّرق لانعاش حياتهما الزوجيّة المُحْتَضَرَة، وآلتْ الأمور بطلاقها، فوقع عليها وحدها عبءُ الأولاد، إلى أن جاءت القشّة التي قصمت ظهر البعير، بغرق ابنها في البركة، ونكاية بها، اشتكى عليها زوجها أمام المحكمة، مُتهمًّا إيّاها بالإهمال والتقصير في تربية أولادها، أكوام الضغوطات الهائلة، تكلّلت بالحكم الصّادر عن القاضي، بمعاقبتها بالحبس لمدة سنة كاملة بسبب الإهمال، تراكمات متتالية، قلبها لم يحتمل ذلك، فتوقف في لحظة فارقة في حياة أولادها، وهم في قمّة الحاجة إلى وجودها، تفكّكت الأسرة، و تشظّت العواطف، لتتطاير حقدًا دفينًا في نفوس الأبناء على والدهم، وهم يُدرِكون أنّه هو السبب الرئيسي في تعاستهم ومآسيهم، وانْسداد الأفق في وجوههم، عيونهم تتطلّع إلى لا شيء، قطار مستقبلهم توقّف في منتصف الطريق، كبيرهم مرعي عصبيّ المزاج، لا يتوقف عن التأثير على عقول إخوانه، وتعبئتهم في طريق مناهض لأبيهم، وتمرّدهم عليه.

***

بعد انتهاء المحقّق من مطالعة ما أمامه من الأوراق، رتّب قسمًا منها، ووضعها في مُصَنّف أسود، وقف أمام مرآة صغيرة معلقة على الحائط بمسمار، رتّب ياقة قميصه العسكريّ الكاكيّ، تناول المشط لتصفيف شعره، نظر إلى حذائه ليتأكّد من نظافته، لكنّه تناول قطعة قماش، بلّلها بقليل من بقايا ماء في كأس مسح بها الغبار المُتراكم على سطحه؛ لتظهر لَمْعَته.

- المحقّق: ليكنِ معلوم لديك، أنّ المعلّم سيسألك عن الخارطة، وعليك أن تنكر معرفتِكَ بها قوْلًا واحدًا.

- مصطفى: حاضر سيدي.

- المحقّق: وسيسألك أيضًا عن موضوع سفرك، فقولك يجب أن يتطابق مع ما هو مكتوب بمحضر التّحقيق، أنّك ذهبت للسّياحة، ولا غير ذلك، مهما ألحّ عليك بالأسئلة؛ لأنّ أي تغيير بالإجابات سترجع إلى زنزانتك، ولن ترى أولادك مرّة أخرى، والتهمة الأخرى جاهزة، ولا يلزمها أيّ إثبات، ولا ينفع معها الإنكار.

- مصطفى: حاضر سيدي.

- المحقّق: وكل ما سيُطلب منك، عليك أن تكون إيجابيًّا، بالنسبة لي أنا عملتُ ما هو مطلوب مني تِجَاهكَ، وعليك أنت الآن بمساعدة نفسك، لتخرَج سالمًا إلى بيتك.

- مصطفى: تكرم عُيونك، ولن أنسى لك هذه الخدمة مدى حياتي، وسيكون لك ما طلبت، المهمّ أن أخرج من هنا، حتّى لو كان (***على دين حَنَّا***)، المُهمّ أن أخلص مما أنا فيه.

سار المحقّق، ويتبعه مصطفى، في نهاية الممرّ الطّويل الأنيق بنظافته، حاجز من الألمنيوم، والزجاج يفتح على صالة صغيرة، جرس على البوابة، ضغط عليه المحقّق، انتظر لحظات، فما إن أطلّ الحاجب برأسه، حتّى بادره المحقّق: لنا موعد مع المعلّم الآن.

- الحاجب: لحظة لأعطيه خبرًا. بعد خمس دقائق، أطلّ برأسه ثانية، وفتح الباب، وقال: تفضّلُوا، المعلّم بانتظارك.

يروي مصطفى قصّته كلّها إلى أن يصل إلى هذا المكتب الباهر الأنيق الفخم، السّتائر تغطي بالجدران جميعًا، في الواجهة يجلس العميد خلف طاولة خشبيّة رائعة، لم أر مثلها في حياتي، رجل خمسينيّ بوجهه الأبيض الملامح، كثّ الشّوارب، مختلطة السّواد بشعيرات بيضاء. أدّى المحقّق التحيّة العسكريّة له، وقف خلف طاولته، ومدّ يده للمصافحة، والبِشْرُ يعلو وجهه، أشار للمحقّق أن يجلس، وبعد أن صافحني، قال أهلًا بك يا مصطفى، تفضّل اجلسْ.

وتابع قوله: ماذا تشربون؟.

واصبعه تكبس على الجرس، حضر الحاجب. شوف الشّباب شو طلبهم؟.

- مصطفى: ما هي إلا عشر دقائق حتّى حضرت فناجين القهوة، و ناولني سيجارة (مارلبورو) من علبته بعد أن أشعل سيجارته، ناولني الولّاعة، وقال تفضّل. انفرجت أساريري، ارتياح داخليّ غمرني بطمأنينة عجيبة سكبت السّكينة بَرْدًا، وسلامًا على قلبي، استبشرتُ خيرًا، خِلْتُ نفسي في بيتي بين أهلي وأولادي.

- العميد: يا مصطفى، من أين أنت بالضّبط؟.

- مصطفى: أنا من قرية أمّ الخنافس.

- العميد: يُحكى أنّ قريتكم مليئة بالكنوز، وهل هي حقيقة مؤكّدة، أمْ أنّها مجرّد حكايا موروثة؟.

- مصطفى: سيّدي هي مؤكّدة لكّنها مرصودة، ويقولون أنّه رصد يهوديّ، يحتاج لقدرات مختلفة للسيطرة عليه، من أجل استخراج الكنز.

- العميد: هل لك خبرة بمثل هذه الأشياء؟.

- مصطفى: و الله، أنا فلّاح ابن فلّاح، لكنّ الأمر لا يخلو من خبرة بسيطة، اكتسبتُها من سوالف، و حكايا الناس في القرية.

- العميد: عندي خارطة للكنز الموجود في قريتكم، أريد منك أن تحدّد لي الموقع بالضبط. مدّ يده ناولني الورقة.

- مصطفى تأمّلَ الورقة، وبدتْ ملامح الدّهشة على وجهه، وكأنّه للمرّة الأولى في حياته يرى مثل هذه الخارطة. وقال: نعم سيّدي..!!، هي تشير إلى قريتنا، وهذا المكان معلوم، أستطيع أن أحدّدهُ لك بالضبط على الأرض، وتحديد العلامات الدّالة.

- العميد، سرور بدا على وجهه من حركات مصطفى، وقال: ستكون دليلنا إلى الموقع، لكنّ هذا الموضوع سريٌّ للغاية، وسيبقى بيننا، ولن يعلم به أحد خارج هذه الجلسة، مهما كانت صفته، أمعلومٌ هذا يا مصطفى؟.

- مصطفى: معلوم سيّدي، أنا في خدمة شواربك، في أيّ زمان وأيّ مكان.

المحقّق جالس يرتشف قهوته، ويستمع بإمعان للحديث، ويده قابضة على مُصنّف الأوراق؛ كي يعرضه على العميد بعد انتهائه من الكلام مع مصطفى.

- العميد: سيادة المحقّق، هات أوراقكَ لأرى، ولماذا أنتم تحتجزون مصطفى عندكم؟، هل من داعٍ لذلك؟.

- المحقّق: سيّدي، بصراحة، إنّ مصطفى جاء إلينا بطريق الخطأ، أثناء عودته من لبنان، وهناك اشتبَهَت به مفرزة الحدود، فأرسلوه إلينا للتأكّد، فكما تعلم فإنّ الأسماء كثيرًا ما تتشابه، وبعد أن تأكدنا منه، ولم يثبت عليه أيّ شيء مُخالف، ها أنا أحضرته إليك، بانتظار أمرك، سيّدي.

- العميد: هاتِ إضبارته. ووقّعَ عليها، آذِنًا بالإفراج، وقال: مُباركٌ عليك يا مصطفى، بإمكانك الآن أن تتوجّه إلى بيتك بكلّ أمان، ولن يعترضك أحد، وهذه بطاقة عليها اسْمي، ورقمي الخاص، وإذا احتجتَ لأيّ شيء فلن نقصر في مساعدتك.

- مصطفى: ربّي يُطوّل بعمرك يا سيّدنا، وأنا خَدّامك مدى الحياة، وأتوجّه إليكم بدعوة أن تُشرّفونا في قريتنا على غداء.

العميد: لا تتعجّل يا مصطفى، الأيّام قادمة، وسنرى..!!.

***

صابر مُناوب على المقسم ليلًا، يرنّ جرس المقسم، ينتبه من غفوته، يفركُ عينيْه؛ للتأكّد من مصدر الجرس، السّاعة تشير للثانية عشرة، ففي العادة بعد العاشرة، تتوقّف طلبات أهل القرية الداخليّة و الخارجيّة إلا للضرورة القصوى، حيث لا يتجاوز عدد الأهالي الذين يملكون الهواتف في بيوتهم الخمسين شخصًا.

أوه..!!، جرس خارجيّ، صابر قال لنفسه. يضع (الفيش) في المَقْبَس، وتابع: أهلًا، وعليكم السّلام، تكرم سيّدي، خلّيك معي على الخطّ، حتّى أرنّ عليه.

ثلاث رنّات، والرابعة، جاء صوت(أبو غليون)، بعد التحيّة، أخبره صابر عن المكالمة الخارجية. أوصلهما ببعضهما، وبحذر شديد، راح يتنصّتُ باهتمام بالغ، قضى على آخر الوَسَن في مقلتيْه.

- أبو غليون: أهلًا بك سيّدي.

- العميد: أستاذ عليك القُدوم إلينا غدًا، أو بعد غد على أكثر تعديل.

- أبو غليون: حاضر، تأمر على رأسي.

انتهت المكالمة كانت قصيرة جدًا لم تَتَعَدّ الدقيقتين. فصل المكالمة، قام صابر من فوره إلى الحمّام، شعور بالراحة تسرّب إليه بعد خروجه، تاقَتْ نفسه لفنجان قهوته الليليّ المُعتاد، شغّل سخّانة الكهرباء، ووضع الدَلّة عليها، إلى أن سمع هيَجَان الماء بالغليان، سحب الفِيش من مقبس الكهرباء، تناول علبة زجاجيّة فيها مسحوق البُنّ، رائحة قهوته فتحت شهيّتَه على السّهر من جديد، اجتاحته رغبة مفاجئة، تمنّى لو أنّ نعمات زوجته تكون بين يديْه في هذه اللّحظة؛ المُفعمة بشهوة عارمة، ورغبة في لقاء حميميّ، وهو يتلمَّظُ على أوّل رشفة من فنجانه، كأنّها قُبلةٌ حارّة جاءت على عجلٍ، أو استراق في غفلة من الآخرين.

هدوء الليل مُغرٍ للتأمّل والتفكّر، جاء صوتُ أم كلثوم من إذاعة (صوت العرب)، هذا موعدها الثّابت في مثل هذه السّاعة، ينتظره السّاهرون، سرحتْ به الذّكريات، لتناول شريط ذكرياته، منذ اللّحظة الأولى، التي رأى فيها زوجته نعمات، عند عودتها من المدرسة بعد الظّهر، أثناء جلوسه مع صديقه أمام المركز، ومرور الطالبات إجباريّ من أمامه، فالمدرسة على نفس المسار من الشّارع، وليست ببعيد من موقع المركز. كانت يومها نعمات تدرسُ في الصفِّ التّاسع، متوردّة الوجه المُشرّب بالحمرة، تميل بشرتُها إلى البياض قليلًا، وعيناها النّجلاوان العسليّتان، توقّف قلبه عندها دونَ البنات، فهي ابنة لابن عمّ أبيه، فما كان منه بعد انتهاء الدّوام، ولا سيّما أن والدته تبحث له عن عروس،

إلى أن أخبرها بأنّه وجد ضالّته عند ابن عمّ أبيه. لم يتّسع قلب الأم للفرحة المفاجئة؛ إلا حينما باركت ما سمعت من طلبه، بزغرودة عجّت في أجواء الحارَة، عانقت أسماع الجيران.

***

وَقْعُ خطوات بطيئة حذِرَة، تقتربُ رويدًا رويدًا، الثلاثيّ يُشَنّف آذانه، ويرهفون أسماعهم، لسماع حتّى الهمسات.

يقف النّمس ممشوق القامة، أمام باب داره، وهو يشير لهما (رامز و شمسة) بيده بسرعة الدّخول، دَخَلَا، من فوره أغلق الباب، وأحكم إغلاقه، وسار أمامهما بخطوات سريعة، رامز برفقة شخص آخر مجهول الهويّة، يلبسُ السِّرْوال البلديّ والحطّة و العقال، ومُتَلثِّم، عيون فريق ماجد مفتوحة على اتّساعها، وكأنّها (كاميرات) تتسابق على التقاط لقطة مميّزة ومثيرة.

رامز مدّ يده، فخلع العقال، و الحطة، لِتُسْفِر عن الوجه الحقيقيّ المتخفّي، يا أله..!!، إنّها شمسة..!!، هذا ما نطق به ماجد، وهو يضع يده على فمه، خوفًا من أن يصدر عنه أيّ صوت، للمحافظة على موقعهم في متابعة حدث المَوْسم، من جديد راح يُردّد: سجّل عندك يا تاريخ. فُرْجَة السّتارة حاسرة بقصرها جُزءًا من النّافذة، كأنّها شاشة تلفزيونيّة ذات عَرْضٍ مُباشر من موقع الحدَث. محمود كامنٌ على شجرة تبعد عدّة أمتار عن مكان ماجد، نزل من على شجرته بمغامرة عجيبة، وهو يمشي على رؤوس أصابع قدميْه، بحذر شديد مُبالَغٌ فيه، الحيطَة والحَذَر بفطرتهم، هكذا دون تدريب مسبق، إحساسهم المُرهَف بالأشياء؛ جعل منهم مغامرين مقامرين، هواة أشقياء، لا أهداف لهم من وراء أفعالهم، لا يحسبون أيّ حَسابٍ للمخاطر، ولا وجود لها في قاموسهم أبدًا، أبسط ما يمكن قوله من عاقل عن تصرّفاتهم: تَهوُّر و جُنون.

أنيسٌ تسلّق الشّجرة القريبة من النّافذة، ويعلم بوجود ماجد قابع بين أغصانها، الموقف مثير للغاية، فلم يودّ إضاعة شرف المراقبة المباشرة، مثل صديقيْه، فاقترب مُجازفًا بكل وسائل الأمان، ولم يستطع ماجد السّيطرة عليه لإجباره في العودة لمكانه، فالأمر لا يحتمل الخطأ أبدًا، وإنْ كانَ بسيطًا.

ابتسامة شمسة لا تُخْفِي جمالها السّاحر، وقفت أمام مرآة صغيرة بحجم الكف مُعَلقة بمسمار على الحائط بجانب كبسة الضوء، مُحاولَة إصلاح شعرِهَا من أثر الحطّة والعِقال، خلعتِ الجّاكيت، وهي تطلق تأففها المسموع لفريق ماجد: أفٍّ من هذا.

النّمس مطمئّن لخطّته المُحْكَمة، وهو يستعدّ للصّعود إلى السّطح، وبدل ذلك انحنى على فتحة المفتاح ليشاهد جسم شمسة، طال انحناؤه، مشاهِدُ الفيلم تَتَالَي، رغبته تتأجّج في داخله، قلبه يحترق، يُطلق سِهَامُ حَسَدِه، وحقده على رامز، بهذه النّعَمْ التي يَرْفُل بها، يتحسّس شَيْأَهُ المُنْتَصِب كعصا الرّاعي، توتّرٌ قاسٍ يشدّ على أعصابه، شعَرَ بالتّعب من انحنائه المُتواصل لمدّة نصف ساعه، رفع ظهره مُتَثاقلاً، مشى بخطوات بطيئة، تاركًا ثقب مفتاح الباب ليتسرّب الضوء من خلاله، إلى ساحة الدّار المُعتِمَة، حيث قام بإطفاء كافة الأضواء، من فوره توجّه إلى البَايْكَة (الحظيرة) هناك في زاوية الدّار، وهو يلعنُ حظّه العاثر، بصوت مسموع: قاتل الله حظّي ما أعنده، ناسٌ تلعَقُ العَسَلَ، وناسٌ فقط للحراسة و التّعَاسة، وتنتهي سَوْرَة شَبَقه الغاضِبَة في رحم أَتَانِه، التي تَفِي بالغَرَض عندَ الضرورة المُلِحّة.

تأتي المشاهد من الغرفة ساخنة، رفعت درجة حرارة المُراقبين، أعصابهم مشدودة متوتّرة، يعتصرون أشْيَاءَهَم بأيديهم، ويلصقون أفخاذهم بِلَذّةٍ مُتولّدَة مُتأجّجَة، وهم يضغطون بأسنانهم على شفاهِهِم؛ كي لا تنفلت منهم آهَةٌ، أو حركة تنبّه لوُجُودِهم، بعد أن غاب الحبيبان في لُجّة جَحِيم القُبَل، ورشْفِ شَهِدِ الرّضاب، إلى أن حَمِيَ الوَطِيس، أسْدِلَت السَتارة قُبيل أذان الفجر، بعد أن هدأ ضجيج الرّغبات المَحمُومة، وهجعت الأجساد المُتعبة من إرهاق حَمْأتِهَا المَجنُونة، وخفتَت جُذوَة الاشتعال؛ لتُخلّف الرّماد.

بعد أن أنهى النّمس مُهمّته في البَايْكة (الحظيرة)؛ عادَ ليُعاينِ المنظر من ثقب المفتاح، وبصق على نفسه، وهو يصعد إلى السّطح، حاملًا بارودته، بخطوات بطيئة، يذرع السّطح جيئة وذهابًا، وينفثُ دخان سجائره، بأنفاسٍ حَرّى مَقهورة.

***

(١٨)

النفوس جُبلت على حُبِّ من أحسن إليها، تَهفُو شوْقًا وحنينًا إلى من أحبّته، ستبقى تعيش على ذكراه ولو بعد حين، و الظلم يُولّدُ الأسى في القلوب، ولا ينمحي أثره بسهولة، وسيحفر مَسَارِبَه لتعميق الجراح، فتصطبغ الرؤى بقتامة، وهي تتطلّع لأفُق الحياة، فتذهب ملذّاتُها، وتنقلب إلى جَفْوة، و مَفازَة من الرؤى الرماديَة للكثير من الجماليّات.

مرعي بن عبدالودود(المنحوس)، ثَقُلَت عليه الأحْمَال و الأعْبَاء، وهو يقف أمامها كالرّجال بِحَيْرَةٍ تُشتّتَه باتّجاه المجهول، وربّما بانكسار، فحَيْرَتُه، من أين يبدأ؟. وشُكوكٌ مُريبة تقلّب مزاجه النفسيّ، وأيّ طريق سيسلكها؛ لإنقاذ بقايا مخلفّات أسْرَةٍ منكوبة.

يروي مرعي: منذُ صِغري كنتُ أحلمُ أن يضمّني أبي إلى صدره، أنا قلق خائف، شعوري الدّائم بالدّونية مستقرٌ مُقيمٌ في نفسي، خاصّة إذا ما كُنتُ بين رفاقي وأولاد حارتي، فأنا لستُ يتيمًا، لكنّي أفتقد أبي في كثير من زوايا حياتي، أمّي عوّضتني، وإخوتي مما افتقدناه من حنان، وعطف أبي، المُنصرَف عنّا إلى أصحابه طيلة وقته. فأعطى أصدقاءه كلّ وقته، لم يترك لنا شيئًا، ولو يسيرًا حتّى نستشعر أبوّته، لم أر في حياتي كلّها وجهه مُبتسمًا لي مرّة واحدة، عُبوسٌ دائمٌ، سُكوتٌ مُريب، يدخل البيت، فقط حين يريد أن يرتاح، ويتناول طعامه، تمرّ علينا أيّامًا عديدة لا نراه فيها، حينما نستيقظ صباحًا للذّهاب إلى المدارس يكون نائمًا، وبعد الظهيرة حين عودتنا للبيت يكون هو قد خرج، ولا يعود إلا في آخر اللّيل، ويكون مضى على نومنا ساعات طويلة.

النّرْدُ، ورق اللّعب (الكوتشينة)، و الجلوس في المقهى كلّ يوم، هي الأهمّ في حياته، الأولاد في الحارة يتهامسون بكلام لم أفهمه بداية لحداثة سنّي، شيئًا فشيئًا ببراءة طفولتي، كنتُ أتحسّس مواطن المعرفة المتيسّرة، إلى أن ألممتُ بجزء مما يُقال على ألسنة الأولاد، ذات يوم، أصابني الغيظ من كلّ شيء، ضجرتُ، اندفعتُ بكلّ قوّتي راكضًا باتّجاه والدتي، لا ألوي على شيءٍ مما يُلهِيني في العادة، الدّموع تملأ وجهي، وأنا أشعر بالمهانة و الذلّ من أفعال أبي. صرخت في وجهها بانفعال غير طبيعي: يا أمّي، هل صحيح أنّ أبي يشرب العَرَق (الخمر)؟.

- الأمّ: ومن قال لك ذلك؟.

- مرعي: الأولاد كانوا يتهامسون بذلك منذ أيّام، و سمعتُ من يُعَيّرني، بأنّني ابن شرّيب العَرَقْ.

- الأم: لا يا بنيّ، هذا كلام فارغ، ولا صحّة له، فأبوك رجل مثل كلّ رجال القرية، يجلس مع أصحابه يتسامر معهم، ويقضي أوقات فراغه بينهم يتسلّى، بلعب الورق(الكوتشينة)، وطاولة النّرْد، وأحيانًا يأتون معه إلى هنا في البيت، وتراهم بأُمّ عينيْك، هل لاحظت شيئًا عليهم؟.

- مرعي: أبدًا يا أمّي.

تضمّه إلى صدرها بشدّة، و هي تتمسّك به بقوّة، وكأنّها تحسّ بيد قويّة، تنتزعه من حِجْرِها، تُغالِب دموعها، وتتماسك أمام ابنها، وتقول: يا حبيبي، دَعْ عنك هؤلاء الأولاد، ولا تهتّم لما يقولون، فَهُمْ أولاد لا يعقلون، وكلامهم مردود عليهم، ومنهم من هم قليلي الأدب، إلعَبْ مع إخوتك هنا في البيت، ولا تخرج إلى ساحة الحارة.

مرعي يتابع رواية قصّته: ما إن بلغتُ الثّامنة عشر، حتّى حصل الخلاف المشؤوم بين أمّي و أبي، طرَدَها من البيت، ومن ثمّ أتبعه بورَقَة طَلاقِها، وتَخَلّصَ من البيت، فَبَاعَه إلى عمّي، والدتي تعبت كثيرًا، لم تتخلّف عن موسم من مَواسِم العمل، الحصيدة لها قوانينها، وقبلها في الرّبيع التقاط نباتاتً العكّوب، والكزبرة، و الرّشَاد من الحقول، وبيعه بليرات قليلة. على مَدار العام،

لا يوم عطلة عندها، ولا استراحة، حتّى في أيّام الشّتاء تغزل الصّوف وَشَعْر الماعز، فالمغزل الخشبيّ قد ترك آثاره العميقة على كفّيْها، بضعةُ ليرات أقامت أوَدَنا، وأبعدَت عنّا غائلة الجُوع، وصدّت عنّا مدّ أيدينا لأهل الخير، اعْتَدْنَا على مشاغلها المستمرّة، ودائمًا تردّد:

- يا ماما غدًا تكبرون، وسأراكم رجالًا، عندها ستردّون لي بعض الجميل، همّي الأوّل أن تدرُسوا، وأنت يا مرعي، عليك بمتابعة الدّراسة إلى أن تتجاوز البكالوريا(الثانوية العامة)، وتنجح بعلامات ترفع الرأس، أحلمُ بأن أراك مهندسًا أو طبيبًا أو مُحاميًا.

غَرَقُ أخي فهد الذي يصغرني بسنتين، جعلني أفْقِدُ نِصْفيَ الآخر، كِدتُ أُجَنّ من هولِ الصّدمة، كان حدثًا فائق القسوة في حياتي كلّها على الإطلاق، فهو أكبر هَوْلًا من انفصال والديّ، ثم وُئِدت أحلام والدتي، فلم يُمْهلها الموت، لترى نتائج امتحانات (البكالوريا)، وتكتمل فرحتها بالنّتيجة.

وحيدًا أقف أمام أهوال الصّدمة من مُصيبتنا، كَريشةٍ في مهبِّ الرِّيح، بفَقْدِ أمّي، كانت هي الحصن الحصين لي ولإخوتي، نبعٌ من الطمأنينةِ افْتَقدتُها مع أخويّ الصغيريْن سالم وسليمان، من لي بيدٍ تُمدّ إلينا، تحنُو علينا.

أبي تبرّأ منّا عَلَنًا، وقَطعَ آخر الخطوط بيننا، حينما اشْتَكى عليّ، ومُطالَبَتي بدفع نفقة شهرية له، وقبلها حينما ادّعى على أمّي رحمها الله، بالإهمال عندما غرق أخي، وحَكَمَتْهَا المحكمة بالسّجن، عاجَلَهَا الموتُ، لِتفلتَ من مَهَانَة وذُلّ السّجن.

***

لم تَدْرِ أمّ فرج (زوجة النّمس) كيف حَمَلَتْها قَدَماها حتّى وصلت إلى بيتها، جسمها يتحرّك آليًّا بلا تفكير، اسوّدتِ الدّنيا في عينيْها، توقّفت كلّ حواسّها عن الإحساس بما حولها، ابنها يحمل الأغراض بجانبها، ويكلّمها، لم يتلقّ منها أيّ

جواب، ولا هي تسمع ما يقول، ما إنْ أقبلت على باب الدّار، راحت تُردّد: لا فائدة (***ذَنَبُ الكلب لوْ وضعوهُ بالقالب مئة سنة، لَبَقِيَ أعوجًا***)، وَلْوَلَتُها زادت بِرِطنٍ غير مفهوم، دموعُها تَنْسَاح على غير إرادة منها، بقي لسانها يردّد بحركةٍ آلية: يا وِيْلِي. ما إن وطئت قدماها عتبة البيت، حتّى تعثّرت بحجر ناتىء أرْدَاهَا أرْضًا، ركض فرج لإعانتها على القيام من جديد، عَجَزت عن الوقوف على قدميْها ثانيَة، دموعها بلّلت صدرها، سقطت بعض قطرات على التراب لتبلّله، تركها فرج على حالها، وركض إلى داخل البيت كي يُنادي والده؛ لمساعدته في إسناد والدته لتقوم من مكانها. تأفّف النّمس حين أخبره ابنه فرج بسقوط والدته في عتبة البيت، وهو يقوم متثاقلًا لأنّه كان في غفوة نومه، وقال: الآن وقتك، ووقت أمّك، حتّى أنّني لا أستطيع أن أرتاح، تَتْبَعُوني حتّى في نومي، لإزعاجي.

- فرج: يا أبي لم أستطع أن أُسنِدَها وحدي، وإن شاء الله.. أن لا تكون رجلها مكسورة.

- النّمس: أوَ هي أوّل امرأة تنكسر رجلها في القرية؟، كلّها شهر زمان، وتقوم، هؤلاء النّسوة بسبعة أرواح، لا يغرنّك ما حصل لها اليوم.

- فرج في سريرة نفسه يَشْتُمُ أبيه، على قساوته مع والدته، وافتقاده للإنسانيّة، وقال: هيّا يا أبي أسرع.

- النّمس: اسْبِقْنِي إلى هناك، ها أنا قادم إليكما.

منذ أن التقتْ بأمّ سعيد، بعد نزولها من السيّارة، وسماعها خبر النّمس، أصابها تشنّج معويّ، ومغص شديد، كان وقعُ الخبر صاعقًا عليها، تمنّتْ لو أنّها لم تَقُمْ بتلك الزيارة إلى أختها، رغم اشتياقها الحارّ لها، ومشروعها بخطبة ابنة أختها لابنها الوحيد فرج، كي تُحقّق أمنيتها التي نذرت عمرها لها.

ضاعت أحلامها أيضًا بدعوة نساء الحارة، وعمل مولد في بيتها لابنها، ومثلما يقال: (***حِجّة بتقديسة***)، أنْ تَجمعَ مُناسبتيْن عزيزتين على قلبها، مباشرته العمل في الوظيفة، والخطبة، هي لزمت بيتها، خلال الأيّام التالية، تفاعَل الحَدَث في

القرية، لأنّها جاءت من السّفر، ولم يكن الخبر قد اكتمل انتشاره، بفضيحةٍ مُجَلجِلَة، فهي لم تسمع كل ما قيل ويقال.

وقْعُ المصيبة حطّم نفس أمّ فرج، فانكسر شيءٌ ما في داخلها، من الصّعب أن تظهر آثاره للآخرين، بل تَحتَسِي أدْمُعَها بصمت، وهي طعينةُ أطماع زوجها الخسيسة وظلمه، هذه المرّة لا تستطيع أن تُرمّم بقايا البَقَايا في حياتها منذ أيّام، وهي مُرْتَمِيَةٌ في فراشها، هبط وزنها بشكل واضح، يومًا بعد يوم تنحدر حالتها إلى الأسوأ.

***

الساعة تعدّت الحادية عشرة ليلًا، النّمس عائد من سهرته، الطريق مظلمة، قلةٌ من النّاس من يكونون خارج بيوتهم في مثل هذه السّاعة، قبل المنعطف المؤدّي إلى بيته، ظهر شابّان مُلثّمان أحاطَا به، أحدهما وجّهَ له رَفْسَةً إلى أسفل بطنه، صرخ بصوت مبحوح من شدّة الألم، تلقّى ضربة أخرى بعصا على ساعده الأيمن، ومن ثم الأيسَر، شُلّتْ حركته عن المقاومة، ولا يمكن أن يصدّ عن نفسه شيئًا من الضّربات الموجعة ولو بالحد الأدنى من المقاومة؛ فانْهَار جسده ووقع أرضًا، أحدهما وضع رجله على رقبته، وضغط عليها بشدّة، وكأنّه يريد خنقه لكنّه لم يفعل، في اللّحظة الأخيرة رفع رجله؛ ليشهَقَ أنفاسه المُتَهتّكة من شدّة الوَجَع مُتَرافقة مع التأوّهات، و فَمُه ينزِف دمًا، شكّل بُقعةً حَول رأسه المرتمي على الأرض، حجرٌ ناتيءٌ يَنخَزُ خاصرته اليُمنى، يتأوّه، ولا يستطيع حراكًا.

- أحدهما: قرارنا كان بالخَلاصِ عليك، وإرسالك إلى مقرّك الأخير هناك في المقبرة، فقد كنّا حجزنا لك قبرًا، حظّك طيّب.

- الآخر: يا كلب، يا حقير، سكتنا عليك كثيرًا، وتماديْت في غِيّكَ، وجرأتك على أهل القرية الطيّبين المتسامحين مع أمثالك، حينما احتوتكمْ واحترمتكم، وأعزّتكم.

- الأول: صِرْتَ عميلًا، وآذيت الكثير من النّاس، وابنك صار على يد رامز لوطيًّا، وشباب القرية يُسَخِّمُونه، وها أنت صِرتَ قوّادًا لرامز، الذي ادّعيْت قرابته لك، وتحت سِتَار القَرَابة، سكتنا عنك كلّ هذه الفترة.

- الثّاني: على كُلٍّ هذا آخر إنذار لك ولابنك.

- الأول: منذ متى يا(***ضريطان صِرْتَ زلمة***)، وأيضًا عندك بارودة، من الغَدّ سيستَرجِعَها صاحبها، أفهمتَ..؟، فليحان يريد استعادتها، من الغدّ سيرسل ابنه، وسَتُسَلّمه إيّاها.

- الثّاني: إذا لم تكن موافقًا، بإمكانك أن تعلن ذلك، وضغط برجله ثانية على رقبة النّمس، حتّى سُمِعَت حشرجة أنفاسه.

- النّمس: أنا داخل على الله ثمّ عليكم، أعْتِقُوني لوجه الله، فأنا طَوْعُ أمرِكم، بما تأمرون به.

- الأوّل: هذه الجولة مُجرّد إنذار صغير، والآن أنت تحت الاختبار.

- الثّاني: إذا كنتَ تريد أن تشتكي لابن عمّك، فستكون قد جنيْت على نفسك، فقبرك جاهز.

- الأوّل: لا..لا، فالقبر كثيرٌ عليه، فسنرميه للذئاب و الكلاب لتنهش لحمه، ولا أحد يدري عنه شيئًا.

- النّمس: عليّ عهدٌ لا أخونه أبدًا، وسترَوْنَ سيرتي في قادم الأيّام. تركاه مرميًّا على الأرض، وانصرفا، الطّريق خالية تمامًا. وكأن القرية تواطأت عليّ، عندما لزموا بيوتهم هذه الليلة، انْفَرَدَا بي أولاد الحرام، الأيّام بيننا ستكون فاصلة، يقول النّمس لنفسه. مضت نصف ساعة؛ حتى استطاع اسْتِجْمَاع قُوَاه، فقام يجرّ نفسه نحو الجدار ليتكِئَ عليه، وهو يسير بخطوات سُلْحَفاة هَرِمَة، مكان الحادث يبعد عن بيته مئتي متر.

***

تأتي ظروف لِتَرُوجَ فيها الأخبار، خاصّة إذا وُجِدَت البيئة الحاضنة بخصوبة النّشر و التأويلات، الجميع سَمِع، لم يسأل أحدهم الآخر عن مصدر الخبر، للتأكّد من صحّته. وعكةٌ صحيّة ألمّتْ بالسيدة فاطمة (زوجة الأستاذ فهيم)، جعلتها طريحة الفراش، منذ عشرة أيام، راجعت الطبيب المختصّ في مركز المدينة، فشخّص حالتها المرضيّة حصريًّا في المَرَارة، وأخبرها أنّه مجرد التهاب، وسيزول بإذن الله، عند تناول الدّواء بانتظام، وبعد أسبوعين عليها مراجعته، للمعاينة، ورؤية مدى التحسّن في حالتها.

مُنِيف أثناء عودته من المدينة، تصادف مع فاطمة وابنها في الباص، استفسر عن حالة خالته فاطمة، فهو يناديها خالة منذ صِغَره، فحَمّلته السّلام لوالدته، فور وصوله للبيت أخبر والدته بحالة ابنة عمّها، وأوصل لها السّلام المؤتمن عليه لأمّه.

أمّ منيف اتخذّت قرارها بزيارة فاطمة، من فورها أرسلتْ ابنتها الصّغرى، بعد أن انتهت من كتابة وظائفها المدرسيّة، أرسلتها إلى جاراتها أمّ سعيد، وصالحة، وفليحة، وإخبارهنّ بالموعد غدًا بعد العصر، للانطلاق سويّة. اتّخذت أمّ منيف احتياطاتها بشراء كمية من البرتقال و التفاح، كهديّة للمريضة، أو ما يُطلِقُ عليها أهل القرية (مَطَلّهُ، أو الطَلّة)، لأنّ المطلّة للمريض فقط.

***

الأستاذ عطاالله أصابته حالة من ضيق النّفَس، حالة طارئة على مزاجه، ضجيج الأولاد، و مُناكفَاتِهم لا تتوقّف على مدار السّاعة، وكثرة تشكّيهم، جعلته يلبس ثيابه على عَجَلٍ للفرار من المأزق، ويخرج بسرعة دون أن يتنبّه أحدٌ لمغادرته البيت، ما إن وصل مفترق الطّريق المؤدي إحداها إلى المدرسة الثانوية، توقّف، والتفت بعكس الاتّجاه ليتذّكر الأستاذ فهيم، قرّر من فوره أن

يذهب إليه، قُبَيْل انعطافه إلى بيت الأستاذ فهيم، وإذ هو وجهًا لوجه مع الأستاذ فهيم، لقاء الصُّدفة ما أجمله..!!، تبادلا التحيّة.

- الأستاذ فهيم: أهلًا وسهلًا أستاذ، منذ زمن لم أشاهدك، طمئِنّي عن صحتك، و أولادك.

- الأستاذ عطاالله: الحمد لله حالي بخير، لكنّني ضَجِرٌ من البيت، فخرجتُ مُتّجهًا إليكَ، وها نحن التقيْنَا على غير موعد مُسبَق.

- الأستاذ فهيم: رُبّ صُدفةٍ خيرُ من ميعاد، من يجلس، ويستمع للأخبار يُصَاب بالغَثَيَان، ووجع الرأس، وألم في القلب، نشرة الثّالثة من لَنْدُن، تمحورت حول التوتّر في قُبْرُص، ربّما يؤدّي للحرب فيما بين تُركيّا و اليُونان، والحرب بين باكستان و الهند، وانفصال باكستان الشرقيّة عن باكستان الغربيّة، و الحرب الباردة بين القطبين العظميين أمريكا، والاتّحاد السوفييتي.

- الأستاذ عطاالله: منذ فترة انقطعتُ عن مُتابعة نشرات الأخبار، لأن الرّاديو عندي أصابه عطلٌ، وأخذُتُه لمن يصلح شأنه، وتأخّر عليّ كثيرًا.

- الأستاذ فهيم: لكنّ الأخطر في نشرات الأخبار هذه الأيّام، هو التهديدات الإسرائيلية، لدول الجوار سورية، ولبنان، والأردن ومصر، أيّ أنّ تهديداتها للعرب جميعًا.

- الأستاذ عطاالله: حرب الاستنزاف جرّت الكثير من الويلات، وعلى الأخصّ منذ إغلاق مضائق تِيرَان.

- الأستاذ فهيم: اسرائيل جديّة في تَهديداتها، ألا تذكُر عندما ضربوا الجرّافات، والمُعَدّات التي كانت تعمل من أجل إنشاء سدّ الوحدة في وادي اليرموك.

- الأستاذ عطاالله: هي مجرّد تقليم أظافر، واسرائيل هي المانع الحقيقيّ في وجه وحدتنا التي نحلم بها، منذ فتحنا أعيننا على هذه الدنيا، و تفتُّحَ وَعْيِنَا، وكلّما كبُرنا سنة بعد أخرى تتلاشى أحلام الوحدة في رؤوسنا، ها هي حالنا منذ سنوات لم نتقدم خطوة للأمام على ضوء مُعطيات الحاضر كما ترى، و اسرائيل تُحكِم قبضتها بقوة على صخرة الواقع القاسية المُصطنعة في عيوننا.

- الأستاذ فهيم: إنّ إسرائيل تُريد وضع حد لهجمات الفدائيّين عبر نهر الأردن، ومع تكرّر عجزها عن مقاومتهم، لجأت للضغط على الأردّن؛ للحدّ من تحركات الفدائيّين على أراضيه.

- الأستاذ عطاالله: يا أستاذ، هدفها كبير، لجعل الشّرخ واسعًا، أوّلًا بين أبناء الشّعب الواحد من الضفتيْن، ولتوسيع الهوّة بين حكومة الأردّن التي سمحت بالعمل الفدائيّ على أراضيها، التزامًا منها بالقضيّة الفلسطينيّة.

- الأستاذ فهيم: سنعرّج في طريقنا على صديقنا فارس فهو بالإنتظار، تواعدْنَا منذ البارحة بعد انفضاض سهرتنا عنده، وسيكون مجلسنا عند عكّاش صديق الجميع في دكّانه.

***

(١٩)

التأم شمل الوفد النسائيّ، في بيت فاطمة زوجة الأستاذ فهيم، بعد الاطمئنان على صحّتها، اتّخذت أمّ منيف مكانها بجانب فِرَاش فاطمة بمحاذاة رأسها، وبجانبها جلست أمّ سعيد، وقابلتها من الجهة الأخرى، صالحة وفليحة، فيما جلست نعمات على كرسيّ الخيزران بجانب عتبة الغرفة، وبقيت مُستنفِرة للتّخديم على ضيوف جارتها فاطمة، لأنّها تعتبر نفسها من أهل البيت، ومُعَزّبة، فهي تعرف كل شيء في البيت، وتستطيع القيام بما هو واجب عليها في مثل هذا الموقف.

- أمّ منيف: يا وَيْل قلبي عليك يا أمّ فرج.

- أمّ سعيد: النّمس عليه من الله ما يستحّق، على أفعاله الشنيعة.

- صالحة: والله، أمّ فرج امرأة لا مثيل لها، و لا تستحّق إلا كلّ خير، وجودها خسارة في حياة النّمس.

- فليحة: أمّ فرج جوهرة نادرة من النوادر في مثل هذه الأيام، تضحياتها تفوقها بكثير، وأين، يا حسرتي عليها..!!؟، فيمن لا يستحّق شيئًا من تفانيها. وهي تضرب كفًّا بكفٍّ، وتشير بيدها من الشّمال إلى اليمين، وتهزّها بارتخاء، دلالة على الاستهزاء بالنّمس.

- أمّ سعيد: والله أشعر بتأثِيم نفسي، عندما التقيتُ بطريق المصادفة أمّ فرج، أثناء عودتِها من زيارة أختِها، وكان الخبر الأوّل لها عن طريقي، فقلبها المسكين.. يا قلبها المُدَمْدِم المُثقل بالمَآسي، لم يحتمل هول الصدمة مما سمعتْ.

- أمّ منيف: كان عليك أن تصبري يا أمّ سعيد، أصاب العَمَاء قلبها، فوقعتْ في عتبة الدار، من هَوْل الصّدمة.

- أمّ سعيد: أطلبُ من ربّي الغُفران، لكنّني وجدتُ أنّه من المفروض عليّ أن أخبرها قبل أن تسمعه من غيري، أو ربّما إذا وصلت، ودخلت بيتها لن تسمعه، إلا بعد أن تفوح رائحته النّتِنَة بعد زمن، أما (***دُقّ الحديد وهو حامي***) هكذا أنا بِطَبْعِي، لا أحبّ تأجيل عمل اليوم إلى غدّ.

- فاطمة: أهلًا وسهلًا بالحبايب جميعًا، سعادتي لا توصف بهذا التجّمع المحبّب إلى نفسي، وربّي يَجْبُر بخاطركنّ، وأتمنّى من الله أن يمدّ في عمري، كي أردّ لكُنَّ هذا المعروف.

تدخل نعمات حاملة الصينيّة مليئة بالكاسات، وإبريق الشّاي، جلست أمام عتبة الغرفة، جاثِيَة على ركبتيْها، وهي توزّع ابتساماتها للضيفات، وجهها يُعلن عن فرحتها، بلا كلام من لسانها تعبّر به عن حالتها، بعد دقائق صبّت الشّاي في الكاسات على عدد النّساء الموجودات، وقامت بتوزيعه عليهن واحدة واحدة، وهي مُنْحَنِية الظّهر، تمدّ يديْها بتواضع أمامهنّ، والابتسامة لا تفارق ثغرها الجميل، وهي تتلقّى الدّعوات من كلّ واحدة منهنّ على حدة: (رزقك الله الولد عمّا قريب)، و عند كلّ دعوة، تردّ يا رب، الله يسمع منك.

- فاطمة: قبل يومين، زوجي الأستاذ فهيم، يستغرب غياب (أبو غليون) عن القرية، كأنه مُخْتَفٍ، وأعرَب لي عن خوفه من أن يكون مريضًا، وفي نيّته، القيام مع صديقِه فارس القيام بزيارته في بيته، لولا لقاؤه اليوم مع الأستاذ عطاالله، فعندما استفسر منه عن جاره، قال الأستاذ عطاالله، إنّه ذهب للمدينة لزيارة بعض أقاربه، وسيعود خلال الأيام القادمة، بكلّ تأكيد.

- نعمات: لا والله، وأنت صادقة، إنهم طلبوه لأمر ما في العاصمة.

- أمّ منيف: مَنْ هُمْ الذين طلبوه، وما هي قصّته؟.

حاولت نعمات التملّص من الإجابة صراحة، عندما تذكّرت شيئًا ما، و خوفها من تسرّب الخبر عن طريقها، ومن الممكن أن يُعرف، بأن يكون زوجها

مصدر الخبر، فأرادت إبعاد الحديث باتّجاه آخر. وقالت: أقاربه طلبوه بالتّلفون، لأن والدته مريضة.

- أمّ سعيد: ظننتُ أنّ في الأمر شيئًا ما؛ لأنّ إجابتك جاءت مُريبَة لي، بإثارة الشّكوك.

- فاطمة وجهّت كلامها إلى فليحة، التي أنصتت أكثر مما تكلّمت، وهي تحاول إخراجها عن صمتها، وقالت: ألف مبروك (خَيْتِي) أم مفلح.

- فليحة، هزّت رأسها باستغراب، فهي لم يحدُث عندها أيّة مناسبة تستوجب التهنئة، أو المباركة، فقالت: بارك الله بعمرك، لكنّي لم أعرف على أي شيء تُباركين.

- فاطمة: عودة بارودة أخيك فليحان، والله من قلبي سُررتُ له؛ لأنني سمعتُ أنّه تَعِبَ كثيرًا في محاولة استعادتها، لكنّ النّمس كان يأبى ذلك.

- فليحة: بارك الله فيك، والله موضوع يحتاج لتهنئة، قالت ذلك وهي تضحك.

جاء صوت جماعيّ بالمباركة من كافّة النساء في الجلسة، وردّت عليهم فليحة بجملة واحدة أيضًا.

في هذه اللّفتة الذكيّة من فاطمة ضاعَ تَساؤُل أمّ سعيد، واستفسارها ممّا سمعت من نعمات، وهزّت فاطمة رأسها بالارتِيَاح، لجواب نعمات، وتلافيها وجع الرأس؛ لأن الخبر سينتشر في القرية كلّها، وقالت: الله يعين النّاس، لا أحد بمنأى عن البلوى.

انكسرت نظرات نعمات، وغادرت الابتسامة محيّاها، وهي ترمي بنظراتها في خطوط السّجادة المتشابكة، وألوانها المختلفة، فكأنّ هذه الخطوط هي النساء في هذه الجلسة، مختلفات في أطباعِهّن وأذواقِهِنّ، مُستغرقة في دوّامة من التفكير العميق، ولامتْ نفسها كثيرًا.

لاحظت فاطمة حالة نعمات، وهي تَسْتَرِقُ إليها النّظرات حين تُنْصِتُ لإحداهِنّ، فطلبت من نعمات: بالله عليك يا خَيْتِي أن تأتينا بإبريق الماء، أُحِسُّ نَشفانًا في حَلقِي، ربّي يستر عليك. قامت نعمات من فورها، وجهها مُتكدّر،

وعادت بوجْهٍ جديدٍ تملؤُه الابتسامة، وراحت ترَحّب من جديد بالضّيْفَات، وفي نفسها أكبرتْ موقف فاطمة، عندما فهمت ما بها، وأخرجتها من حالتها بحُسْنِ تدبير، ودراية في تسيير وتوجيه المواقف باتّجاهات أخرى. قبيل انفضاض الجلسة بقليل، أعلنت فاطمة أنّها ترغبُ بزيارة أمّ فرج معهنّ، وقالت: فإذا ما قرّرتُنّ زيارتها، أرسلنَ لي خبرًا لمرافقتكنّ.

قُلن جميعًا: إن شاء الله.

***

جلسة اعتياديّة في دكّان عكّاش مثل كلّ الأيّام، لكنّها غير عاديّة في توقيتها، في مثل هذا اليوم، القرية كلّها تحكي سيرة واحدة، تتردّد على جميع الألسنة صغيرها و كبيرها، عكّاش بوجهه البشوش، يرحّب بالضّيُوف المُحَبّبين إلى قلبه، بكلّ بساطة وتواضُعٍ يقفُ أمامهم، ليصُبّ لهم فناجين القهوة الواحد تلوَ الآخر، مُبتدئًا بعُريْبي لأنّه الجالس الأوّل على اليمين، ضحك، وقال: (***الدّور على اليمين، لو كان أبو زيد على الشّمال***).

ضحك الجميع، وقالوا بصوت واحد: هنيئًا يا عريبي. رغم أنّه بداية رفض أن يتناول الفنجان من يد عكّاش، سامحًا بدوره للأستاذ فهيم؛ لأنّه يَلِيه في ترتيب الجلسة. لكنّ عكّاش أصرّ عليه.

- عريبي: سروري كبير في هذا اليوم، وفرحتي تتّسع للقرية بأكملها.

- فارس: إن شاء الله خير، يا عريبي، ما الذي أفرحك، نحن نفرح لفرحك، ونحزن لحزنك، هيّا أخبرنا.

- عريبي: عمّي فليحان استعاد بارودته من النّمس.

- فارس: وكيف استعادها؟.

- عريبي: سمعتُ أنّ النّمس أرسل له خبرًا، بأنّه يريد بيع البارودة وهو ليس بحاجتها، فإذا أرَدتَها يا فليحان، فأنت أوْلى بها من غيرك، ولك التّفضيل بالبيع، و منك خاصّة، لا أريد ربح أيّ قرش عليك، وأنا جاهز، وتحت أمرك.

- الأستاذ فهيم: لكنّ النّمس مُخْتَفٍ منذ أيّام لم أشاهده في القرية، هل هو مسافر؟.

- فارس: سمعتُ أنّه طريح الفراش، يرقد بجوار زوجته أمّ فرج.

- الأستاذ فهيم: كما أنّني لم أشاهد(أبو غليون).

- الأستاذ عطاالله: من يومَيْن فقط سافر في زيارة لأقاربه في العاصمة، عند نهاية الأسبوع إلى القرية، فهو لا يستطيع أن يتأخّر أكثر من ذلك عن عائلته، وأولاده.

- عريبي: كأنّكم لستم من سُكّان القرية، فهي قائمة قاعدة، على وقع أخبار النّمس.

- الأستاذ فهيم: الله يُسمّعنا الأخبار الطيّبة..!!.

- فارس: يا سيدي، المسكينة أمّ فرج انزلقتْ قدمها عندما وضعتها في عتبة الدّار، عندما رجعت من زيارة أختها، فانكسرتْ رجلها من الأعلى من مفصل الفَخِذِ المُتّصل مع الحوض.

- عكّاش: تلك مصائب النّمس، أو انعكاسها على المُقَرّبين منه، سمعتُ أنّ أمّ فرج حالتها الصحيّة في تراجع فظيع.

- عريبي: خبر الموسم، فضيحة يتداولها النّاس في القرية، شاهدوا رامزاً مع حبيبته الآنسة شمسة، يمارسُ معها الجنس في بيت النّمس من منتصف الليل، بقيت في حضنه حتّى أذان الفجر.

- فارس: أمرٌ غير معقول، ما يحدث مع النّمس شيء لا يعقل أن يصدر من شخص في مثل عمره، وكأنّه مُسْتَهين بموقعه بيننا، فهو لا يحسب حسابًا لأحد، ولا يهتّم للفضائح، و العار الذي سيلحق به.

- عريبي: لكنّ النّقطة الهامّة في قضيّة النّمس، أنّه منذ ليلتيْن تعرّض لاعتداء بالضرب من شابيْن مُلثميْن، أثناء عودته إلى بيته في منتصف اللّيل، يبدو أنّهما كانا ينتظرانه قبل بيته بقليل؛ فضرباه ضرباً مُبرِحًا، وشلاّ حركته، وهو طريح الفراش منذ تلك اللّيلة، ولا يستطيع الحراك لِلخُروج من البيت، فقط يقوم بصعوبة بالغة للوصول إلى الحمّام؛ لقضاء حاجته يَتَهادَى بجانب الحائط، كي لا يقع.

- عكّاش: كلّ يوم قصّة أغرب من سابقتها، في الأمس خبر ابنه فرج في ممارسة اللّواطه مع رامز، واليوم يصير النّمس قوّادًا لمن ادّعى قبل فترة أنّه ابن عمه.

- فارس: فليذهب إلى الجحيم هو وقرابته، كائِنًا مَنْ كان.

- الأستاذ عطاالله: هذا خروج سافر عن أعراف وتقاليد القرية، فهي سابقة لم تحدث منذ أن خلقنا، ولم نسمع بمثل هذا في آبائنا الأوّلين.

- الأستاذ فهيم: هناك أخطاء ممكن احتمالها، و التجاوز عنها، ومن الممكن إصلاحها، أما أن نصل إلى طريق مسدود، مع شخص نعتبره واحداً منّا.

- عكّاش: من لم يهتّم لأمر أهل القرية فليس منها، والقرية ليست بحاجته، لأنّه كالتفّاحة العَفِنَة لا بدّ لها منْ عَطْبِ كلّ منْ حولها، وبالتّالي تقضي على الصُندوق بأكمله.

***

مرعي يعيش في دوّامة، على مدار أكثر من عاميْن لم تتوقّف عجلة الصّراع في عائلة المنحوس، وكلّ نوبة من الخلافات تجرّ إلى ساحة جديدة من الدوّامة، حكماء القرية عجزوا عن إصلاح ذات البين بينهم لمرّات عديدة، الأولاد هم الطّرف الأضعف في المعادلة، من شدّة كُرْهِه لزوجته الأولى، انسحبت كراهته لأولاده، فلم يستطع أن يجعلهم بمنأى عن صراعه مع أمّهم. و

لا أن يجعلهم حِيَاديّين، فضلًا على أن يكتسبهم إلى صفّه، فهم ذُخرَه للمستقبل، هو في وادٍ، وهم في وادٍ آخر، لا يمكن أن يسمع أحدهما الآخر، فيصرخ، فلا يسمع إلا صدى صوته في جنبات عالمه المُنغَلِق في الوادي. عبد الودود(المنحوس) يريد أن يبدأ حياة جديدة، لكنّ ماضيه يُلقي بظلاله عليها، تنازل عن كثير من صَلَفِه وجبروته أمام سطوة زوجته الثانية؛ لأنَه يُريد إثبات نجاحه، و أن يجعل من السّعادة سِمَةً في مشواره هذا، كي يُقْنِع أهل القرية، بأنّ أمّ مرعي زوجته الأولى هي سبب مشاكله، ونكباته، وأنّها تتحمّل الجزء الأعظم من تدهور شؤون الأسرة إلى مُنحدَر سحيق، كان يصعب التوقّف في منتصفه للتّراجع أو تعديل الموقف.

تتطّور المواقف منحدرة للأسوأ بشكل عام، مما جعل التوتّر الدّائم بين فريقي الأسرة المنقسمين على أنفسهم أصلًا، وجاءت القشّة التي قصمت ظهر البعير؛ بادّعاء المنحوس على ابنه، ومطالبته أمام قاضي المحكمة بنفقة شهريّة، يتوجّب على ابنه مرعي دفعها له كل شهر.

مرعي يعمل يومًا، ويجلس آخر في أغلب الأوقات، وفي مواسم الأعمال عمله مستمّر، هو وإخوانه الاثنين في العطلة الصيفيّة، فهو حريص كل الحرص على إكمال تعليمهُمَا، وقال لهما: نذرتُ نفسي من أجلكما، لإكمال دراستكما وتأخذا الشّهادة الجامعيّة، وما نقصني سأكمله بكما.

***

في عتمة الليالي، سقط الحاجز الأخير من نفس مرعي تِجَاه والده، الذي كان يعمل في مزرعة محاذية لخط الحدود مع دولة مجاورة للقرية، براتب شهريَ متوسّط، بالكاد يكفي حاجاته الأساسيّة في البقاء على قيد الحياة.

سقط الحاجز، وسقطت خلفه كافّة الخطوط الحمراء، وانقطعت شعرةُ مُعاوية، وانقطعت معها آخر أواصر الأبوّة، ووضع الخطوة الأولى على طريق اللاعودة، انغلقت أمامه كلّ السُّبُل، لم ير شعاعًا يستنير بِهديه، العازفون على

الجراح بمهارة يتسللون إلى قلوب الجرحى لاستمالتها، فرج ابنُ النّمس مَدفوعًا من رامز لتجنيد الشّباب الصّغار للعمل مع المفرزة، قيل في القرية: (***شو إللي لَمْ -جَمَعَ- المَتْعُوس على خايِب الرجا***)، عجيب للغاية اجتماع المتعوس على خائب الرجاء من رحمة الله، الأدوات تتحرّك على الرّقعة بفعل يدٍ خفيّة، تحرّكها وفق مصالحها، وأهوائها الكفيلة بخدمة مصالحه.

عَمِيَتْ البصيرة، تبلّد الطّبع، سحابة قاتمة حجبت شفافيّة النّوُر في نفس الشّاب مرعي، تنطّح للشيطان في طريقه، وقال له: سأكون رفيق دربِك يا أيها الشيطان. الشيطان أجاب: هكذا بكلّ بساطة؟. نعم، بكل تأكيد، (***إن لم تكنْ ذئباً أكلتكَ الذئاب***)، (***و ظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة = على النفس من وقع الحسام المهنّد***)، لم أجد مبررًا لقساوة أبي معنا، ومعاملتنا بجفاء منقطع النّظير.

في ليلة ليلاء أجمع أمره، لم يزره النّوم فيها، يتقلّب في فراشه ذات اليمين والشّمال، قال له الشيطان: يا مرعي حرامٌ عليك، أبوك أخطأ، لا تقابل الخطأ بخطأ أكبر، هذا رأيي.

ضحك مرعي بسخرية، رنّتْ له جنباتُ الغرفة، كأنّ ردّ الصّدى آتٍ من مكان بعيد، بيّتُ النيّة على كتابة تقرير بأبيه، لا يأتيه الباطل من بين يديه، و لا من خلفه: المدعو عبدالودود الملقّب بالمنحوس، يعمل في مزرعة على الخط الحدودي، وهو على تواصل مع مخابرات تلك الدّولة المجاورة، ويتّصل بهم عن طريق جهاز مُخَبّأ في المزرعة هناك، ويُرسِلون له لقاء أتعابه بالعُمْلَة الصعبة (الدولار).

تهمة كفيلة بأن تذهب بوالده خلف الشّمس، ولن يعود للحياة مرّة أخرى، توجّهت سيّارة المفرزة من القرية إلى المزرعة، لتفتيش الموقع المُشار إليه بالضبط في تقرير مرعي، بعد إلقاء القبض على المنحوس، وإيداعه في زنزانة المفرزة، لحين عودتهم، ونقله إلى الفرع في مركز المحافظة.

بالفعل لم يكذب مرعي بوجود جهاز، وفي الحقيقة أنّه كان جهازًا لقياس الضّغط الجويّ، وقياس كميّة الأمطار، وضعته مصلحة الزّراعة في تلك المنطقة، لحماية الجهاز من السّرقة، والتّخريب كونه داخل المزرعة، وقريب من غرفة الحارس، والعمّال على مدار السّاعة في عملهم.

مع ذلك ليس باستطاعة رئيس المفرزة إنهاء الموضوع من عنده مباشرة، إلا بتحويل عبدالودود إلى الفرع للتحقيق هناك، لينال جزاءه، و التأكّد من خلفيّاته، ربّما تطول فترة التّحقيق، أو تقصُر، لكن على أقلّ تعديل ما بين ثلاثة إلى ستّة أشهر.

***

سأخالفكم الرّأي، لو سمحتم لي، أخاف من قرابة النّمس أن تكون هي التي جلبت لنا المتاعب في حارتنا الآمنة. هذه الحقيقة أراها ماثلة أمام عينيّ، كما أراكم يا جماعة الخير. أرى أنّه شيطان خبيث، من أين اخترع قصّة القرابة مع رامز، كلّ ذلك كي يُبعِد الشّبهة عنه في محاولة تضليلنا، وتشتيت نظرنا عن هذه العلاقة المشؤومَة مع هؤلاء النَاس، الذين لا أمان، ولا عهد لهم، هذا ما قاله إرحيّم، لأصدقائه في جلسة عامرة في بيت سليطين.

و في بادرة لإعطاء هذه السّهرة حقّها واستحقاقها، أرسل سليطين ابنه، إلى نوّاف و فليحان لدعوتهما للحضور، والاستمتاع بوجود الأصدقاء، والاحتفال بعودة بارودة فليحان، وهو ابن عمّ سليطين. تتشابك القرية بعلاقاتها الأسريّة، و العشائرية مع تشابك مصالح أهلها، وعلى قدر خلافاتهم التي لا تتوقّف.

إلتأم الشّمل، و دارت فناجين القهوة عطر المجلس، رائحة الهال عابقة بالمكان، تستوطنُه منذ القديم، فمضافة سليطين امتداد لمضافة والده أحد وجهاء القرية، وهو يحمل إرثًا كبيرًا من التّاريخ، فلا يستطيع التّنازل عن ذلك، ومنه يستمدّ قوّته الاجتماعيّة على الأقلّ أدبيًّا في مثل هكذا ظروف، ولا تزال كلمته نافذة مسموعة عند معظم الناس، كَرَمَهُ سابق له في القلوب، وسماحته معروفة، كلّ ذلك يُغطي على فظاظته في قول كلمته، وإن كانت لا تروق للآخرين، مواقفه صريحة في حلّ خلافات الفلّاحين، صارمٌ في رأيه لا يتراجع، مواقفه ثابتة ضدّ الاعتداءات على حقوق الآخرين، ومناصرة المستضعفين في القرية، وحينما

كان نوّاف يحاول تحريضه على النّمس لأمر في نفسه، لم يستجب له، و أمره ونهاه بالابتعاد عن طريق النّمس.

- نوّاف يضحك بملء فيه، وكأن عينيْه ستنطقان بفرحه، وقال: (***لا تدفع ابن الحرام، اتركه، سيقع من حاله***)، سَنَةٌ بالتّمام والكمال، وصديقنا فليحان، يترجّى النّمس في استرداد بارودته، ولكنّه لم يلق أُذُنًا صاغية من النّمس، بل وجد التعنّت و الصّدود.

- سليطين: في الحقيقة أنّه لا يمكن لأحد في قريتنا أن يُجبِرَ النّمس على إرجاع ما اشتراه بِحُرّ ماله.

- نوّاف: و لكنه اشتراها بتراب المصاري، مُستغلًّا حاجة فليحان للفلوس؛ كي يبخسه ثمنها.

- حمدان: الله حاضر، و النّمس غائب، الاتّفاق نور، و لا غبار على شرائه.

- سويلم: كلّ شيء حلوٌ بأوانه.

- نوّاف: ولكنّ النّمس بنظري مستغلٌّ ببشاعة لحاجة الناس.

- سويلم: المهمّ أنّ فليحان استردّها بأهون الأسباب.

كلام نوّاف لم يَرُقْ لسليطين، فامتَعَضَ وجهه ممّا سمع، وفَهِمَ كلام نوّاف على أنّه تحريض على النّمس، فقال: يا قرابتي، (***أنت تريد الغلب، أو مصارعة النّاطور***)، في مثل هذه الأيّام نريد التّخفيف من مشكلة تنزاح من طريقنا، مثلما ترْوْن الدّولة قويّة، وعيونُها مُفَتّحة علينا بسبب، أو بلا سبب، ونحن يجب أن نحافظ على أنفسنا.

- نوّاف: أنا أقول لكم ذلك فقط هنا، وفيما بيننا.

- سليطين: إذا كنت تُشفِق على صديقك، وزميلك ابن عمّي فليحان، لماذا لم تُقرضه نقودًا منك، لفكّ عُسْرَتِه وقتذاك.

- فليحان: في الحقيقة، أنّني لم ألجأ للطّلب من أحد، مباشرة عرضتُ بارودتي للبيع، قلتُ أن أصبر على نفسي أهونُ ألف مرّة من صبر الآخرين عليّ، و(***صبرك على نفسك، ولا صبر الناس عليك***).

- نوّاف، تنفّس الصُّعداء، وكأنّه استعاد زمام المبادرة، عند سماعه مقاله فليحان، وقال: صدّقوني، أنّني لم أعرف بما نوى فليحان القيام به، إلا بعد اتّفاقه مع النّمس على البيع، وإلاّ لكان يتوجّب عليَّ مَدّ يدي للمساعدة بلا طلب منه.

- إرحيّم: هذا المأمول فيما بين الأخوة والأصدقاء.

- حمدان ما زال حائرًا، يتلفّتُ في وجوه الجالسين، وقال: سمعتُ أنّ النّمس طريح الفراش.

- سويلم: أكيد أنّه تَصَارَع مع الضّبع كما في المرّات السّابقة، وسقطت رجله في حُفرة، جعلته طريح الفراش.

- حمدان: لا والله، يا طويل العمر، أثناء عودته إلى بيته، فيما بعد الفضيحة المشينة، اصطدم بشابيْن من شبابنا، لقّنَاهُ درسًا لن ينساه ما دام على قيد الحياة.

- إرحيّم: يا جماعة الخير، كما قلت لكم قبل سنة، وهزئتم من كلامي، وها أنا أعيده على مسامعكم من جديد، لتتحقق نبوءتي في هذا الرّجل.

- حمدان: لكن الجانب المُشرق في الأمر، أنّ الشابين مجهولا الهويّة، حتّى هذه اللّحظة.

- سويلم: لو عُرفا سيؤذيهما بتقاريره النّاسفة.

- فليحان: المفاجأة عقدت لساني، حينما أرسل لي ابنه ليخبرني، بموافقة والده على إعادة البارودة لي، بنفس السّعر الذي دفعته له.

- إرحيّم: الله يجيب العواقب سليمة على شبابنا، هل تعتقدون أنّ النّمس سيُقدّم بلاغًا بالحادثة على الأقلّ عند الشّرطة، إذا لم يكن عند سيّده رامز؟.

- سليطين: هو أجبنُ مما تظنّون، و لا يملك الجرأة الكافية لأن يقوم بهكذا عمل؛ فيكون قد ارْتكبَ حماقة جديدة؛ ستكون عواقبها سيّئة عليه وعلى ابنه فيما بعد، و لو كان كما تتوقّعون، لما جاء من جديد بقصّة الضّبع المعروفة لدينا مُسبقًا.

- نوّاف: ليبق كما كان بحجمه الطبيعي، مَنتُوف الرّيش، مَهيض الجناح، لا يتعالى على أهل القرية، بدناءته وخساسته.

- سويلم: (***العين ما تَعْلَى على الحاجب***)، مهما صار.

- إرحيّمْ: نحن في مرحلة جعلت مثل هؤلاء الأذناب التافهين اللاهثين وراء مصالحهم الضيقة في المقدّمة، والتّفضيل في نيْل وظائف الدّولة، دون حساب لمن هم حولهم، وأعتقد (***أنّ الغاية تبرّر الوسيلة***) لديهم.

- سويلم: ما رأيكم، لو أنّنا قُمنا بكتابة مضبطة يُوَقّع عليها أهل القرية، ونطالب فيها بنقل رامز و شمسة من عندنا، ومعاقبتهما على ما قاما به، بفعل فاضح فيما بين ظهرانينا.

- إرحيّمْ: فكرة رائعة، وهي ستظهر مدى تعاضد أهل القرية ضدّ أيّ خطر داهم، واستعادة اللّحمة الجامعة فيما بينهم.

- سليطين: سبقتني يا أخ إرحيّمْ، رحم الله والديْك، وليكن ذلك في اجتماع موسّع أكبر من هذه السّهرة، ندعو الأستاذ فهيم، والأستاذ عطاالله، ومختلَف فعاليّات القرية، ليأخذ الأمر الجديّة الصّارمة، في مواجهة الأمر.

تنفضّ السّهرة على أمل لقاء قريب، مخصّص لهذا الشّأن..

***

(٢٠)

الأستاذ فهيم يعود للبيت بعد قضاء سهرته الطّويلة في دكّان عكّاش، بعد أن ودّع صديقه فارس، والأستاذ عطاالله، جلس في الجّهة المقابلة لفراش زوجته فاطمة ساهِمَ الطّرْف، مُطرقًا بوجهه على الأرض، كَمَنْ يُمارس رياضة (اليُوجَا)، وجهه ممتعض، تغضّنات، وخطوط جبينه لا تظهر إلا في حالات الغضب، خاصّة من جلسة اللّيلة الماضية في دكّان عكّاش، مما سمعه وتداوله خلال السّهرة.

فاطمة لم تتوقّف عن الكلام، وراحت تخبره عمّا حدث البارحة في زيارة النّسوة: ما شاء الله، يا أستاذ، لا يمكن أن نشعر بمحبة النّاس إلا في حالات المرض، يعني عندما نحتاج الآخرين نجدهم بجانبنا، ما أجملها من لحظات، خاصّة وأنّ أمّ منيف ابنة عمّي، جاءت بمعيّة نساء حارتها من صديقاتها، ومنهنّ من تدخل بيتنا للمرّة الأولى في حياتها، وطالت بنا الجلسة حتى مغيب الشّمس، لولا التزاماتهنّ لم يكن بودّهن أن يرجعن لبيوتِهّن، أولادّهن بالانتظار، ومنهنّ من تتعجّل في إعداد الطعام، والماء السّاخن لزوجها الغائب منذ طلوع الشّمس في العمل الشّاق، الله يستر على نعمات، ربّي يجبر بخاطرها، ويعطيها ما تشتهيه و تتمنّاه، فقد قامت نيابة عنّي بأعباء الضيافة، لكنّ الله سَتَرْ، كادت أن تغلط في خبر أمام النّساء، بأنّ(أبوغليون) طلبوه من العاصمة، حسب ما أخبرها صابر بذلك قبل أيّام، أثناء مناوبته، وهو يتسمّع للمكالمة بينهم، مثلما تعرف أنّ الخبر سينتشر في القرية، و(***الحيطان لها أذان***)، لولا أنني تنبّهت، وغمزتُ لها، بأن تحرف كلامها باتّجاه آخر، على تساؤل إحداهنّ.

اعتدل الأستاذ فهيم في جلسته، رافعًا حاجبيْه، وهو يمطّ شفتيه للأمام علامة الاستغراب، و التعجب، لما سمع من فاطمة، وقال: البارحة أخبرنا الأستاذ

عطاالله أنّ(أبو غليون) ذهب لزيارة أقاربه في العاصمة، ولكنّ خبر نعمات هو الأصحّ، وهو يتخفّى في التعمية على حقيقة زيارته تلك، و أراد من إخبار جاره الأستاذ عطاالله، كي ينتشر الخبر بهذه الطريقة عن طريق الأستاذ، كون الأستاذ من ذوي الاستقامة، وهو مُصدَّقُ القول عند معظم أهل القرية، آآآه .. يا فاطمة، قلبي يتلوّى على مجتمعنا، ومما يُحاكُ له في الخفاء، وعلى مستوى شخص كالنّمس مثلاً، (***خرج بالجرّارات***)، كما يخرج الكديش (الحصان المخصي) عن الطّرحة أثناء عمليّة دَرْس القشّ المحصود في ساحة البيدر.

وبينما هما على هذه الحال، من تجاذب الحديث المتشابك مع الأحداث، وإذ بباب الدّار يدقّ.

- الأستاذ فهيم: يقوم متململًا من مكانه، يخطو بتثاقل، وهو يصيح بصوت مسموع لمن يدق الباب: من هناك؟.

- يأتيه صوت شاب صغير، بصوته النّاعم، قائلًا: أنا عليّ بن سليطين.

- الأستاذ فهيم: أهلا عمّو عليّ، تفضل ادخُل.

- علي: أنا في عجلة من أمري، إنّ أبي ينتظرني بفارغ الصبر، يتوجّب أن أعود إليه، وقد أعطاني قائمة بأسماء، وأنت يا أستاذ اسمك على رأس القائمة، إنّ أبي يدعوكم غدًا للقاء عندنا في المضافة.

- الأستاذ فهيم: حاضر يا عليّ، في أي وقت الاجتماع؟.

- عليّ: بعد العصر مباشرة.

- الأستاذ فهيم: وهل تعلم من أجل أيّ شيء؟.

- علي: لا والله عمّو لا أعلم، فقط كلّفني أبي بدعوتكم.

- الأستاذ فهيم: أشكرك يا عليّ، إن شاء الله سأحضر، أخبر والدك بذلك. ويعود لمجلسه حيث كان، فاطمة تستفسر منه عن الأمر، فأخبرها بما جرى. وتابع قوله، ألَيْسَ من الغريب دعوة سليطين؟، خاصّة في مثل هذه الأيّام بعد انقطاع طويل عن مثل هذه الاجتماعات، حتّى كادت القرية تنساها، يبدو أنّ هناك في الأمر شيئًا ما، الله يجيب العواقب سليمة.

تُردّدُ فاطمة بصوت مسموع: يا ربّ، لكنّني أتوقّع أن يقوم الرّجال بمبادرة لكيفيّة معالجة مشكلة النّمس، وما أحدثته من ضجّة غير طبيعيّة في ضمائر أهل القرية، ما حدث لم يكن ليحدث ولو في الخيال، ومن أمثال النّمس ..!!، يعني (استضراطٌ) لنا جميعًا، ولا يهتمّ لوجوده بيننا، فكأنّه استغنى بابن عمّه رامز كما ادّعى سابقًا، قِسمٌ كبير من النّاس صدّقوه، أرى أنّه كاذب، ودجّال للتغطية على تعامله مع رامز، وصارت الأمور مكشوفة، وها هو ابنه يمشي على دربه الذي اختّطه لنفسه، ولولا رامز فلو بقى ابنه مئة سنة، فلن يستطيع أن يتوظّف عند الدّولة.

ينفخ بنفس محموم، وهو يستمع باهتمام لكلام فاطمة، ويضرب كفًّا بكفٍّ، وهو يقول: البلاء يسري فينا مثل السُّوس ينخرنا من الدّاخل، حتّى أنّ ابن النّمس يتحرّك في تجنيد شباب القرية، وتوريطهم في أعمال قذرة، وربطهم بالمفرزة، كعملاء، وجواسيس على أهليهم، وهذا مرعي بن المنحوس أحد الظواهر الشاذّة كنموذج جديد، ظهر خلال الأيّام الماضية، عندما لاحظنا اختفاء عبدالودود، فبعد أسبوعين، أو أكثر حتّى علمنا أنّه معتقل، نتيجة تقرير كتبه به، ابنه مرعي.

فاطمة تقول: (***النّار ستخلف رماد***)، و(***المنحوس منحوس، ولو علّقوا على راسو فانوس***)، والله اليهود لا يعاملون أعداءهم كما يعامل هو أولاده، قسوة غير مسبوقة، والظلم ظلام يا أستاذ، لله المُشتكى.

ضحك الأستاذ فهيم من قولتها تلك، و قال: كأنّ اللّقب مصنوع له، وعلى مقاسه بالضبط. لو أعرف من أطلق عليه هذا الاسم، حقيقة إنّه يستحّق أن أفرض له جائزة، فهو ذو نظرة ثاقبة، عالم بتفاصيل علم النّفس.

دخلت البنت الوسطى بإبريق الشاي، توقّف الحديث؛ ليتّخذ مسارًا آخر.

***

نامت القرية وهي تتهامس بالدّعوة التي وجهها سليطين للكثير من الأهالي، التوقّعات كثيرة، ومنهم من تلقّى الدّعوة بلا مبالاة؛ لأنّه مذبذب النيّة غير معنيّ بالحضور من عَدَمِه، بالمقابل هناك المهتّم بالأمر متخذًا طابع الجديّة.

ظهيرة اليوم التّالي، توجّه الأستاذ فهيم للسّوق لشراء بعض الأغراض الضروريّة للبيت، ليفاجأ وجهًا لوجه بصديقه (أبو غليون)، عندما دخل دكّان سعفان، اتّسَعت حدقتاه، ورفع نظّارته ليمسح عيناه، ظنًّا منه أنّه قد أخطأ الهدف مُتَوَهمًا ما يرى.

يتّخذ ماجد المبادرة بالترحيب الحارّ بالأستاذ فهيم، عندما لاحظ حيرته، ليصرف نظره مبدئيًّا عن (أبو غليون): أهلا أستاذ فهيم، تفضّل اجْلِس على الكرسي.

- الأستاذ فهيم: شكرًا يا ماجد، ربّي يحفظك لوالديْك، دعني قليلًا حتّى أسلّم على صديقنا الشّاعر(أبو غليون)، منذ أسبوع أو أكثر لم نلتق.

- مشى أبو غليون باتّجاه الأستاذ الذي يخطو باتّجاهه أيضًا، وقال: أهلًا أستاذ، كيف حالك؟. وتعانقا بحرارة.

- الأستاذ فهيم: أنا في غاية الشّوق إليك، افتقدتُك البارحة عندما اجتمعت بالأستاذ عطاالله في مجلسنا المعتاد عند عكّاش، وسألته عنك، ولا أدري لِمَ لَمْ يُخبرني بقدومك؟، لتأتي معه، ونأنس بالحديث معاك.

- أبو غليون: أستاذ فهيم، أشكرك على طيب مشاعرك، وسؤالك للاطمئنان عنّي، في الحقيقة، اتّصل أخي بي، وأخبرني بمرض الوالدة، وأنت تعلم أنّ الوالدة لا غني لنا عنها فهي حياتنا، بل هي كلّ الدّنيا بالنسبة لي شخصيًّا، فأنا أصغر أبنائها، المُدَلّل عندها، ولكنّ الأيّام باعدتنا.

- الأستاذ فهيم: الله يحفظها ويعافيها، خير إن شاء الله، ما بها؟

- أبو غليون: الله يخليك يا أستاذ، أصابتها نوبة برد، وصارت الحرارة والبرودة تتناوب عليها، وجسمها ضعيف لا يحتمل الحمّى القاسية، والحمد لله، وقفتُ بجانبها في مستشفى المُوَاسَاة لمدة يومَيْن، وأكياس (السّيروم) معلّقة في

الوريد، حتّى استقرّت حالتها، ولم يدخل الطّعام إلى جوفها أبدًا، وكنتُ قلقًا جدًّا، وكلّ قليل أذهب لمكتب الطّبيب المناوب، وأسأله عن حالتها.

ماجد واقف قريبًا منهما، وهو ينصت باهتمام إلى حديثهما، رغم أنّه لا يهمه كثيرًا، لكنّه شعر أنّ الأمور كلّها متشابكة، وتنطلق باتّجاه واحد، لعلّه يسمع شيئًا جديدًا، في خصوص قضيّة النّمس، يضحك في داخله، وهو يردّد في سرّه: (***سجّل عندك يا تاريخ***)، صوت أبيه يقطع عليه مُتعة الإنصات، حينما طلب منه جلب بعض الأغراض من المستودع، لوضعها في مكان فارغ في واجهة المحلّ، من حسن الحظّ أنّ الزبائن لم يأتوا في هذه السّاعة، فكانت فرصة مُواتية لسعفان كي يتجاذب أطراف مع الأستاذ فهيم، الذي لا يراه إلا على فترات متباعدة، حينما يأتي لشراء غرض ما، وفرصة أخرى للتعرف على (أبو غليون) الوافد المجهول، المثير لفضول النّاس بمظهره الجميل و الأنيق، وغليونه الذي لا يفارق فمه، وكثيرًا ما يتندّر البعض عليه، بأنّه لا ينزعه من فمه حتّى وقت النوم.

الأستاذ فهيم يتأمّل قسمات وجه (أبو غليون) وهو يتحدّث عن مرض والدته الوهمّي، ويُبدي اهتمامه بحديثه، وهو يعلم في قرارة نفسه أنّه كاذب، يستمع بأذنيه، وعقله يحلّل مواقف أخرى، مبتعدًا أو مقاربًا في لحظات تلك الجلسة، وهو يردّد لنفسه: يا إلهي..!!،

(***الكَذِب غناة يا شعاع***)، و يُرْوَى: بأنّ (شعاع) كانت تنادي على زوجها، بأن يمنع البقرة التي صعدت على السلّم الخشبيّ المتّكىء على الحائط، وهي تحذرّه، بأنّ البقرة صعدت السُلّم، فانتبه، ضحك من قلبه بحرارة، وقال لها: هو الكذب فيه غِنَىً لك يا زوجتي، الجيران سمعوا حديثهما، وراحت مثلًا.

ويتابع الأستاذ فهيم، حديث النّفس: (***إلْحَقْ العَيّار لباب الدار***) أو الكذّاب، ولولا العيب لقلتُ له في وجهه: (***وَطّي يا ظاهر***)، وظاهر رجل من أهل القرية، في بداية الرّبيع خرج لزيارة الحقول لمعاينة الزّرع، رجع للقرية وهو يمدح الزّرع لمن سأله، فقال: ما شاء الله، الزّرع يصل لِسُرّة الرّجُل.

قال أحدهم له لما يعلم من كذبه: وَطّي أي انْزِل للأسفل قليلًا، فنزل قليلاً إلى الزنّار(وسط الجسم)، فطالبه بالنّزول أكثر، ثم إلى الفخذيْن، ولم يزل يطالبه

بالنّزول أكثر فأكثر، حتّى بلغ القياس الحقيقيّ للزّرع، بأنّه لا يتعدّى الشّبر، أي حوال ٢٥ سم.

ولكن للكذب نهاية، وأنا سأبقى قريبًا منك يا (أبو غليون) لأرى إلى أيّة محطّة ستصل من خلال كذبك، مرّة ثانية أعتقد أنّك درست الكذب بطُرُقُه المُلتَوِيَة، وتأليفه، ونِلْتَ في ذلك رسالة دكتوراه.

- أبو غليون: أستاذ فهيم، في نيّتي اليوم القيام بزيارتك هذا المساء.

- الأستاذ فهيم: على الرحب و السّعة، بكلّ أسف، اليوم مشغول، عندنا دعوة عامة في بيت سليطين، بعد العصر. الأستاذ فهيم، قال ما قال، لما يعلمُ في قرارة نفسه أنّ (أبو غليون) يعلم بحقيقة الأمر، و أراد أن يمتحنه.

- أبو غليون: وهل هناك من مأخذ من حضوري معكم، أو مانع.

- الأستاذ فهيم: أبدًا لا مانع، فأنت أصبحت واحدًا منّا، وأنا شخصيًّا أرحّب بك، و أن أدعوك إلى بيت ابن عمّي.

- أبو غليون: أشكرك أستاذ على لطفك الجمّ الآسر لقلبي، ولا أدري كيف أردّ لكم هذا الجميل، سأخبر الأستاذ عطاالله أنّني سأرافقه، حتّى يخبرني عند خروجه من بيته، أكيد هو سيكون من المدعوّين.

***

حوارٌ ونقاشٌ حادٌ تَضِجُّ به جنبات مضافة سليطين على اتّساعها فهي تغصّ بالحضور، منهم من حضر مُبّكرًا، ومنهم من جاء متأخّراً.

بحضور الأستاذ فهيم مع فارس صديقه، وظلّه الذي لا يكاد يفارقه، في معظم أوقاته وجلساته، وقد أصبحا ثنائيًّا مُقْتَرِنًا في أذهان النّاس، بأنّهما لا يفترقان إلا وقت النوم.

ومن ثمّ تلاه حضور الأستاذ عطاالله مع صديقه وجاره (أبو غليون)، هنا انتبه الجميع، ووقفوا تحيّة للضيف القادم مع الأستاذ، تهامسوا فيما بينهم، ما هذا الغريب الدّاخل علينا من كلّ الأبواب، ونحن (***لا نعرف من وَيْنْ قَرْعَةْ أبوه***)، وقال آخران (***إلحقْ البوُمْ، فَيُدُلّكَ على الخراب***)، بشكل دائم هذه النظرة الخائفة من الغرباء متجذرة في نفوس أهل القرى، والغريب بينهم كما يقال:

(***كالثّورالأبْرَقْ***) معروف لهم جميعًا، وهم يعرفون بعضهم بعضًا.

رغم هذا التهامس، فقد قام أحد الحضور من مكانه في صدر المضافة إكرامًا للشخص الغريب، واحترامه من احترام الأستاذ عطاالله، فالأستاذ لم يكن ليتصرف من تلقاء نفسه، بالموافقة على جلب (أبوغليون) معه في مثل هذه الحالة، لولا أنّه أرسل ابنه لاستئذان سليطين صاحب الدعوة، ونال موافقته، ومباركته.

اختلفت الآراء حول طريقة معالجة الموضوع، سليطين ينصت باهتمام لكل ما قيل، إلى أن استوتْ الأمور. وجاءت فرصته لإثبات أنّ رأيه هو الأخير، وهو يوجّه قوله للأستاذ فهيم، مباشرة دون الآخرين: أستاذ فهيم، هل معك قلم في جيبة الجاكيت.

- الأستاذ فهيم، هزّ رأسه موافقًا، وقال: نعم، هل تريده؟.

- سليطين: سلّمك الله أستاذ فهيم، بل أريد أن أعطيك ورقة بيضاء، لتكتب لنا بخطّك الجميل معروضًا للمحافظ، تشرح له فيه ما حدث عندنا، ومطالبتنا بنقل، ومعاقبة العنصر رامز، والمعلمة شمسة على سوء وشنيع فِعْلَتهما؛ لأنّهما موظّفان عند الدّولة، وعلى الدّولة أن تتولّى معاقبتهما، وفق نصوص القانون، وبعد أن تنتهي من الكتابة، من فضلك أن تقرأه علينا جميعًا بصوتك، حتّى يعرف جميع الحضور، على أي شيء سيوقّعون؛ لأنّنا نريد توقيع أهل القرية جميعاً بأغلبيتهم.

انخرط الأستاذ فهيم في الكتابة، وصياغة العبارات بالشكل اللائق لتلقى القبول لدى المسؤولين، بينما الكلام الخافت يسيطر على أجواء المجلس، فكلّ اثنان يتناجيان.

- أبوغليون: أخ سليطين، أحيّيك على هذه الجرأة للقيام بهذه المهمّة نيابة عن القرية، وهذا ما ينبىء عن طيب أصلكم ومنبتكم، و حرصكم على مجتمعكم.

- سليطين: أشكرك يا أستاذ، هذا من ذوقك، وأهلا بك مجدّدًا في بيتي، وأنت أخٌ عزيز لنا جميعًا.

- أبوغليون: لي صديق من أيّام الخدمة العسكريّة، يعمل في مكتب المحافظ، وسأتواصل معه، من أجل دعم طلبكم، وتسهيل مهمّة الوفد الذي سيذهب لمقابلة المحافظ بهذا الخصوص.

- الأستاذ عطاالله، يرفع رأسه شامخًا، وقد أشرق وجهه، وتهلّل لما سمع من كلام(أبوغليون)، وأعرب عن مشاعره المتواثبة فرحًا وسرورًا: أستاذ نِعْمَ الرّجُل أنت، مثلك هم أبناء المجتمع الصّالحون، بك نفتخر.

في هذه الأثناء يرفع الأستاذ فهيم رأسه، ويمسح عينيْه من تحت النظّارة، ثم يعيدها، ويجول بنظره في أرجاء المجلس، يتنحنح؛ لتنبيه الغافلين لكي يسمعوا ما سيقول، وهو يتلوا ما كتب، نالت الورقة على الاستحسان بإجماع الحضور، و لم يطلب منه أيّ تعديل، فكان هو أوّل من وقّع عليها باسمه الثلاثيّ بعد انتهائه من القراءة، تداولتها الأيدي، وبلغت التواقيع خمسين، بما فيها توقيع (أبوغليون) الذي لم يتردّد في الانضمام للمجموعة، الحيرة ملأت عقل الأستاذ فهيم، فاستغلق عليه فهم ما يحصل، وهو يحكّ رأسه، مما رأى العجب العجاب، من أمر (أبو غليون)، ويحدّث نفسه: لا أدري في أيّة خانة أريدُ تصنيفك يا (أبو غليون)، شيءٌ محيّر، تفكيري مُرْتَبِكٌ، محاولًا أن أفهم سرّ هذا الرجل، وقد استعصى عليّ. مما يحدث أمامي، ولم أجد تفسيرًا شافيًا كافيًا لي.

***

(٢١)

أمّ شحدة ابنة خالة أمّ فرج زوجة النّمس، من اليوم الأول لحادث أمّ فرج، ومنذ أن سمعت الخبر من ابنها شحدة، فاضت عواطفها بألم عميق، نابع من توجّعها لابنة خالتها، التي عانت طويلًا في حياتها الزوجية مع النّمس، حياة كانتْ مُجبَرة عليها، فلا خيار أمامها إلا المتابعة بأعصاب مشدودة، ولسان صامت، وقلب ماتَت فيه كلّ أشواقه وآماله، مُفسحًا المجال للآلام المكبوتة.

تقول لأمّ شحدة، عندما سمعت صوت إغلاق الباب الخارجيّ، وهي مطمئنّة إلى أنّ زوجها خارج البيت: صبرتُ حتّى ملّ الصبر منّي، كتمتُ مآسِيَّ في قلبي الذي مات من أوّل المشوار، بلّلتُ رغيف خُبزي بدموعي، لا مفرّ من هذا يا بنة خالتي، وأنتِ تعلمين من حالي بلا شرح وتفصيل، أكثر منّي.

تأوّهات أمّ شحدة تحاول جاهدة أن تخفيها في صدرها؛ لرفع معنويّات أمّ فرج كي تتماثل للشّفاء العاجل، تغالبُ دموعها، وهي تتشاغل، وتبتعد بوجهها عنها باتّجاهات أخرى، ومن ثمّ قامت خارج الغرفة، لتعبئة إبريق ماء الشّرب من الخابية (إناء فخاريّ مفلطح) في زاوية من ساحة الدار الفسيحة، مُجَلّلة ببيت على مقاسها من الحجر و الطّين.

الهُزال بادٍ على وجه أمّ فرج المائل للاصفرار، عيناها غارتا إلى محجريْهما، وجنتاها نفرتا لِتُؤَطِّرا هيكلًا عظميًّا، كما هياكل الجوع في أفريقيا، ومناطق الكوارث، وَهَنَتْ قُواها يومًا بعد يوم، صدود نفسها عن الطعام، إلاّ إذا أجبرت نفسها على قبوله، تذوي نوّارة وجهها شيئًا فشيئًا، تحلمُ بتماثلها للشّفاء، وأن تقف على قدميها من جديد، وتبرّ بنذرها، وأن تعمل مولدًا احتفاليًّا من أجل ابنها، ويعمّ الفرح نساء الحارة معها بخطبة ابنها، وقبل ذلك بوظيفته التي حصل عليها،

وتتمنّى أن تراه يلبس بدلة العرس، أمنية كلّ أمٍّ، خاصّة إذا كان وحيدها، فيكون الأمر أكثر عمقًا، وأشدّ حرارة في التلهّف للوصول إلى هذه اللّحظة.

أمّ ماجد زوجة سعفان، أكثر الجارات قُربًا لبيت أمّ فرج، في كلّ صباح بعد أن يذهب زوجها للعمل في دكّانه، وانتهائها من أعمال بيتها، وتكليف بناتها الصّغار ببعض الأعمال الخفيفة، من فورها تقصد جارتها المريضة، الحنان سجيّة في نفسها مثلها كمعظم النّساء خاصّة في الأرياف، العلاقات مُتداخلة لا يمكن لأحد أن ينفصل عن محيطه مهما بلغ به الأمر، فهو بحاجة للآخرين، والآخرين بحاجته.

أمّ ماجد تندفع بعاطفتها، لخدمة المحتاج بلا طلب، وإذا كانت امرأة مثل أمّ فرج، فهذا مما يزيد في حماسها، وعدم توانيها في ذلك، وتجده لزاماً عليها، والحزن يتعمّق في نفسها عندما تتأمّل وجه جارتها المريضة، خاصّة وهي تراها تذوب في كل يوم، ولم يطرأ عليها أيّ تحسّن للأفضل.

اندفعت معظم نساء الحارة إلى مساعدة أمّ فرج، و الوقوف إلى جانبها في محنتها المختلفة عن محنة الأخريات، فهي غريبة عن القرية، فوالداها فارقا الحياة في زمن مُبكّر من حياتها الزوجيّة، ولم يبق لها إلا أختها التي زارتها من فترة قريبة، وأمّ شحدة بقيّة من أهلها، ولكنّ بيتها يبعد مسافة من هنا، في طرف القرية الغربيّ، وابنتها متزوّجة في قرية أخرى بعيدة عن أمّ الخنافس.

***

رجع (أبو غليون) إلى أمّ الخنافس من جديد، بعد رحلة إلى العاصمة، حفّها الغُموض لمن تساءل عنه، كالأستاذ فهيم وغيره، ربّما كانت إجابة الأستاذ عطاالله غير شافية، فهو صادق، واعتاد على تصديق الآخرين، ولم يخطر بباله، ولو لمرّة واحدة أن يبحث فيما وراء ذلك، لإثبات الكذب، فهو دائمًا يردّد أمام سامعيه: أنا غير معنيّ بالبحث عن خصوصيّات الآخرين، ومن الواجب عليّ تصديق ما

يقال، إلا أن يثبت عكسه بطريق المصادفة المحضة، أو يأتيني خبر يقين من صاحب العلاقة.

أمّ الخنافس على أبواب مرحلة جديدة، سيفتتح موسمها (أبوغليون)، فهو يحمل صورة واضحة دقيقة عن أبسط الأشياء في القرية السّاهية اللّاهية، الغارقة في مُنافسات أهلها على لا شيء، سوى الفقر، فالمنافسة على الفقر غايتهم العظمى.

مصطفى عاد للقرية منذ أيام مُتَكَتِّمًا على أسراره، مما جعل منه شخصًا غامضًا، طبيعته منعزلة في تشابك علاقاته مع الآخرين، صداقاته محصورة في عدد لا يتجاوز أصابع اليدّ الواحدة، لم يتكلّم بما حصل له أثناء عودته من قبرص، و بالتّالي لم يعرف أحد حتّى زوجته لا تعلم بذلك، فيقول عن نفسه: منهجي الكتمان، فكثرة الثرثرة تأتيك بوجع الرأس، و المشاكل ذات الأوجه المتعدّدة من كلّ حَدبٍ وصوْبٍ، وفي صغري تعلمتُ أن (***كلّ سرٍّ جاوز اثنين شاع***)، بلى إنّ السرّ إذا خرج من محبسه في صدري، فلا ضمانة لي من انتشاره، مهما كانت الاحترازات و الاحتياطات.

فإذا لم أكنْ صبورًا على حمل سرّي في داخلي، فلا أعتقد بجدارتي بأن أسمّيَه سرًّا، حتّى أَأْتمن عليه أحدًا، و الصداقات في هذه الأيام أغلبها يتّسم بالمصلحة، فالخلُّ الوفيّ من النّوادر، وأمّي لا زالت تردّد (***إذا كان بِفَمِك دمّ، لا تبصقه أمام أحد***). أثناء تمشاية (مشوار) مسائيّة الأستاذ عطاالله برفقة(أبو غليون) على طريق مدخل القرية، تصادف أن التقوا بشابّيْن يمشيان، حدّق بهما (أبو غليون) ليحفظ ملامحهما، ألقيا التحيّة وتابعا سيرهما، توجّه أبو غليون بسؤاله للأستاذ عطاالله عن هويّتهما.

- الأستاذ عطاالله: أحدهما اسمه مصطفى، والآخر لا أعرف اسمه، تقريبًا هو من الحارة الشرقية.

- أبو غليون: مثلما تعلم، أنّ الغريب مثلي كلّ شيء يلفت نظره، وعلى اعتبار أنّني مقيم معكم هنا منذ أشهر، أحبّ أن أتعرّف على الجميع بلا استثناء.

- الأستاذ عطاالله: سامحك الله يا جاري، لا غريب إلا الشّيطان، ولا مانع في أن تتعرّف على النّاس، فمعرفة الرّجال غنيمة، ومعرفة الأنذال شتيمة.

- أبو غليون يضحك بصوت عالٍ، وقال: يا أستاذ لولا وجود النساء في الدّنيا، فإنّني لا أستطيع كتابة بيت شعر واحد، ومؤخّرًا لمعت في ذهني فكرة عبقريّة، من وحي سفرتي الأخيرة للعاصمة، هناك التقيت بفتاة غاية في الجمال و الأدب، ضمّتنا جلسة عامرة بالأدباء، و الأجمل من ذلك أنّها شاعرة ومشهورة، في الحقيقة فقد خطفت وَعْيِي بما حولي، وشردتُ بعيدًا في بحرٍ لُجيٍّ بعيد الغور في معين عينيْها.

- الأستاذ عطاالله: كانت مُلهمةً لك كأنّها شيطان عبقر، ومحرّضة مشاعرك للكتابة.

- أبو غليون: استفزاز للمشاعر غير معقول يا أستاذ، فلو رأيتَها لكان لك من أمركَ عجبًا، و لجادت قريحتك على الأقلّ بقصيدة واحدة.

- الأستاذ عطاالله: الكلمات ستبقى حبيسة الصّدر، ربّما لا تخرج أبدًا، جامدة في صقيع داخل القلوب، إذا لم يكن هناك محرّض لإخراجها على شكل ما، وأجمل من يجيد التعبير عن هذه الحالة هم الشّعراء وحدهم.

- أبو غليون: أحَييك من قلبي يا أستاذ، ربي أعطاك سعة صدر، و استيعاب كلّ حالة بخصوصيّتها، و بكلّ شفافية، ولا تخلط بين الأشياء، فكلٌّ تُعطيه حقّه بالتّمام، و الكمال دون نقص أو إجحاف، ويعجبني طبعك بأنّك لا تبخس النّاس، ولا تجحف بحقّهم، فأراك أنّك تُنْزِل كلّ شخص منزلته الحقيقيّة بتواضع و احترام.

- الأستاذ عطاالله: أرى نفسي أنّني قريب من كلّ أهل القرية بلا استثناء، ابتداء من أقاربي، وحتّى أبعد شخص نَسَبًا عنّي.

- أبو غليون: هل هذا الشاب مصطفى من أقاربك؟.

- الأستاذ عطاالله: هو من عشيرتنا، لكنّه من فخذ آخر، وأهله من النّاس الطيّبين، وهو أيضًا من المتميّزين، دافيء الطّباع وَدُودٌ بمعاملته مع الآخرين، لا مشاكل له مع أحد، وهل هناك من شيء دعاك للسؤال عنه؟.

- أبو غليون: لا أبدًا، وجهه ذكّرني بأحد أخوالي، سبحان الخالق، فقد خلق من الشّبه أربعين، وللوهلة الأولى فقد دخل قلبي، وَدِدتُ لو أنّي تعرّفتُ عليه من توّي.

- الأستاذ عطاالله: الأيّام طويلة، وستتعرّف عليه.

أبو غليون يضرب أخماسًا بأسداس، وهو ينصتُ باهتمام لكلّ كلمة يقولها الأستاذ عطاالله، ويعتبرها معلومة جديرة بالاهتمام، مصطفى اسمه وَرَدَ في تعليمات العميد مدير الفرع، و يشرد في مخاطبة نفسه: فمصطفى هو صاحب خارطة الكنز، ويعلم مكانها المقصود بالتّفصيل، لذلك وجب عليّ أن أبحث عنه فيما بيني وبين نفسي أوّلًا، لعلّي أهتدي إلى طريقة للتقرّب منه بدون أن أثير أيّة شبهة في علاقتي معه، بداية كي أرسل كامل المعلومات خلال عشرة أيّام هي المهلة التي أعطاني إيّاها العميد، لموافاته بكافّة المعلومات بجلاء ووضوح، وبعد ذلك أنتظر لتلقّي تعليمات جديدة.

***

الأيّام تطوي حبالها من عمر أمّ فرج، أسبوعان لا غير منذ أن وقعت، إلى أن لفظت آخر أنفاسها عصر هذا اليوم، تزامن مع زيارة أختها أمّ حميد لها من القرية المجاورة، ما إن سمعت بخبر أختها حتّى بادرت من فورها للمجيء إليها.

كان من الصعب على نفسها، أن لا ترى أختها في مرضها الأخير، فجادت الحياة عليها باللّقاء الأبديّ الأخير، وبإلقاء النظرة الأخيرة على وجه أختها وهي تفارق الدّنيا، قبل أن تغمض عينيْها، وتُغطّي وجهها بملاءة بيضاء، صرخت من عميق نفسها صوتًا ارتّجتْ له الأرجاء، حرّكت الصّمت الرّاكد المميت في البيت، الذي لم يختلف كثيراً عن القبر فهما سيّان، فراق النّمس بحدّ ذاته راحة، حتّى وإن كان للقبر، هكذا قالت أمّ حميد، وهي تنعي أختها أمّ فرج، بحضور نساء القرية على اختلافهنّ، ففي حالات الوفاة، و الفرح يجتمع الجميع، مهما كان بينهم من التّباعد و القطيعة. النّمس رجع للبيت، فوجىء بهذا الكم الهائل من اجتماع للنّساء.

النّمس من غرفته مُتَحامِلًا على أوجاعه، و يتهادى على عصا غليظة اتّخذَها عُكازًا يتوكّأ عليها، و يستعين بها على توازن جسمه، بحدسه الذي لم يخب هذه المرّة، فكما توقع أنّ اللّعنات من الألسن تنصبُّ عليه، وقد سمع بعضها يتنامى

إلى سمعه من النّساء اللّواتي يبكين زوجته، و دون سؤال أحد جلس على حجر بجانب السّور، ووضع رأسه بين يديه، يرمي بنظراته إلى الأرض، يتابع أسراب نمل تتحرّك بهمّة، ونشاط بلا كلل ولا ملل، ولم تأبه الأسراب بالحدث الجلل في بيت النّمس، ولم تتوقّف عن العمل.

دالية العنب لم تورق هذه السّنة، إلا من بضع وريقات مُتفرّقة، كأنّها شاخت، وهرمت مع اليدّ التي غرستها، منذ اليوم الذي وقعت فيه أمّ فرج، ذبلت مجموعة الوريقات المتناثرة على أغصان الدالية إلى أن جفّت، كأنّ الحزن تسرّب إلى نُسغِها، وأخذ منها كلّ مأخذ، فموتها بطيء لم يلحظه أحد، إلا بعد أن بَانَ تَيَبّسها مع موت أمّ فرج.

نساء القرية بلا استثناء، بَكَيْنَها بُكاءً مُرًّا، وهنّ يتداولن سيرة الظّلم، والصّبر عليه.

أمّ فرج يا جبلًا من الصبر..

أمّ فرج يا قدّيسة الأحزان..

عليك الرّحمة.

رثاء تلهج به الألسن، مقترنًا مع صبّ اللّعنات صبًّا على النّمس في السرّ و العلن، وسيرته السيّئة الذّكر تحكيها الألسن على كلّ الأصعدة، وفي كلّ المجالس.

***

تعيش القرية أيّامًا على ذكرى أمّ فرج، تترحّم عليها، وهي تحكي سيرة حياتها مع زوجها، وقبلها مشكلة مرعي بن المنحوس مع أبيه، وقبلها غرق أخيه، و موت أمّه.

أبو غليون يعمل بصمت و جدّ، ونشاط، لا يأبه لما يدور حوله، بقلب جامد لا يعاقر العواطف أبدًا، ضرب وعدًا لرجال القرية بمساعدتهم في مكتب المحافظ.

في طريقه إلى العاصمة في مشواره الثّاني، مرّ على فرع المخابرات في المحافظة، اجتمع بالعقيد رئيس الفرع، بدأ بالحديث: سيدي هذا العنصر رامز في مفرزة قرية أمّ الخنافس، قام بفعل شائن، وهو أمر لا يمكن السّكوت عنه، وبحضوري اجتمعت القرية عن بكرة أبيها، بتصميم وإرادة قويّة، وخرجوا بقرار، أنّهم كتبوا معروضًا لتقديمه للمحافظ، يتضمّن نقل العنصر، و المعلّمة شمسه إلى مكان آخر.

- العقيد: وصلني تقرير من المفرزة، لكنّه أقلّ لهجة مما تقول.

- أبو غليون: سيّدي في الحقيقة أنّه في اللّيلة التي حصل فيها لقاؤه بالمعلمة في بيت أحد المتعاونين معهم هناك، واسمه النّمس، كنتُ أنا في مهمّة في دمشق، ولما رجعتُ وجدت الأمر أمامي.

- العقيد: يعني أنّ رئيس المفرزة متعاطف مع العنصر، ويحاول التّخفيف من حدّة المشكلة.

- أبو غليون: سيّدي، هذا ما تأكّد عندي بما لا يدع مجالًا للشكّ، ولو بأدنى درجاته، وبإمكانك التأكّد بأسلوبك الخاص، بما يثبت صحّة ما قلتُ لك.

- العقيد: سأفعل، وسأفرض عقوبة بحقّ رئيس المفرزة، ومعه العنصر.

- أبو غليون: أطلب منك سيّدي، أوّلا أن تتصل بالمحافظ، كي يستقبل الوفد، ويُبدي استعداده لمساعدتهم في تلبية طلبهم، كما أريدُ منك يوم قدوم الوفد، أن تُرسلَ عنصرًا ليستقبلهم هناك، على أنّه موظف في مكتب المحافظ، كي يطمئنّوا، كما وَعَدْتُهُم بأنّ هناك أحد أصدقائي يعمل على مساعدتهم.

العقيد، من فوره يرفع سمّاعة التّلفون، ويبدأ بالسّلام أوّلا بتحيّة الصّباح، ويخبر المحافظ بطلبه بخصوص وفد قرية أمّ الخنافس، واستقبالهم بما يليق بحفظ ماء وجههم، وإبداء كلّ ترحيب بتلبية طلباتهم في وقت قريب جداً.

أبوغليون، يُبدي مخاوفه، وأنّه إذا لم يتم نقل رامز و شمسة فورًا أن يتمّ الاعتداء عليهما، و بالتّالي تتدنّى هيبة ورهبة الدّولة في نفوس الأهالي، مما يشجّعهم على أفعال أكبر من ذلك مستقبلاً.

- العقيد: معك الحقّ أستاذ، وهذا ما أقلقني، وأنا أستمع لحديثك بالتّفصيل الدّقيق بخبرتك الرائعة.

- أبو غليون: أشكرك سيّدي على تفهمّك، والآن عليّ الاستئذان من حضرتك، لمتابعة سفري إلى دمشق، أمامي مهمّة، وعند عودتي سأخبرهم بموعد مقابلتهم مع المحافظ، وسيكون لي لقاء آخر معك لمعرفة ذلك منك، عند عودتي خلال يومين.

- العقيد: بالسّلامة و التوفيق.

في القرية لم يلحظ أحد غياب (أبو غليون)، إلاّ ماجد الذي رآه يصعد الباص، ماجد جاء مبكّرًا للمحل، والده سعفان طلب منه أن يأخذ مفتاح المحلّ ليفتحه، وسيلحق به بعد ساعة أو أكثر؛ لأنه على موعد ضروري مع أعمامه للذهاب إلى كاتب العدل لتوقيع عقود التنازل لإخوته و أخواته عن التّركات التي ورثها عن أبيه، عندما قرّر الورثة بتوكيل مُحَامٍ للقيام بكافّة الإجراءات؛ لحصول كلّ فردٍ منهم على سندات التمليك بحصّته.

سجّل عندك يا تاريخ، يخاطب ماجد نفسه، وهو يحكّ رأسه؛ محاولا إيجاد سبب لسفر(أبو غليون)، عادت يده مُسبَلَة إلى جانبه، خابت كلّ تفسيراته.

***

بعد يومين بالضّبط من سفره، عندما لاحظه ماجد ها هوذا يعود للقرية، سجّل عندك يا تاريخ، قالها ماجد، وهو يراقب باهتمام وقوف الباص ليرى من عاد من سفر، فكان آخر راكب ينزل من الباص هو (أبو غليون)، ماجد على صغر سنّه، لا يعرف كيف له أن يستثمر المعلومة التي يحصل عليها، بطريقة تُحَوّلها إلى حدث، كثيرًا ما تأتيه كالكُرَة المُتَدحْرجَة تستقرّ أمام قدمه، فما كان منه إلا أن يركلها بلا مبالاة.

بعد وصول (أبو غليون) مباشرة، استقبلته زوجته بكلّ شوق، تعانقا طويلاً، ولمّا غفل الأولاد عن عودته، واستغراقهم في اللّعب في ساحة الدار وخلفها، كانت فرصة سانحة للقاء حميميّ، كان يحدث نفسه به، وتمنّاه، جاءت الأمور (***كَرَمْيَةٍ من غير رام***)، قُبَيْل العصر بقليل غَفَتْ عيناهما لنصف ساعة، وهما ما زالا في عُريِهِمَا تحتَ الغطاء، فاستعاد بغفوته تلك نشاطه وحيويّته.

قام للاستحمام، وتبديل ملابسه الداخليّة المثقلة بالتعرّق، ووعثاء السّفر على مدار يومين مُتتالييْن، استراح قليلًا، تناول طعام الغداء، وأرسل ابنه الكبير ذي السّنوات السّبع إلى بيت الأستاذ عطاالله ليخبره: بأنّ البابا سيمرّ عليك بعد نصف ساعة، كانت السّاعة وقتها حوالي السّادسة مساءً.

(أبو غليون) في نيّته نشر خبر وساطته للوفد عند المحافظ على أوسع نطاق في القرية، وهذا الأمر سيفتح له بابًا جديدًا للدّخول إلى دهاليز العلاقات الاجتماعيّة بثقة، ودون سِتَارٍ، فَسِتَارهُ الآن الذي يتحرّك من خلاله كلّ هذه الفترة هو الأستاذ عطاالله، فكان الأستاذ عرّابًا، من دون أن يدري بأنّه عرّابٌ.

الجوّ لطيف مُغْرٍ بالمشي المسائيّ، وهي عادة درج عليها النّاس في القرية، عند الانتهاء من أعمالهم و للترويح عن أنفسهم، للخروج من هموم العمل الدّائم.

فالمحطّة الأولى حسب خطة (أبو غليون) هي دكّان عكّاش، يعتقد أنّها المكان المناسب للجلوس لساعة من الزّمان، وتجاذب أطراف الحديث مع المتواجدين هناك، لنشر الخبر على ألسنة أبناء القرية أنفسهم.

فهو يرسم طريقاً مغايرًا لسير الحدث، بحرفيّة عالية التقنيّة، متخفّيًا تحت ستار صداقات بريئة صافية النّفس تحترم الآخرين، ليس صعباً على أيّ واحد مثله أن يخترق هذه المنظومة الهشّة، فهي كإسفنجة تمتصّ كل ما يصادفها، وإن كان بأدنى البلل، حتّى و إن لم يكن خارقًا بطبيعته كما (أبو غليون)، العارف لطريقه بدقّة متناهية، وهو يمثّل بدوره يدًا خفيّة تُحَرّك الأحجار على رقعة الشّطرنج، بما يخدم أهداف وظيفته، فهو مخلص لها؛ لإثبات ذلك لرؤسائه، وبالتّالي سيحصل على ثقتهم وأعطياتهم، وارتقائه أعلى درجات الوظيفة بكلّ مكاسبها، وهي مَطمعٌ يطمح إليه، وسبيله إلى ذلك العمل المستمرّ و الحثيث.

في دكّان عكّاش شربا القهوة المُرّة من يدّ عكّاش، عبقها مُعَشعِشٌ في العقول، تتهيّأ النّفس لجُرعَة منها، ولو فنجانًا واحدًا، مجرّد رؤية الدّلة النحاسيّة، وهي تعكس أشعّة الضوء المنبعثة عبر النّافذة، فتفيض على النّفس اشتهاءً يسري مع الدّم صار كالإدمان.

- الأستاذ عطاالله، يتوجّه بحديثه إلى عكّاش على مسمع (أبو غليون): لا أدري كيف لي أن أشكر جاري الأستاذ (أبو غليون)، ذلك الإنسان، الذي تجشّم الصّعاب، واقتطع لنا جزءًا من وقته، فقد ذهب للمحافظة، وكان أن حدّد موعدًا لوفد القرية لمقابلة المحافظ؛ للمطالبة بتنفيذ مطالبنا، التي اجتمعنا من أجلها ذاك اليوم في بيت سليطين.

- أبو غليون: يا أستاذ لا شكر على واجب، فأنا أعتبر نفسي واحدًا منكم، ومحسوبٌ عليكم.

- عكّاش يهزّ رأسه علامة الإعجاب لما سمع من كلام الأستاذ: يا عمّي(***من عاشر القوم أربعين يومًا، صار منهم***).

- أبو غليون: أخجلتموني يا جماعة الخير، فعلًا أنا ما عملت إلاّ ما يميله عليّ ضميري، وأنا أكلتُ من خير هذه القرية، من المفترض بي أن أخلص لها و لأهلها، وأحبّ الخير لهم كما أحبّه لنفسي.

- الأستاذ عطاالله: يعلم الله كم أنتَ قريب منّا جميعًا، ولك من الحبّ و الاحترام في قلوب كلّ من ألتقيهم ممن يعرفونك، وأنا أسمع منهم ما يقولونه بحقّك.

***

ما يشغل بالي في الحقيقة شيء محيّر، لا أدري أهُوَ ملاك أمْ شيطان؟، صادق أو كذّاب؟، دجّال أو حكيم؟، يتلاطم الكلام في مخّي، كموج عاتٍ يجرف ما

يأتي في طريقه، الخوف سيقلقني إذا خاب ظنّي بهذا الرجل: الأستاذ فهيم يخاطب صديقه فارس.

- فارس: أبدًا أستاذ، أنا أثق بعمق نظرتك الثّاقبة.

- الأستاذ فهيم: لكن هذه المرّة، فلا، للآن لم أستطع إثبات نظرتي، تجاه (أبو غليون)، ظهر لنا أوّل أمره شاعرًا عاشقًا وَلِهًا، ذو لسان ذَرِبٍ، وذكاء حادّ، يعرف هدفه بدقّه، والكيفيّة المُثْلى للوصول إليه، وأخرى تأتينا أخباره المخفيّة من هنا وهناك، أنّه ضابط مخابرات، يقوم بمهمّة سريّة قويّة في قريتنا.

- فارس: كلها معطيات صحيحة، ولا غبار عليها.

- الأستاذ فهيم: رغم ثقتي بمن نقل الخبر لنا، إلا أنّه (أبو غليون) لم يظهر عليه الانتماء القويّ للمفرزة، ولم يلحظ أحد دخوله، و خروجه من عندهم، إلا نادرًا مثله مثل بقيّة النّاس.

- فارس: هذه مهمّته بالتّمويه، وهو حاذق ناجح فيها، واللّيل ستّار العيوب.

- الأستاذ فهيم: ألا تستغرب الدّعم القويّ منه لقضيّة الوفد، وموقفه الواضح يوم اجتماعنا، وما سمعته اليوم من خبر تحديد موعد المقابلة مع المحافظ، رغم أنّ رامزًا طرف في القضيّة، وعمليًّا هما محسوبان على بعضهما، أبناء جهاز واحد.

- فارس: هذا شيء طبيعيّ عندهم يا أستاذ، لا بدّ من كبش فداء للتضحية به، وهو سُلّم يُحقّقون على ظهره المكاسب في التّرقيات و المكافآت، ورامز هو الحلقة الأضعف في السلسلة.

- الأستاذ فهيم: ذكّرتني بما قرأتُ سابقًا في طبائع الاستبداد للكواكبي، من أساليب الدكتاتور المستبّد، في العمل على تنفيذ مآربه، خدمة لكُرسيّه، واللّجوء لكل الأساليب المشروعة، و الخسيسة المليئة بالنذالة، والظلم للآخرين من غير أتباع أجهزته أوّلًا، ليكون عبرة لمن يعتبر فيمن يحيد عن الخطّ المرسوم.

- فارس: إنّها حفلة قصْقَصَة الأجنحة، كلّما حاول أحدهم أن يحلّق عاليًا ولو قليلًا، فقط عليهم السّمع و الطّاعة، حاضر سيّدي.

- الأستاذ فهيم: كان الله في عون الشّعب المسكين، فلا حول له ولا قوّة.

ما إن بلغا بمشوارهما المسائيّ لهذا اليوم دكّان عكّاش، فُوجئا بالخبر يسبقهما، فما إن اتّخذا مكانهما جلوسًا على كراسيّ القشّ الصّغيرة، ناولهما عكّاش فنجان قهوة لكلّ منهما، وراح يسرد لهما ما سمع من الأستاذ عطاالله و(أبو غليون). وتمنّى لو أنّهما سبقا قليلًا، لكانا سمعا مباشرة من صاحب القضيّة.

فبينما هم على هذه الحالة، وإذ بهم يسمعون وقع خطوات تقترب من باب الدّكان، سكتوا، انتبهوا إلى الباب لرؤية من سيكون القادم إليهم؟.

- عكّاش قام من مكانه؛ ليستطلع الأمر: أوه ..!!، هذا عريبي، أهلًا بك يا عريبي.

- عريبي يبدو التّعب على ملامح وجهه، ترتسم عليه علامات الدّهشة، يُتأتئ بالكلام على غير عادته، لهاث أنفاسه، وحركات صدره ترتفع وتنخفض سريعة، كأنّه خارج من حفلة سباق، أو من حلبة مصارعة، ملابسه يعلوها التّراب: أهلًا عمّي، دخيلك أنقذني بالماء، حلقي جافّ متيبِّس.

- عكّاش، مشى باتّجاه جرّة الفخّار، وجاء حاملًا كأس ألمنيوم، كأنّ يدَ النّظافة لم تمسّه، منذ أوّل مرّة استخدم فيها عندما كان جديدًا، الله أعلم متى كان ذلك: تفضّل يا عريبي.

- عريبي، تناول الماء من يدّ عكّاش، وهو لايزال جالسًا على بلاط أرض الدّكان الحجريّ، ازدرد الماء على نَفَسٍ واحد دون استراحة، ثم مسح بقايا الماء المحيطة بفمه بطرف كُمّه، وقال: الحمد لله. تنفّس الصعداء، دبّ فيه النّشاط من جديد.

- فارس: من أين جئت بمشوارك هذا يا عريبي؟.

- عريبي: من الحارة الشماليّة.

- فارس: وماذا تحمل لنا معك من أخبار القرية؟.

- عريبي: أهم خبر على الإطلاق على مستوى القرية بأكملها، صغيرها وكبيرها لا حديث لهم، إلا (أبو غليون) ووساطته بتحديد موعد مقابلة مع المحافظ، وهم يأملون بتنفيذ مطالبهم، و الثّناء عليه.

- الأستاذ فهيم: أسمعتم يا أصدقائي؟، ما عجز عنه أهل القرية جميعاً، ها هوذا (أبو غليون) أنقذ الموقف، و وَفّرَ على رجالنا وشبابنا صراعات كان من الممكن أن تؤدّي بهم إلى السّجون، وتُمِيت حياتهم ومستقبلهم، فيما لو اشتبكوا مع رامز و النّمس وشمسة.

- عكّاش: علينا جميعًا في قرية أمّ الخنافس أن نتوجّه بالشّكر إلى(أبو غليون).

***

ترتسم الأفراح خطوطًا في نفوس أهل القرية، كما يرسمون خطوط محاريثهم في الأرض، تهيّؤوا لمرحلة جديدة، وقبلها عملوا على تهيئة الأرض لدورة حياة جديدة، في انتظار المطر؛ كي تحيا من جديد، نشوة الحياة تغزوهم رغمًا عنهم، فتكتسي روح الجماعة بثوب إجماع على منع التعديّات، وهي تتحرّش بعاداتهم وتقاليدهم.

عاد الوفد المكوّن من خمسة أشخاص، وهم(سليطين، الأستاذ فهيم، فارس، حمدان، مصطفى)، في اجتماعهم الأخير تقرّر أن يكونوا أربعة أفراد فقط، ولكن مصطفى أضيف باقتراح من (أبو غليون)، وللاحترام الشّديد الذي رسخ في نفوسهم، ومن حُسنِ صنيعه معهم، لبّوا طلبه بكل سهولة ولين، دون عقبات، أو اعتراضات من المجتمعين.

الزهوّ يتطاير من تباشير وجوهم المبتسمة بسرور عميق، لم يكن ليحصل لأحدهم منذ زمان، بنشوة عجيبة تزدهي بها مضافة سليطين، موئل الانطلاقة الأولى، و العودة ثانيًا لتكون المناسف في استقبالهم، مع الجموع المنتظرة منذ الظهيرة.

- إرحيّم: (***الله يُموّتْ جَمَلْ؛ لُيْطِعِم وَاوِي***)، وجّه كلامه لصديقه سويلم الجالس لجانبه، ويتابع الحديث على طريقته وهو يهزّ رأسه بانبهار، (***مصائب قومٍ، عند قومٍ فوائد***).

- سويلم: وما ذاك..؟، أفصح عن مقاصدك القريبة والبعيدة.

- إرحيّم: ضربةُ حظ جاءت على طبق من ذهب لصديقنا سليطين، لتكريس زعامته بين وجهاء القرية. رغم أنّه ورث الكثير عن والده رحمه الله، لكنّه لم يتابع الموضوع هذا، صارفًا نظره في متابعته أعماله، ومصالحه المتشعّبة.

- سويلم: أولاده الله يخلّيهم، شباب نشامى سند حقيقيّ لظهره، بإمكانه أن يتفرّغ للوجاهة، هو لم يتعدّ عليها، فهو لها وهي له، لا ينقصه المال و لا الشّجاعة، ولا اليد السخيّة كرمًا.

- إرحيّم: النّمس اللّعين، انكفأ على نفسه يحتسي مرارة خيباته، وبعد ضَرْبِه هَجَعَ في بيته خاصّة بعد موت زوجته، انتهازيّته لم تنفعه، (***كثير ألُنط، قليل الصّيد***).

- سويلم: (***على نفسها جَنَتْ براقش***)، من يتخلّ عن أهله، وجيرانه وعُزْوَته، سيصبح منبوذا، وإن كان معه مليون ليرة، وأعتقد أنّه بعد وفاة زوجته، صار مَهَيض الجناح، ونهايته وَخِيمة.

- إرحيّم: شيء طبيعيّ، (***إلّي يَشْلَحْ - يخلع – ملابسه يبرد***).

الجلسة مستمرّة بانتظار خبر قدوم الوفد في أيّة لحظة، تشعّب الحديث فيما بين كل اثنين متجاورين، كانت المضافة كخليّة نحل كثيرة الطّنين، لا تتضح معالم حديث معين لمن يريد السماع.

صوت (زامور) سيّارة قادمة في رأس الحارة، استنفر أسماع الجالسين، قطعوا أحاديثهم الجانبيّة الشخصيّة، فلم تكن ذات أهميّة إنّما لتزجية وقت الانتظار الطّويل، قاموا من أماكنهم، منهم من توجّه إلى باب الدار، وآخرين جلسوا في المقعد أمام المضافة.

من فوره أمر سليطين أحد أولاده، الذي كان يقف بجوار التّاكسي، أن يصعد مع السّائق لجلب الأستاذ عطاالله مع جاره (أبو غليون) كي يحضروا الغداء مع الموجودين، بالطّبع السّائق كان يودّ العودة من فوره، لكن سليطين أصرّ عليه بشدّة، أن يتناول غداءه معهم وبعد ذلك: أنت مصحوب بالسّلامة، فلا يصح أن تغادرنا وقت الغداء، من المعيب أن نسمح لك بالعودة بلا غداء.

المضافة ممتلئة في أركانها الأربعة، وكذلك أمامها على فسحة المقعد المربّع، وهو لا يقلّ اتّساعًا للضّيوف عمّا هم في الداخل من مساحة. سليطين منذ اللّيل جلس مع أبنائه، وأعطاهم التّعليمات، بذبح أربعة خراف، وتجهيزها بحيث تكون جاهزة وناضجة، عند الظّهر، أو بعده بقليل، بحيث لا يتأخّر الغداء، حتّى لا يصاب النّاس بالملل، وهم ينتظرون.

سليطين لا تنقصه اللّباقة في التّعامل مع الآخرين، ولا في ترتيبات (الأتيكيت)، فمقابل جَهَامَة جسمه، وصوته الأجشّ الموحي بالشدّة و الغلظة، هناك دماثة الخُلُق، وحُسْنَ المعشر واللّين، مُغلّبًا الحكمة و التعقّل في معالجة الأمور، هكذا يبدو الرّجل في عيون أبناء قريته، فلم تكن له عداوة قديمة، أو جديدة مع أحد منهم أبدًا.

زمّور السيّارة من جديد، يعلن عن قدومها، وهي تُقِلّ من ذهبت لإحضارهم، عند مدخل المقعد هبّ الجميع لاستقبال الضّيوف الجدد، بينما الأستاذ عطاالله تأخّر بخطواته قليلاً، لتقديم السّائق و (أبو غليون)، الضّيوف أوّلًا، قانون العُرْف الاجتماعيّ، بعد انتهائهم من السّلام، أصرّ المعزّب على دخولهم للمضافة، انسحب ثلاثة من رجال القرية، لإفساح المجلس للضّيوف الغرباء القادمين من خارج القرية، حيث كان مكانهم في صدر المضافة، وهذا المكان مخصّص لأن يجلس فيه الضيوف المُهِمّين.

***

ما هي إلا نصف ساعة حتّى بدأ زفاف المناسف، فالبُطون تنتظر بفارغ الصّبر، رائحة السّمن العربيّ المغليّ انتشرت، بعد أن صبّها سليطين على وجه المناسف، (فطشطشت) بنغمتها المميّزة تثير مكامن النّفوس، وتوحي بقول: المعزّب تفضّلوا، أهلًا و سهلًا على الميسور، وهذا ما نطق به سليطين، إيذانًا للجميع بالزّحف. قبيل قدومها، كان الحديث متماسكًا متوحّدًا في موضوعه الأهمّ، حديث السّاعة.

- الأستاذ فهيم كان هو المتحدّث الأبرز، فهو قادر على تنظيم أفكاره، والتّعبير بوضوح، وله القدرة العجيبة في إيصال فكرته للمتلقّي بكل يُسر وسهولة: بداية أتقدّم بجزيل شُكري باسمي أوّلًا، وباسم أعضاء الوفد، وباسم أهل القرية جميعًا، إلى الصّديق الشّاعر الأستاذ (أبو غليون)، فهو مفتاح خير لنا، و أرجو يا أستاذ أن تبلّغ تحياتنا، و كبير الشّكر لصديقك الأستاذ الموظّف هناك في مكتب المحافظ، لقد اهتمّ بنا لدرجة مثيرة لنا، وكان استقبال المحافظ لنا مختلفاً تمامًا بفضل توصياته، ولم نتعب في شرح مهمّتنا للمحافظ، فقد تفهّم المشكلة، ورفع طلبنا عاليًا، حتّى وصل به إلى محاذاة رأسه، وهو يكرّر: طلباتكم على رأسي، ولن أتأخّر في تنفيذها بما يسرُّ خاطركم.

- أبو غليون، ساهِمَ الطّرْف، عيناه مركّزتان على المنقل النحاسيّ في وسط المضافة، والدِّلالُ (الأباريق) النحاسيّة تصطفّ بانتظام، لمعانُها ينعكس على زجاج صورة أبي سليطين كبيرة الحجم بالأسود و الأبيض، تأخذ مكانها بجلال، ومهابة في واجهة المضافة فوق رؤوس الجالسين في الصّدر، يهزّ رأسه للأسفل و الأعلى بحركات بطيئة، موحية بموافقته (أبو غليون) على كل ما قاله الأستاذ فهيم، يرفع رأسه قليلًا، ليلتقط أنفاسه لحظة توقّف الأستاذ فهيم عن الكلام ليتنفّس بعمق، وقال: يا جماعة الخير، أنا لم أعمل إلاّ بما يُمليه عليّ ضميري، فقد سمعت منكم، و(***إن الله يحاسب على رِفْقَة ساعة***)، وكيف لي، و أنا المقيمُ بينكم لأكثر من سنة، ولا أفعل أيّ شيء من أجلكم، وما زادني ذلك إلّا يقينًا، بأنّني اخترتُ المكان الحقيقي لإقامتي فيه، لإيحاءاته الروحيّة المتميّزة بجاذبيتها، وقد أوحتْ لي بالكثير من الأفكار المعمّقة في نسج قصائد جديدة، أعتبرها أكثر من رائعة، وشكّلت عندي منعطفًا أدبيًّا هامًّا، وهي أفضل مما

كتبتُه على الإطلاق، وسيكون لي شرف الإشارة للقرية بفضلها عليّ في مقدّمة ديواني الجديد عند طباعته، تنقّلتُ كثيراً في مناطق مختلفة من شمال إلى جنوب سورية، ومن غربها إلى شرقها، فلم أحظ بالرّاحة النفسيّة بأيّ مكان أقمتُ فيه، كما وجدتُ هنا في أمّ الخنافس، وكان بِوُدّي لو كانت خدمة أكبر من هذه أستطيع أن أقدّمها لكم. انقطع حديثه حال الإيذان بدخول الطّعام.

***

(٢٢)

سجّل عندك يا تاريخ، لا يفتأ ماجد بترديدها كلّما عَنّ له شيء ما في ذهنه، لكن في هذه المرّة صار يردّدها مرّتين كلّ يوم، منذ وفاة أمّ فرج زوجة النّمس، أمّ ماجد زوجة سعفان، تتعاهد جارهم النّمس الأرمل، و قد صار وحيدًا، فلا يمكن أن يأكل طعامًا مطبوخًا، لافتقاده لمن يطبخ له، ولعدم استطاعته في تهيئة أيّة وجبة، فكانت تأمر ابنها ماجد كلّ يوم، قبل ذهابه في الصّباح إلى المحل لمعاونة أبيه في العمل، بالذّهاب إلى دار النّمس للاطمئنان على حاله، وترسل له رغيفيْن ساخنيْن للتوِّ انتهتْ من إخراجهما من تَنّورِ الفُرن، كي يفطر عليهما، وأحيانًا ترسل له شيئًا من الزبدة مع صحن دبس العنب اللّذيذ.

وبعد الظّهر يأتي ماجد من المحلّ، كي يأخذ الطعام لوالده، ويأكل معه، تسكب صحنًا مما طبختْ، وترسله معه إلى النّمس قبل عودته للمحلّ.

ماجد لا يُبدي أيّ انزعاج، أو تذمّر من طلب أمّه المتكرّر كلّ يوم صُبحًا وعشيًّا، بل بكلّ رضا كان يقوم بذلك، فهي فرصة له للتأكّد من خفايا دار النّمس، في كلّ مرّة يدخلها يكتشف شيئًا جديدًا، فيستعيد شريط ذكرياته قبل شهر، من تلك اللّيلة المشهودة، ليلة رامز وشمسة، ويُطلق صفيرًا، وهو يدور برأسه باتّجاهات عديدة، لإبعاد أيّ تأثّر ممكن أن يبدو على وجهه.

منذ أول أسبوع بعد انتهاء عزاء أمّ فرج، وماجد مواضب على تأدية طلبات والدته المشفقة على حال النّمس، فابنته الوحيدة متزوّجة في قرية بعيدة، النّمس لا أحد له من أقاربه يسكن في القرية، وابنه لا يستطيع العناية به؛ لأنّ فرج عاش حياة دلال كونه الابن الوحيد.

في كلّ مرّة يتأمّل ماجد وجه النّمس بلونه الكالح المائل إلى الاسْوِدَادِ يزداد يومًا بعد يوم كُلوحًا، و في الأيّام العشرة الأخيرة لاحظ ماجد، أنّ الضعف والهُزال يتسرّب رويدًا رويدًا إلى جسم النّمس، والطّعام يبقى منه الكثير، ولا يتناوله. هذا الجسم يذوب بخطوات متسارعة، وكأنّه على موعد مع برامج التّنحيف والتّخسيس، ماجد غير معنيّ بالكلام عن مهمّته لأحد، لكنّه في يومه

الأخير خالف القاعدة، وأخبر والدته بملاحظته، بأنّ حال النّمس بدأت تسوء منذ فترة، و وجهه يتغيّر كلّ يوم للأسوأ.

هزّت الوالدة رأسها، وهي تُتَمتِم بكلام: الله يرحمك يا أمّ فرج، وماذا تساوي حياة الزّلمة (الرّجل) بعد موت زوجته؟، ستكون حياة مليئة حسرة وندامة، ستغيب الشّمس كل يوم وتشرق عليه، ولن يتأثّر أحد إذا ذهب النّمس إلى جوار ربه، فحياته في باطن الأرض خير له من ظهرها، فليذهب إلى الجحيم بعد ما حصل، موجة الفضائح قهرت أمّ فرج، فمن الذي سيحترمه الآن في القرية كلّها؟، الصّغير ناقم عليه قبل الكبير، أرى أنّ الموت هو الحلّ هو المناسب له، ولا اعتراض على حكم الله، يا ربّي لا تؤاخذني بما تفوّه به لساني، أستغفرك، وأتوب إليك.

ماجد صامت يستمع لكلام أمّه، ولا يعلق على كلامها، يشعر في دواخل نفسه، بزُهوٍّ مشُوب بالنّدامة؛ لأنّه هو الذي قهر النّمس، وقصم ظهره، وهو الذي وجّه إليه الضّربة القاضية، و أوصله لحالة لا يُحْسَد عليها، منذ أن كشف كذبته في العام الماضيّ، عندما اخترع قصّة صراعه مع الضّبع في الكرم، ماجد يردّد: ***(إذا كان الكذبُ يُنجي، فإن الصدق أنجى و أنجى)*** هذه العبارة التي حفظها منذ سنوات عندما ركّز عليها مُعَلّم الصفّ الرّابع، عندما كان ماجد يدرس فيه، وكانت هناك لوحة قديمة بألوانها الباهتة من عوامل الزّمن، معلّقة في واجهة غرفة الصفّ، كان المعلّم يُذَكّر كلّ طالب يحاول الكذب، فمن لا يحفظ الدّرس عليه أن يتكلّم الصّحيح، ومن لم يكتب وظيفته كان عليه أن يتكلّم بالصّدق، وكانت العقوبة قاسية جدًّا، خاصّة إذا شعر المعلّم أنّ الطّالب قد كذَبَ عليه، ومن خُلُقِ المعلّم أنّه كان يُسامح الصّادق، تشجيعًا له على صدقه، ليكون تحفيزًا للأولاد، أن يَصْدُقوا ولا يكْذِبوا أبدًا.

- أمّ ماجد سمعت ما قال ابنها، تساءلت باستفهام: ومن هو الكذّاب الذي تقصده يا ماجد؟.

- ماجد: إنّه النّمس يا أمّي، تذكّرتُ قصّته مع الضّبع، وفي هذه المرّة، ضربه الشّبابُ ليلًا، وادّعى أنّه وقع في العتمة أثناء عودته للبيت، وعلى إثر ذلك في اليوم التّالي، أرسل إلى فليحان يخبره بموافقته على إرجاع بارودته، التي

اشتراها منه بثمنٍ بخسٍ آنذاك، واستغل حاجة فليحان للمال لمعالجة ابنه، كما أنّني سمعتُ أنّه يتعاملُ بالرّبا، فهو يعطي القرش لمدة سنة بقرش ونصف، وفوق كلّ تلك المساوىء فهو عميل للمخابرات، أي أنّه مُخبر، وآخرها صار يشتغل قوّادًا لرامز، كما ادّعى أنّه ابن عمّه.

- أمّ ماجد: يعني كذّاب، ومُرَابٍ -عليه اللّعنة-، ومُخبِر، وقوّاد، فَسُحقًا له، لكنّ وقوفنا إلى جانبه في هذا الظّرف، ليس إلا لوجه الله، فقط كونه إنسان، و جارٌ لنا، وله حقّ الجيرة علينا، عسى الله أن يُثِيبَنا أجرًا، وننال ثوابه.

- ماجد: سأطلق عليه لقب " **شايلوك**" من الآن فصاعدًا بدل اسمه النّمس، قبل أن أنسى يا أمّي، ألا تذكري ما أخبرتك منذ أيّام، أنّني لاحظت أنّ حالته تسوء يومًا بعد يوم، ووجهه ينبئ حكاية جسمه الضعف و الهزال، و لا أظنّ أنّه سيكمل نهاية هذا الشّهر.

- أمّ ماجد: نعم، قطّبتْ جبينها، وزمّتْ شفتيْها، مُستغربة تلك الكلمة بوقعها الثّقيل على مسمعها، للمرّة الأولى تمرُّ بها: والله الشّماتة لا تجوز حتى من عدوّك، ولا أتمنّى له إلّا الصّحة، وإذا جاء أجله فلا يستطيع أحدٌ تأخيره، ومن هذا المسمّى "**شايلوك**"، يا ولد؟.

- ماجد: هذه شخصيّة ذميمة السُّمعة، دميمة الخِلقة، يهوديّ، استغلاليّ للآخرين يمتّص دماءهم، كنت قد قرأت عنه في قصة "**تاجر البندقية**" المقرّرة عندنا في الصف العاشر ضمن المنهاج، فما وجدتُ تشبيهًا للنّمس ومناوراته وحِيَلَه المكشوفة، إلا "**شايلوك**".

- أمُّ ماجد: و ما يُدريني بذلك، أنت تقول، و أنا أسمع، و لا أفقهُ كثيرًا ممّا تقول، وممّا تعلمتَ في المدارس، ألا تعرف أنّني أُمِيّةٌ لا أعرف أن أكتب اسمي، رغم أنّ والدي أرسلني في صغري، لمكتب الشّيخ كي أتعلّم مبادئ القراءة و الكتابة، لكنّي لم أنسجم أبدًا، ولم أستوعب شيئًا، فكان كلّ همّي، أن أتعلّم التّطريز على القماش، وكانت لطيفة ابنة جيراننا هي معلّمتي، رحمها الله.

هزّ رأسه علامة الإيجاب، هي تتكلّم، ويبدو التأثّر واضحًا بحديثها، مما سمعته اليوم من كلام ابنها ماجد، بخصوص النّمس، سعفان يأكل بتمهّل، يمضغ الطّعام

جيّدًا، فهو ليس على عجلة من أمره، ففي المحلّ كثيرًا ما يتعجّل في التهام الطّعام، أو يقوم ليناول زبونًا غرضًا ما ويعود، فيكون الأكل قد ذهبت سُخونته، ويتناوله باردًا، يستمع لها فقط، وكأنّه غير معنيٍّ بكلامها، فهو قليل الكلام بما يدور في أجواء القرية، حريصٌ على عدم الخوض فيما يقوله الزّبائن، فهو مثال نادر للكتمان، وصندوق مغلق للاحتفاظ بالأسرار لمن يأتمنه عليها، فهو خزانة مليئة بالأسرار، كتومٌ للغاية، و لم يثبت عليه نَقْل أيّ كلام فيما يخصُّ الآخرين أبدًا، رغم تَشعُّب علاقاته، وكثرة اختلاطه مع النّاس.

***

رسّام منشغل بلوحته يتمنّى أن تكون باهرة، ورسّام يرسم للآخرين طريقهم، مشغولٌ ببرمجة حياتهم، ليستطيع تسييرهم وفق منظور الأستاذ فهيم، وهي عبارة صغيرة قالها لصديقه الحميم فارس: أعتبرُ أنّ (أبو غليون) رسّام. لم تصدر منه العبارة عبثًا، أبدًا هو يشعر بعمق فلسفتها، كما أحسّ بذلك صديقه فارس أيضًا.

و تابع: بالفعل أنّ (أبو غليون) يرسم مخططه بدقّة وإتقان، واثق من خطواته، يمسك بمفاتيح اللّعبة، يلتقي شخصًا ما، لأوّل مرّة وهو يعلم عنه دقائق حياته، تغلغل عميقًا في أعصاب مجتمع القرية، لا يترك مناسبة، أو سهرة إلاّ وهو على رأسها، حتّى أصبح جزءًا مُهِمًّا يُفتقَد إذا غاب، فحديثه ذو طلاوة، محبّب لسامعيه، بمفتاح تواضعه الشّديد غزا قلوبًا عديدة، ربّما من أوّل لقاء عابر أو جلسة، مصطفى ما زالت نشوة ذهابه مع الوفد تستعر في قلبه، أشعرته بشيء ما في داخله أهمله زمانًا، لم ينتبه إليه إلّا بعد مشاركته الوفد، يعتقد جازمًا أنّ الفضّل يعود لـ (أبو غليون)، عندما طرح اسمه ضمن وجهاء القرية؛ واقترح اسمه ضمن القائمة التي ستتشرف بمقابلة المحافظ.

الصّدفة وحدها كانت السبب في لقاء غير منتظر بين مصطفى و (أبو غليون)، أثناء ذهابهما للسّوق، كلٌّ قادم من بيته لشراء حاجيّات لبيته، حميميّة اللّحظة

جعلت العناق، والضَمّ بحرارة ألقت في روْع مصطفى شيئًا ما، لا يستطيع وصفه على حدّ تعبيره: يمكن تشبيهه بصدمة حالمة.

(أبو غليون) يبادر باستباق الحدث، لِجَرّ مصطفى إلى لُجّته بلا تجديف: أخي مصطفى منذ فترة، وأنا أشتاق للقائك، من خلال ما سمعتُ عنك أنّك إنسان مهذّب، مختلف عن محيطك بطباعك الهادئة، واهتماماتك منصبّة على عملك وشغلك، منذ أيّام كنتُ في العاصمة، والتقيتُ فيها بصديق لي من أيّام الدّراسة، فَرّقَتِ بيننا الأيّام، كلٌّ منشغل في عمله، فهو صار ضابطًا، و أنا كما ترى، شاعر أركضُ لاهثًا وراء سراب الكلمة و الفكرة ..!!، والضّابط كما تعلم ما هو الضّابط بقوّة رتبته ..!!؟، ووظيفته، وسُلطتِه، والاهتمام الذي يحظى به على كلّ المستويات من احترام وتقدير.

- مصطفى: فيك الخير و البركة، يا أستاذ.

- أبو غليون: كي لا أطيل لك الشّرح، ومن سؤال إلى سؤال، وحكاية إلى أخرى، سألني صديقي الضّابط، عن مكان إقامتي، فلمّا علم أنّني مُقيم في أمّ الخنافس، فتح عينيْه على اتّساعهما بدهشة أثارت الغرابة في نفسي، لأنّني ظننتُ أنّني في مكان مجهول على خارطة العالم، ولا يمكن لأحدٍ أن يكتشف مكاني، وإذ به يعرفه أعزّ معرفة، و إنْتَمَنني على إيصال سلامه إليك شخصيًّا، وهو برتبة عميد، وهو رئيس فرع فلسطين، بالفعل هل تعرفه..!!، ويعرفك أخي مصطفى؟.

- مصطفى يشيح بعينيه إلى السماء، وكأنّه يريد استعادة ذكريات غابرة موغلة في النسيان هروبًا، و صدرت عنه تنهيدة مليئة بالشّجن، حرارة القلب التهبت من جديد، اختلفت ملامح وجهه، وقال: (***تُذَكِر تلك المناسبة، ولا تُبْعَاد***)، كان لقاء على غير موعد مع سيادة العميد، ولكنّ القَدَرَ ساقني إلى بين يديه، في الحقيقة أنّه ابن حلال، وقد ساعدني، وأفرج عنّي، ولا زلتُ أحتفظ ببطاقته، وعليها اسمه، و أرقام هواتفه في المكتب والبيت.

- أبو غليون: كما أعلم أنّه لا يعطي هذا (الكَارْت) إلاّ للأشخاص الذين يحبّ أن يبني معهم علاقة، هو في العادة فقط يعطي رقم المكتب لمن يزوره.

- مصطفى: ضحك في سرّه، وافْتَرّ ثغره عن ابتسامة انشقّت عن بياض أسنانه، وقال: لا أدري كيف لي أن أردّ له الجميل، ومنذ فترة أفكّر بدعوته لزيارتنا، لأنّه أنقذ حياتي، فقد كنتُ على أعتاب تهمة ربما تؤدي بي إلى حبل المشنقة، عندما أخبرني ضابط الحدود، بأنني مُتّهم بالعمالة للموساد، وأنتَ تعلم مدى خطورة ذلك، فأنا مدين لصديقك العميد، ولقائي هذا معك عزّز لديّ فكرة الدّعوة، التي سأوجهها له، ومن خلالك، وأنا بانتظار ردّك أوّلًا.

الآن صار مصطفى و المشورب، على علاقة مباشرة مع(أبو غليون)، فبإمكانه زيارتهما للبيت في أيّ وقت شاء، تحت ستار أيّ عذر وحُجّة يختلقهما، دون استغراب أو تساؤل مُستَهْجَن من أحد.

***

ألا ترى يا صديقي، أنّ الأمور تسير بسرعة العربة في منحدر حادٍّ، لا يمكنها التوقّف أبدًا إلا إذا انقلبت، أو ارتطمت بشيء ما؟، أشياء كثيرة في القرية تتغير بسرعة مذهلة، لكن تباعد الأحداث بفاصل زمنيّ هو ما جعل الناس يغفلون عن الرّبط بينها، هذه افتتاحيّة الأستاذ فهيم لصديقه فارس، في بداية مشوراهما المسائيّ شبه اليوميّ.

- فارس: صدقت يا أستاذ، والله إنّه شيء يجعل العقل في راحة الكفّ.

- الأستاذ فهيم: في الشّهرين الأخيريْن، ها هو المنحوس في السّجن، ولا ندري متى سيفُرَج عنه، والنّمس كأنّما قُطعت رجله من السّير في طرقات القرية، ولم أجد له أثرًا، اختفاؤه مريحٌ للنّفس، قريةٌ بلا نمس، و أمثاله من النُّموسِ الآخرين، لا شك أنّها ستكون سعيدة..!!. وكذلك رامز أيضا نقلوه إلى مكان لا نعلمه، وقيل أنّه عوقب بحسم من الراتب لمدة ستّة أشهر، وإيقاف ترفيعه من رتبته الحالية رقيب، إلى رقيب أوّل لمدّة سنة، و الآنسة شمسة كذلك اختفت من القرية، ولا ندري أين نقلوها، على الأغلب أنّهم أرجعوها إلى محافظتها، هذه

أوّل ضربة قويّة من ضربات (أبو غليون) رأيناها بأُمّ أعيُنِنا، ولا ندري ما ستكون ضربته القادمة.

- فارس: ولا تنس اختفاء أولاد المنحوس، مرعي وأخويْه سالم و سليمان، من حوالي شهر لا أثر لهما أبدًا، انقطعت أخبارهم مرّة واحدة، إلا أنّني قبل يوميْن سمعت من خالد ابن عمّي، الذي يعمل في سوق الهَالِ في العاصمة، مثلما تعرف أنّه يأتي للقرية كلّ يوم خميس، فقد اجتمعت به عند زيارتي لزوج أخته المريض، عندما ذهبتُ لعيادته، فقد وجدته هناك، و أخبرني أنّه شاهد مرعي ابن المنحوس يعمل على عربة كرّاجة ينقل الخضار و الفواكه من مكان لآخر، أمّا أخويْه عَمِلا في مَحَلّيْن مختلفيْن في نفس السّوق، وأعرَبَ لي عن إعجابه بنشاط مرعي و مثابرته، و هِمّتِه العالية، كما أنّه علم من مرعي أنّه نذر نفسه من أجل أخويْه، وتعهّد لهما بمتابعتهما للدّراسة حتى يبلغا الجامعة، لكنّهم فقط الآن يستغلّون العطلة الصيفيّة لجمع المال من أجل مصاريفهم.

- الأستاذ فهيم، ضحك بصوت مسموع حتّى بانَت ثناياه، وقال: ***(يِلكِي يِطْلَعْ من بيت النُّط مُؤَذّن)***، لعلّ تبدّل مسار حياتهم للأفضل، واللهِ من كمال سروري، أنّ هؤلاء الأولاد، وقد ألقت الحياة عليهم بكامل ثقلها، وضغطها، فثبتوا وصمدوا، ربّما لا يحتمل ذلك الرّجال، و هاهم فرّوا بأنفسهم من أجل حياة، ومستقبل أفضل.

- فارس: لكنّ الرّابح الأكبر في هذه المعمعة، صديقك الشّاعر.

- الأستاذ فهيم: تعني (أبو غليون)؟. وكيف ذلك..؟.

- فارس: تشعبّت علاقاته بِطُرُقٍ شتّى، فهو تعرّف و صاحَبَ للكثير من شبابنا، وآخر شخص مثل مصطفى ممكن أن أتوقَعه أن يقع في حبائله، سمعتُ أنّه التقى به، وتحدّثا كثيرًا، وهما يقفان على ناصية السّوق، للمُراقِب من بعيد، سيبدو له أنّه لقاء عابر بريء، لكنّ المثير في الموضوع، أنّه حمل سلامًا إلى مصطفى من صديق مشترك لهما، وهو ضابط مخابرات برتبة عميد في منصب مدير فرع فلسطين، وقرّر مصطفى تكليف صديقه الجديد بدعوة العميد.

- الأستاذ فهيم: أوه .. أوه ..!!، على رِسْلِك يا رَجُل، ماذا تتحدث، لا أكاد أصدّق، ما الذي أسمعه منك، مصطفى وعميد؟، يعني ذلك أنّ(***المَيْ سَائِلة من تحتنا ولا ندري***)، عقلي على وشك التوقّف، ربّما لا يستوعب ما يحدث، وهذا يعزّز نظريّتي أنّ هناك تبدّل عميق يجري في القرية، شخص مثل مصطفى لا اهتمامات له، ولا مشاركات في مناسبات القرية، الآن فهمتُ، هل تتذكّر أنّ من اقترح وضع اسم مصطفى مع الوفد هو (أبو غليون)؟.

- فارس: ولم يعترض أحدنا على اقتراحه، ولم ننبته لذلك، ولكن ها هي الأمور تُفسّر بعضها بعضًا بالقرائن الدّالة، الأيّام كفيلة بِحَلّ أعظم المعضلات.

انتهى مشوارهما لهذا المساء في دكّان عكّاش، وأكملا سهرتهما. بعد عودته للبيت، يجلس الأستاذ فهيم بجوار زوجته فاطمة، وهي تعدّ له طعام العشاء، شَكَا لها الكثير من همومه، ومخاوفه ممّا يحصل من تحت الطاولة في القرية، ومعظم هذا القلق، من (أبو غليون)، هل تعملي أنّه أخطبوط، وحِرْبَاءٍ متلوّنة، (***فايت مع أمّ العريس، خارج مع أمّ العروس***)، و(***في كلّ عُرسٍ له قُرْص***). وقبل أن ينتهي، بادرته فاطمة: على سيرة هذا الرّجل، ليلة أوّل البارحة، أجرى اتصالًا هاتفيًّا مع شخص في العاصمة، و ابتدره بقوله: احترامي سيّدي، لقد وصل سلامك لصديقك مصطفى، وهو في نيته (مصطفى) بدعوتك إلى بيته في القرية، كلّفني بذلك، وهو بانتظار تحديد الموعد منّي.

رفع الأستاذ حاجبيْه، و هزّ رأسه علامة الدّهشة و الغرابة لما يحدث، ولم يجد له تفسيرًا لهذه اللّحظة. فقال: ألا تريْ يا فاطمة، أنّ هذا شيء مُحيّر.

ردّت فاطمة: والله(***دُبَكة خرمة***)، أعاننا الله على تحمّل تبعات غموض الموقف المحيّر، ومن حُسن الحظّ، أنّ اتصالاته لا تكون إلاّ في اللّيل، وأثناء مناوبة صابر.

***

اتّصال (أبو غليون) قبل أيّام بالعميد، جعل العميد يضع الموضوع قيد الدّراسة المباشرة، موضوع استخراج الكنز في موقع أثريّ هامّ، مثل قرية أمّ الخنافس، بحاجة لموافقة اللّواء مدير الإدارة، هو أيقن من هذا، ويعرف أنّ أصدقاءه من مُدَرَاء الفروع الأخرى كانوا قد بحثوا عن الكُنوز في مناطق مخفيّة عن الأنظار، أمّا هنا في مثل حالة القرية، فهي مختلفة تماماً عن الأخرى.

اتّخذ قراره بالسّعي لمقابلة اللّواء بأسرع وقت ممكن، الأمور استوَتْ، ووصلت اللّقمة للفمّ، ولا يجب إضاعة الوقت، من فوره رفع سماعة التّلفون للاتّصال بمدير مكتب اللّواء، لأخذ موعد له بالمقابلة شخصيًّا، ليعرض عليه الموضوع، مدير المكتب سجّل اسمه ليعرضه على اللّواء مباشرة، وأخذ موافقته على تحديد موعد له.

بعد ثلاثة أيّام، وقبل نهاية الدّوام بساعة واحدة، اتّصل مدير مكتب اللّواء: احترامي، سيّدي، بعد ساعة سيادة اللّواء بانتظارك.

جاء الاتّصال مفاجئًا غير متوقّع في مثل هذه السّاعة، و في يوم خميس، وعند نهاية الدوام، من فوره نادى على الحاجب، بتوضيب أغراضه، ووضعها في صندوق السّيارة، وأمر السّائق بتغسيل السيّارة، وتجهيزها بأقصى سرعة ممكنة، وعليه أن يكون متهيّئًا للانطلاق في أقلّ من ساعة، وأعطى أمره لتَفَقُّدِ سيارة المرافقة من خلال إعلام المسؤول عنهم، الوقت ضيّق، ولا يحتمل التّأخير، من فوره قام بحلاقة ذقنه، وتنظيف أسنانه بالفرشاة و المعجون، لإزالة رائحة الدّخان والمتّه، ليبدوَ بمظهر أنيق، وأكّد على الحاجِبِ بتلميع البُوط الأسود، وإعادة كَيْ البَدْلة على السّريع، لإزالة بعض التجاعيد.

يتوجّب عليّ إقناع اللّواء بأي شكل كان، يا تُرى ماذا، لو طلب مني أن أتقاسم معه ما أستخرجه من الكنز؟، وماذا لو أخذ الخارطة وطردني، وهو يستخرجه لنفسه؟، وماذا..، وماذا..؟، عقلي يتوقّف عن التفكير، الحيْرَة تقتلني، وعدّاد القلق لديّ مرتفع لدرجته العظمى، الخوف ينهشني من أن تفلت الفرصة من يدي، إنّها ضربة العمر، حتّى المنصب لن يدوم لي للأبد، هي فرصة عابرة ولن تتكرّر، فـ(***إذا دَرّتْ عُنزَك احْلُبها***)، ولا بدّ لي من المُجازفة مهما كانت

النتائج، فها أناذا في منصبي هذا منذ سنوات، و لا أدري متى تكون اللّحظة التي سيعزلونني فيها، أو إنهاء خدماتي، وإحالتي على التّقاعد، أو تحويلي بالنّقل إلى مكان آخر؟. حلاقة الذّقن مصحوبة بكل هذه الهواجس المليئة بالقلق الداخليّ المسيطر على نفس مُصابة باهتزاز، تتوقُ بِنَهَم الثّراء لأجيال قادمة، ربما يظنّ أنّه سيأخذها معه إلى القبر، حرصٌ شديدٌ، وأكثر من ذلك بكثير.

***

بينما في القرية استفاق الأستاذ فهيم من نومه مرعوبًا، عندما هزّته زوجته فاطمة بعنف، وهي تحمل بيدها كأس ماء كي يشرب منها، ذعرتْ من حشرجة أنفاسه، وهو نائم بجوارها، جعلها ترتجف من الأعماق، ظنّت أنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاستوتْ في جلستها بجانب فراشه، جسمها يرتجف خوفًا مما حصل، و ربّما رأته على هذه الحال للمرّة الأولى في حياتها.

- فاطمة: ما بك يا حبيبي.. خير، عساه خير؟. وناولته كأس الماء.

- الأستاذ شرب ماء الكأس جُرعَة واحدة بلا توقّف، ولا تنفّس، وكأنّه مُصاب بالعطش منذ سنين كأرض مُجْدِبة، طلب منها إحضار كأس أخرى: خير إن شاء الله، رأيتُ فيما يرى النّائم خيرًا، أنّ النّيران تجتاح قريتنا، وكأنّه حريق كبير، وخرجت الخنافس الذهبيّة من جحورها ومخابئها، مصابة بالفزع، تحبو في كل اتّجاه، وفجأة اختفتْ عن الأنظار، وكأنّ شيئًا لم يكن، والنّيران خفّت حدّتها، ولكنّها لا زالت تحرق ببطء شديد.

- فاطمة: و ما تظنّ ذلك؟.

- الأستاذ: حقيقة لا أدري. وما زالت يده تهتّز، عروقها منتفخة بوضوح تام، نتيجة توتّر داخليّ، و اهتزاز في أعماقه، لكنّي أتوقّع حدوث شيء كبير ستهتزّ له قريتنا بأكملها، وتابع كلامه: لكنّي لا أعرف ما هو، و قوادم الأيام ستُبْدِي لنا ما كان خافيًا.

- فاطمة: في أعماق نفسكَ، هل تتوقّع موت أحد من الوجهاء، أو حفلة موت جماعيّة.

- الأستاذ: أيًّا كان الوضع، علينا تقبّله لأنّنا مُجبَرون عليه، ولا حيلة لنا في تغييره أبدًا، ولكنّي أظنّ أنّ هذا الحلم هو من تأثيرات الواقع الذي نعيشه باحتيال عليه، صِرْنَا نخاف من الكلام، ربَما كلمة تُحْسَب عندهم في تفسيرها على غير المُراد منها بتأويلها، تؤدّي بصاحبها إلى الموت، و التَعَفّن خلف القضبان، صِرنَا نحمل شخصيّتين متناقضتيْن، كأنّنا مصابون بانفصام في الشخصيّة، نقول خلاف قناعاتنا، كي نتجنّب ضرر المُخبرين، الذين لا ينامون ولا يتركون أحدًا يهنأ في نومه.

- فاطمة: الله يجازيهم، كما جازى النّمس بإذلاله قبل موته، ولا شماتة.

- الأستاذ: يا فاطمة الأمور مُتَنَاسِبَة - نسبة إلى شخصيّة النّمس-علينا من كل حَدْبٍ و صَوْبٍ، وكافّة الاتّجاهات، ويومًا بعد يوم يضيق الخناق علينا، رغم أنّنا نعيش في قرية نائية، وبعيدة عن مراكز الحضارة، و اتّخاذ القرار، ولا أدري ما هي حال من هم يعيشون في المدن الرئيسة أو العاصمة، أتوقّع أن كل ثلاثة أشخاص لابد أن يكون واحد منهم مُخْبِرًا، هم الدّاء الذي ليس له دواء، إلا بمغادرة وطننا إلي بلاد الله الواسعة التي يُحترم فيها الإنسان، لأنّه إنسان فقط.

- فاطمة: وهذا ما افتقدناه في بلدنا منذ سنين مضت، ويومًا بعد يوم، أنّ الدّائرة تتسع، حتّى أنّني سمعتُ أنّ هناك بعض النّساء مرتبطات بالمخابرات.

طال حديث الشّجون والآمال والأحلام، وتثاءبت شهرزاد، ولم ينبهها إلاّ صوت المؤذّن لصلاة الفجر، تداعي الأفكار يأتي بالفكرة لتجرّ فكرة أخرى إلى ساحة الكلام، وهكذا احترقت الدّقائق و السّاعات، بين يديّ الاسترسال في تداعيات الأحاديث.

***

في مكتب اللّواء، جلس العميد بانتظار إذن الدّخول، ما هي إلّا دقائق، حتّى جاءه الإذن من مدير المكتب، وأخبره أنّ وقت المُقابلة لن يتجاوز الرّبع ساعة على أبعد تقدير، اللّواء مرتبط بموعد هامّ مع القيادة العليا.

- العميد: احترامي سيّدي.

- اللّواء: أهلًا وسهلًا، تفضّلْ اجْلسْ، هاتِ ما عندك على الفور.

- العميد: في الواقع الأمر، أنّني حصلتُ على خارطة كنز أمّ الخنافس، وهي دقيقة، وفيها تفصيلات هامّة.

- اللّواء: كما تعلم أنّ الموقع هذا محظور التّنقيب فيه نهائيًّا، ويوصل صاحبه إلى حبل المشنقة. وأنتَ من أين أتيْتَ بها؟.

- العميد: نعم سيّدي، ولكنّ الموافقة بيدك أنت فقط. في الحقيقة أنّني أرسلتُ شخصًا أثق فيه إلى تركيّا على حسابي الخاصّ، فاشتراها لي بمبلغ كبير كونها موثوقة، وكلّفتني الشيء الفلانيّ.

- اللّواء: أفهمُ من كلامك أنّها أصلية، وغير مزيفة، ولكن لا بدّ من إخبار المعلّم الكبير بالموضوع، لكي لا يعلم بالموضوع عن طريق غيرنا، ولا أستطيع احتمال لومه الشّديد، وأنت على علم دقيق بما يمكن أن يَتّخَذه ضدّنا من قرارات تعسفيّة، إذا جرى التّنقيب من غير إذنه.

- العميد: و ما العمل، برأيك؟.

- اللّواء: أرى أن تسلّمني الخارطة، لعرضها عليه أوّلا، ولأحاول إقناعه بكلّ السُبُل، إذا كانت لديْك الآن، هاتِها، لأنّني على موعد اجتماع معه هذا اليوم.

- العميد، تردّد قليلًا، ولكنه لم يستطع الممانعة، مدّ يده إلى جيبته، واستخرجها، وسلّمها، وكأنّه على وشك فقدان روحه، وقال: تفضّل سيّدي.

- اللّواء، تأملها مليًّا، طواها بعناية، وأدخلها إلى جيبة قميصه، لتنضمّ إلى مجموعة أوراق خاصّة جدًّا، وعلى درجة عالية من السريّة، وقال: على كُلٍّ انتظر مني اتّصالًا، في أقرب فرصة ممكنة. قام من وراء مكتبه واقفًا، لتجهيز نفسه، وهو إيذان بأنّ موعد المقابلة انتهى.

الحسرة تنهش قلب العميد على ما حصل، وخوفه الأشدّ أنّه ربّما (***يطلع - يخرج- من المُوَلَدْ بلا حُمّصْ***)، (أبو غليون) حصل على وَعْدٍ من العميد رئيسه المباشر، بأن يرفع له كتابًا للإدارة، يقترح فيه بترقيته، نظرًا لجهوده الحثيثة في خدمة وظيفته، وهو يعمل ليل نهار لإرضاء العميد الذي رفع الكتاب مباشرة بعد ذلك الاتّصال الذي أجراه(أبو غليون)، و في صباح اليوم التّالي، كان الخبر عند(أبو غليون)، الذي يأمل بترفيعه إلى رُتبَة مُقَدّم، صباح ذلك اليوم كان صابر ما زال مُداومًا في مناوبته، وقد تأخّر ساعة كاملة عن موعد انصرافه، لأنّ زميله محمود الذي سيستلم منه، أخذ ابنه المولود حديثًا إلى الطّبيب، لمعالجته من نوبة إسهال، و حرارة تناوبتا عليه طوال اللّيل، وهو يتلوّى بين يديّ أمّه القَلِقَة عليه، ولم يكن بيدها من حيلة سوى وضع الكُمّادات الباردة على جبينه، فيهدأ قليلًا، حتّى إذا ما ذهب مفعولها عاد للبكاء.

(أبو غليون)، بعد ذلك بأيّام اسْتُدعِي إلى مكتب مدير الإدارة، الذي بيده مقاليد الأمور كلّها، فهو إذا ما وافق على اقتراح اللّواء، فإنه سيرفعها إلى مكتب وزير الدّفاع، فإن (أبو غليون) سيضيف نجمة ستتربع على كتفيْه بجانب النسر الذي ملّ الحياة لوحده مدّة أربع سنوات، وهو في غاية التشوّق إلى تلك النّجمة، التي ستجعل منه يستحّق دورة رُكْنٍ عن جدارة، وبذلك سيشقّ طريقه إلى مناصب الإدارة الهامّة في كلّ فُروعها على مستوى القُطر، فالأمر بيد اللّواء مدير الإدارة، هو وحده فقط.

طُلب منه تقديم تقرير عن مهمّته في أمّ الخنافس، ومصدر الخارطة التي حصل عليها العميد، و فَهِمَ أنّ مستقبله متوقّف على ذلك، جاءت الاستجابة سريعة، وكانت على الشّكل التّالي: إنّ شخصًا اسمه مصطفى من قرية أمّ الخنافس، سافر إلى قبرص، ومنها إلى تركيّا، وعاد إلى قبرص لعرض الخارطة التي اشتراها لعرضها على خبير مقيم في قبرص، بعد أن تأكّد من سلامتها، عاد إلى صاحبها، ودفع الثّمن الذي اتّفقوا عليه، بعد ذلك رجع عبر مطار بيروت، ودخل القطر عن طريق الحدود اللبنانيّة، مفرزة الأمن هناك، اشتبهوا به، فقبضوا عليه، وحوّلوه إلى فرع فلسطين، وفي فرع فلسطين، المُحقّق ارْتشى منه عشرة آلاف ليرة، هي التي كانت بحوزته وقتذاك، ووعده بأن يُخْلِي سبيله

بالبراءة، وكان عليه أن يُقنع العميد بأنّ الخارطة فيها صفقة العمر، و على هذا الأساس وَقّعَ له إخلاء السبيل، بعد ذلك العميد أعطاه أرقام هواتفه في المكتب، و البيت، فيما إذا احتاج مصطفى شيئًا منه، ونبّه عليه المحقّق قبلها أن لا يتكلّم أبدًا في هذا الموضوع؛ لأنّه في القبضة وهم سَيُعِيدُوهُ للسّجن عندهم، وتخويفه بتلفيق تُهمة العمالة للموساد، وجَرَت الأمور على هذا المنحى، وعلى هذا الأساس تمّتْ الصّفقة، و(***يا دار ما دَخَلْكِ شر***). وفي نهاية الصفحة، كتب اسمه، و توقيعه.

اللّواء قارن بين ما قاله العميد، مع ما ورد في تقرير (أبوغليون)، وكانت النتيجة على خلاف رغبة العميد في إيصال ما يريده للإدارة، ولم يكن في حسبانه هذا الالتفاف عليه من اللّواء بهذه الطّريقة، و الحركة الرّشيقة.

ورقة التقرير بين يديّ اللّواء، اهتزاز رأسه لم يتوقّف طيلة الوقت الذي قضاه في قراءتها، كتب عليها شيئاً بخط يده، ثم طواها ووضعها في خزانة خاصة مليئة بالملفّات والأوراق، وأغلق أبوابها، دخان السِّيجَار انتشر في أجواء مكتبه الفسيح الأنيق، بأثاثه وترتيبه، والتّحف القيّمة توحي بالرصانة ومحاكاة التّاريخ، معظمها من التّماثيل القديمة صغيرة الحجم نسبيًّا، بينما يشمخ على يسار طاولة المكتب علم سوريا، وفوق رأسه في صدر المكتب صورة الرئيس بحجم كبير، و على طاولة جانبيّة تتربّع صورتان بالحجم المتوسّط له تجمعانه مع الرئيس، واحدة بالأسود و الأبيض، وهي الأقدم، عندما تسلم منصبه، والأخرى بالألوان، وهي الأحدث زمنيًّا.

***

هدأت الزوبعة قليلًا في قلب العميد، و كل يوم يضيق صدره على احتمال الصّبر، أيام الانتظار كانت طويلة جاءت بعمر دهر، لم يأته الخبر المنتظر من

اللّواء؛ ليزفّ له الموافقة على نبش الموقع، لكن أوراقه كلّها احترقت في عينيْه، فهو لم يعُدْ يملك الخارطة، فهي بين يديّ اللّواء، و لا حيلة له في إخفاء الأمر، أو التصرّف بدون أن يخبره، نار الأطماع تحرق المسافات بينهما، خطرت له فكرة بينما هو قابعٌ في مكتبه، واتّخذ قراره باعتقال مصطفى، وإخفائه في زنازين قبو الفرع، وتتّجه النيّة إلى التكتّم، والتَحَرُّز عليه، ريثما تتكشّف الأمور، وعلى أي قاع ستستقر.

ذات فجر غاضب، النّاس نيام، مصطفى يتقلب في فراشه، يصحو على نخز موجع من رأس البارودة الرّوسيّة في خاصرته، يحكّ بيده، العسكريّ واقف بجمود الظّلام فوق رأسه، يأمره بصوت أجشّ، مليء بالخوف: قم بسرعة، لا وقت لديّ.

يتباطأ مصطفى حاول الانقلاب إلى جانبه الأيسر، فمَا صحَا إلّا هو في عتبة الغرفة، يجرّه من قدميْه جُنديّان مسلّحان، كل واحد منهما يمسك بقدم، حاول أن يصرخ، فما إن حاول فتح فمه، حتّى لَكَمَه أحد الجنود بمقدّمة بسطاره، فأسكته، الدّم ينزف من فمه، صنع منه خطّ سيْر من الغرفة حتّى باب الدار، حيث تقف (البيجو٤٠٤) في المقدّمة، وخلفها (جيب لاندروفر)، لم تستطع زوجته اللّحاق لرؤيته، قامت فَزِعَة، روّعتها أصواتهم وحركاتهم، حاولت ارتداء ثيابها، ومواجهتهم، فلم تعرف من هم هؤلاء الذين أخذوه من فراشه، تأخّرت، لكنّها ما إن وصلت باب الدار، حتّى انطلقت سيارتا الدوريّة بأقصى سرعة، هي تنظر غير مصدّقة، وتظنّ أنّها مستغرقة في حلم، هدير محرّكات سيّارات الدوريّة، يقرع سمعها بعنف يأتيها من آخر الطّريق، وهي تفرّ من المكان مُخلّفة الغبار المتطاير، لكي لا ينكشف أمرها، حسب توصيات العميد المشدّدة للرقيب الأوّل قائد الدوريّة.

انتصف النّهار عند الظهيرة، ومازالت عائلة مصطفى لم تتناول طعام إفطارها، جميعهم صدّت أنفسهم عن الطعام و الشراب، ولم يطلبه أحد منهم، و لِمَنْ سيَشْكُون مصيبتهم؟، و لا يدرون مَنْ سيسألون، ومنْ هم الذين أخذوه؟.

في مشواره الصباحيّ للسّوق التقى الأستاذ فهيم بطريق المصادفة (أبو غليون)، آذان الظّهر يرتفع من مئذنة الجامع، والأستاذ يتأوّه بطريقة مليئة بالحزن والأسى، لاحظ (أبو غليون) ذلك، وتساءل:

- ما بك أستاذنا الفاضل؟.

- الأستاذ فهيم: لا أدري ماذا أقول، من أين أبدأ؟.

- أبوغليون: تبدو على وجهك علامات كثيرة، لكنّي لا أجيد قراءتها، احْكِي يا رَجُل، و لا تهتّم لأيّ شيء.

- الأستاذ فهيم: مصطفى الذي كان معنا في الوفد، هل تتذكّره؟.

- أبوغليون: نعم أتذكّره جيّداً..!!، ما به؟. صرخ بانفعال ظاهر، جعل امرأة تمشي على مقربة منهما، تَنْتَبَه إليهما، فأبطأت في خطواتها حُبًّا منها بالتطفّل عليهما، مما لفت انتباهَهُمَا إليها.

- الأستاذ فهيم: هناك من جاؤوا عند الفجر، وسحبوه من فراشه، وآثار الدّم لا زالت عند باب الدار، من أثر ضربة على وجهه، مكان توقّف السيّارات.

- أبو غليون، رفع حاجبيه إلى أعلى مستوى لهما، وفتح عينيه على اتّساعهما، و تيبّست الكلمات على فمه المفتوح من هول الصّدمة، أخيرًا صَحَا بعد بُرهة مما هو فيه، وقال: ألا تعرفون مَنْ هم؟.

- الأستاذ فهيم: لا أبدًا، هم مسلّحون مجهولون، لكنّ زوجته أخبرتني أنّهما سيارتان، واحد تاكسي (بيجو)، و الأخرى (لاندروفر).

- أبو غليون، نفَثَ نفساً عميقًا حارًّا من داخله، الذي ارتفعت درجة حرارته للمستوى الأقصى، بهذا الخبر، وقال: بسيطة أستاذ، لعينوك، غدًا إن شاء الله، سأذهب، وأسأل عنه، لي صديق قديم من أيّام الدّراسة في العاصمة ضابط كبير، أتمنّى أن يكون باستطاعته مساعدتنا، مصطفى رجل طيّب، ويستحقُّ كلّ خير، ولا أعتقد أنّ له أيّ نشاط مُعادٍ للحكومة، ولا يتعاطى السّياسة، و على الأغلب أنّ ما حدث، ربّما جاء عن طريق تَشابُه بالأسماء، أو أنّ هناك سوء فَهْمٍ.

- الأستاذ فهيم: أملنا كبير بك صديقي، لي رجاء عندك أن لا تتأخّر في كشف ملابسات هذا الموضوع، فعائلته حالها في الوَيْلِ منذ الفجر.

- أبوغليون: اطمئن أستاذ، (***حُط رجلِيْك، و يديْك في مَيْ باردة***)، سأعمل كلّ ما باستطاعتي، وأبذل قصارى جهدي لمعرفة مصير مصطفى، الذي أحببته من كل قلبي، و يستحقّ منّي بذل كلّ جُهدٍ ممكنٍ من أجل معرفة ملابسات موضوعه.

انصرف كلّ منهما في اتجاهه، الأستاذ فهيم توجّه من فوره للجامع لتأدية صلاة الظّهر، وضع أغراضه التي اشتراها في زاوية قريبة منه حيث يجلس، عاد للبيت مُنهكًا على غير عادته، فاطمة مشغولة في إعداد الغداء، تركته في حاله ولم تتكلّم معه، عندما ناولها الأغراض، وذهب لغرفته بعد أن أخبرها بأنّه يودّ النّوم حتّى العصر، طلب منها عدم إيقاظه، عندما يصحو سيتناول غداءه، الهدوء في البيت جعله ينام مباشرة، أخذته نوبة تعرُّق شديدة، عاوَدَه الحُلُم ثانية، نفس الرؤية الذي حدّث عنها فاطمة قبل يوميْن، و النّار مثل تلك النّار التي رآها في المرّة السّابقة في شدّتها، وحرارتها القويّة تلفح الوجوه من مسافة بعيدة عنها، بينما الخنافس الذهبيّة خرجت من ثُقوب الأرض، وتشقّقاتها، وانتشرت بسرعة فائقة مبتعدة عن النّار مذعورة من الاحتراق، لكن ما زاد هذه المرّة، هو انعكاس بريقها على الأعين، فأبهرتها من شدّة السّطوع، فالنّاظر لا يستطيع النّظر إليها.

صابر على غير عادته، كانت نوبة دوامه من صباح هذا اليوم إلى صباح اليوم التّالي؛ لأن زميله مضطر للغياب هذا اليوم في إجازة مرضيّة طارئة، نعمات في حالات نادرة ما تتناول الغداء وحدها دون زوجها، فهي تنتظره إن تأخّر، لكنّها جاءت بآنية (سَفَرْطَاسْ) وعبّأتها بالطّعام، من فورها أخذتها إلى مكتب البريد، حيث يداوم زوجها. جلست عنده حتّى تناول غداءه، وتجاذبت معه أطراف الحديث في شتّى المواضيع و المستجدّات، ثم قفلت راجعة للبيت.

قبيل وصولها لبيتها، عرّجت على جارتها فاطمة، لتخبرها بأمر اعتقال مصطفى، لتفاجئها فاطمة بأنّها تعرف الخبر منذ الصّباح، بينما نعمات راحت تحكي لها الكثير، مما سمعت من كلام النّاس في القرية، وتطرقّت إلى خبر

طريف يصبّ في نفس الخانة، وهو أنّ(أبو غليون) قبل ساعة من الآن أجرى اتّصالًا مع شخص مُهِمٍّ في العاصمة، بدأه بقوله: سيّدي. جاءت دوريّة عند فجر هذا اليوم، و اعتلقت مصطفى من قرية أمّ الخنافس، الدوريّة مكوّنة من سيارتين (بيجو٤٠٤) و (لاندروفر)، الخبر انتشر بسرعة النّار تلتهم الهشيم، والنّاس في دوّامة من الخوف.

قبل انتهاء المكالمة، جاءه صوت سيّده، راقِبْ بشكل جيّد تفاعلات الموقف، و أنا سأتصرّف وفق هذه المعطيات.

الأستاذ فهيم قام من نومه بعد العصر بقليل، أدّى فَرْضَهُ، بينما فاطمة تجهّز سُفْرَة الغداء، جلسا يتناولان الطعام، و انفتحت شهيّة حديثهما مع الأكل، كانبعاث رائحة البّهارات الزكيّة، وبها يطيب الطعام بتلذّذ، كما يتلذّذون بتجاذب أطراف الحديث.

فاطمة تخبر الأستاذ بما قالته نعمات من أمر اتّصال(أبو غليون)، سمع الخبر، ولم يعلّق عليه، لا زالت صدمة الحلم تلجُم لسانه عن الكلام.

خلال لقائه قُبيل الغروب، فارس يحكي للأستاذ: عن الخبر الطّازج الذي سمعه في نشرة الثّالثة من إذاعة لندن، كما جاء على لسان المذيع: انتحار ضابط برتبة عميد، يعمل مديرًا لفرع فلسطين في العاصمة السوريّة دمشق، وهذا الحادث يعتبر نادرًا حدوثه، إذا لم يكن هناك اغتيال، أو سوى ذلك، وللأهميّة القُصوى لمثل ذلك، كان الخبر الأول الذي تصدّر نشرتهم لهذا اليوم، كما أنّه جَرَتْ اعتقالات لرتب صغيرة من كوادر الفرع المذكور مع بعض المدنيين، أما التّحليلات فقد أخذت منحىً آخر، في اتّجاه تصفية العميد، ضمن صراعات داخل الأجهزة الأمنية على السّلطة.

بعد ذلك فتحتُ على إذاعة دمشق، لسماع موجز الثالثة والرّبع، وجاء الخبر على أنّ أحد الضباط أقدم على الانتحار، لإصابته بمرض نفسيّ، وبعد غد سيدفن في قريته على السّاحل، وسيقام له احتفال جنائزيّ يليق به، وبخدماته ضمن سلك الجيش.

في الحقيقة أنّ المرء يُصاب بالتشتّت، من هذا التشويش في تضارب الأخبار، ولكنّني أميلُ إلى تصديق خبر إذاعة لندن، وتحليلاتهم القريبة من المنطق الواقعيّ.

- الأستاذ فهيم صامتٌ، وكأنّه لم يسمع ما قاله فارس، ولم يعلّق إلاّ أنه هزّ رأسه، وقال: مسكين يا مصطفى.

ليلاً رنّ جرس الهاتف في المقسم اليدويّ، على الطرف الآخر صوتٌ طَلَبَ إيصالهُ ببيت (أبو غليون)، ما إنْ رَنّ الجرس رنّة ثانية، حتى قال (أبو غليون): ألو .. أهلاً وسهلاً، سيّدي.

- الصوت القادم من العاصمة(معاون اللواء): ألف مبروك، أنت من الآن ستمارس صلاحيّات رتبة المُقدّم، ولكن بانتظار صُدور النّشرة العسكريّة الخاصّة بالترفيعات بعد شهريْن في نهاية العام، حتّى تستطيع وضع رُتبة المُقدّم على كتفيْك، وراتبك اعتبارًا من هذا الشهر، وبكامل التعويضات حسب الرُّتبة الجديدة، و من الغدّ أنتَ صِرْتَ على ملاك الإدارة، و ضمن طاقمها، و ستباشر عملك في مكتب اللّواء، وتابَعَ: عند حضورك خلال اليومَيْن القادمَيْن، أحضر معك المشورب، حضوره ضروريّ جدًّا.

الفرحة ألجمتْ لسان(أبو غليون)، وراح يُتَأتِئ بكلمات غير مفهومة، لكنّها تعلن عن سروره العارم، كلمة واحدة ظهرت منه: شكراً سيّدي.

أنفاس صابر تكاد تتوقّف، وهو يُبعد السمّاعة عن فمه، لكي لا تفضحه، فتكون نهايته، وسينقطع ذكره للأبد، وهو على وشك تأكيد الخبر السّار الذي انتظره لسنوات طويلة خلال الأيّام القادمة، إذْ لم تأتِ العادة الشهريّة لزوجته نعمات، وهو نذيرُ خير إذا ما حملتْ بطفلٍ سيحمل اسمه، كان يتمنّاه، وقلبه يتحسّر عندما يرى الأطفال. أفاق من غفلته عندما توقّف الكلام، وإغلاق المكالمة من المصدر. في الأمس أخذُوا مصطفى، والآن جاء دور المشورب، يا لها من مصيبة، يا ربّي..!!، أين كان كلّ هذا مخبّأ لنا، المسكين المشورب يُعيل عائلة تأكل رأس الحيّةِ، كان الله في عونه، أولاد الكلب لم ينج أحد من شرِّهِم.

صابر، إنسان أبيض في داخله، بسيط في طرائق تفكيره، متواضع لدرجة آسره، علاقاته الاجتماعيّة محدودة، أصدقاؤه قلائل يُعَدّون على أصابع اليدّ الواحدة، ينتهي من دوامه، يذهب للبيت، ولا يخرج منه إلا للضّرورة، يحب الجلوس مع نعمات زوجته، يتجاذب معها أطراف الأحاديث المختلفة، لا يستطيع إلا أن يحكي لها كلّ ما يمرّ به، حتّى لا يُخْفِي عنها توهّج عواطفه، و تتأجّجها، وهو ينصت للعسَل يقطرُ من فَمِهَا يسيل كالشّهد، بِلَكْنَتِها المحبّبة إلى قلبه، ولا يملّ من سماعها على مدار السّاعة.

***

(٢٣)

صراع على النّفوذ بين الكبار من الأقطاب، والصّغار يذوبون كما الصّابون بين يديّ المُغَسِّل، ذوو القرون الطويلة يتناطحون بلا هوادَة، الأذنابُ يخوضون المعركة نيابة عن أسياد يَجْنُونَ المكاسب، ويفوزون وحدهم بالمناصب، ومنْ ضحّى في سبيلهم، ربّما لا ينال كلمة شكر في كثير من الأحيان، المصالح تجمع وتُفرّق، وتنتهي معظم التّجمعات عند جني المكاسب، ويكون الصّراع على أشدّه بين الرؤوس المتناطحة.

دوّامة الأوغاد، تطحنُ كلّ شيء تُلاقيه، لا يقف في وجهها أيّ شيء، تدوس وتمشي، لا تسأل عن المَدْعُوس فيما دُعِس، ولا المجروح فيما جُرح، و لا المُنتحر فِيمَ انتحر، ولا المعتَقَل فِيمَ اعتُقِل، إلاّ أن تتدخَل العناية الإلهيّة؛ لتكتب له بقيّة من حياة، فيخرج من بين الأنياب مُحطّم القلب، مُدمّر العقل، مسحوق

النّفس. ذات صباح، أرسلتْ أمّ ماجد رغيفيْن من خبر التّنُور السّاخن مع ابنها ماجد إلى النّمس المريض، طَرَقَ على الباب الخارجيّ، لم يأته الردّ من النّمس، كما هي العادة في كلّ يوم صُبْحًا وعَشيًّا، فتح الباب، مشى إلى ساحة البيت، طرق باب الغرفة، صمتٌ رهيب موحش، للمرّة الأولى يتوجّسُ ماجد خِيفَة، تطلّع حوله في أطراف الدّار، فرآها موحشة، يا إلهي..!!، ما الذي جرى لي؟، دقّاتُ قلبي تتسارع، كالقَرْعِ على طَبْلٍ في احتفال مهيب. أنصت قليلًا لم يسمع أيّة نبرة، أو همسة لصوتِ النّمس، فتح الباب. وتابع: أوه.. يا إلهي، مازال النّمس نائمًا، ليس من عادته التّضاحي إلى هذه السّاعة. رائحة غريبة لا تشبه أيّة رائحة يختزنها دماغ ماجد أبدًا، تقدّم إلى جوار الفراش، نادى على النّمس بصوت منخفض قليلاً، ولمّا لم يأته الردّ، رفع وتيرة صوته أكثر، لم يسمع إجابة، رفع الغطاء عن الوجه ليجده مُصفَرًّا كليمونة، هزّه بيده، لا استجابة، جمود مخيف، عادت الرّهبة إلى قلبه من جديد، يده ترتجف، وهو يلمس الجبين البارد، فلا حرارة أبداً، تذكّر حديث أمه، حين موت أبيها أي جدّه، عن علامات الموت، الاصفرار مُتصاحِب بالبرودة، وجمود حركة الأعصاب، أمسك يد النّمس، لتفقّد نبضه، النّبض متوقّف تمامًا، شعر ماجد أنّ هناك من يُطبق على رقبته، ضاقت أنفاسه، ارتفع شهيقه وزفيره، ضربات قلبه في درجاتها القصوى ضربًا، شخصت عيناه على اتّساعهما، ينظر في جنبات الغرفة، كأنّ هناك في زاويتها المظلمة من يريد افتراسه، انتفض كملسوع بلا انتباه؛ ليجد نفسه في ساحة الدار من جديد، ضرب على باب الغرفة الأخرى، حيث ينام فرج، لسوء الحظّ لم يأته صوت فرج من داخل غرفته، دفع الباب ودخل، بحث عن فرج لم يجده في فراشه، كأنه في هذه الليلة بالذّات، لم يأت للنّوم في داره.

في غمرة الحدث المُلِمّ به، انطلق لسانه، بلا وعي ولا تفكير، يردّد: سجّل عندك يا تاريخ، ربما يُجيب التّاريخ في يوم ما، وعلى غير عادته، يقول: امتثالًا لأمرك يا ماجد، ومن أجل خاطرك، سأسجّل ما تُملِي عليّ، وسأحفظه لك بين طيّاتي، وضمن مقتنياتي.

تكالبت الأحداث على القرية من جديد بمصائبها المتلاحقة، مصطفى معتقل منذ أسبوع، و لا أحد يعرف عنه شيئًا، وجاء دور المشورب، فأخذوه، وكان موت

النّمس لتكتمل الحكاية، وتُسدل السّتارة على سيرة النّمس، قام أهل الخير بتجهيزه ودفنه، ويُقام له العزاء في بيته، فرج وقَفَ وحيدًا بين رجال القرية، وهم يؤدّون دورهم في حفظ العيش، و الجوار، فرج يردّد فيما بينه وبين نفسه: أناسٌ مثل هؤلاء هل يستحقّون منّي أن أردّ على معروفهم بالنّكران و الجحود؟.

***

اللقاء الحميميّ في تلك اللّيلة المشهودة ترك آثاره عليها، ذات يوم، شعرت بدوخة في رأسها، ترافق مع استفراغ القيء من معدتها، ظنّت أنّ جسمها أخذ بردًا، من أثر سهرة ذات ليلة باردة، أو نومها بلا غطاء، التّعب أخذ منها مأخذًا، استمرّت الحالة لثلاثة أيّام، رغم أنّها في كلّ يوم تُكَرّرُ شُرْبَ زهورات البابونج و النّعناع، يَسكُتُ الوجع قليلًا ثم يعاودها، اشترت كيلو ليمون، عصرت أوّل كأس ليمون، وشربتها؛ فشعرت بانتعاش، استراحت نوعًا ما من معاناة الأيّام الثلاثة، ليلًا، عاودتها الحالة من جديد بوتيرة أعلى من سابقتها، ففكّرت بزيارة الطّبيب، لتشخيص حالتها.

لم يخطر ببال شمسة أن يكون ذلك من أثر تلك اللّيلة المشؤومة بفضيحتها، وضجيج القرية القويّ، على شنيع ما فعلته مع رامز في بيت النّمس، وتكلّلت مساعي القرية بنقلهما من القرية، ولم يكن من وسيلة تواصل بينهما سوى الهاتف، وعلى فترات متقطّعة، ومتباعدة.

بعد معاينة الطّبيب لحالتها، طلب منها تحليلًا، للتأكد من تشخيصه السّليم لحالتها، ووفق ما ستكون عليه نتيجة التّحليل، سيصف لها الدّواء المناسب. ساعتان، و كانت ورقة التّحليل بين يديه، ابتسم، وتهلّل وجهه بِشرًا، وقال: ألف مبارك يا سيّدة شمسة. عقدت المفاجأة لسانها، جحظت عيناها، راحت تتساءل باندهاش، أَثَارَ مكامن نفس الطّبيب: ماذا تقول..؟، حَمْلٌ ..!!.

- نعم سيّدتي، ألف مبارك، وهذا ما يؤكّده التّحليل المخبريّ، وأنت لا تحتاجين إلى أيّ دواء، ولست بحاجة، ولو لحبّة دواء واحدة، خوفًا من تأثيراتها على الجنين، فقط عليك الاستراحة قليلًا، و التخفّف من أعباء العمل في البيت، ولا تحملي شيئًا ثقيلًا.

خارتْ قُواها على وقع ما سمعت من الطّبيب، هي انغمست مع رامز في عسل اللّذة، ولم يكن في حسبانها هذا الأمر أبدًا، خرجت تتهادى بخطواتها المتباطئة، غامت الدّنيا في عينيْها، استغرقها عالم عجيب بأفكاره السوداويّة، والخوف من انتقام أقاربها منها، إذا ما شاع الخبر، لن يتركوها تَنفُذُ بجريمتها؛ لأنّه اعتداء على شرفهم جميعًا.

وصلت للبيت بعد جُهْدٍ جهيد، دخلت الغرفة، وأغلقت الباب على نفسها من الداخل، دموعها لم تنقطع، تورّمت عيناها، حاولت أن تغفو قليلًا كي تنسى، النّوم جفاها بقوّة وعناد، أمّها تناديها لتتناول الطّعام، لم تُجِبْ دعوة أمها. تعود أمّها تنادي عليها، أيضًا لم تستجب، قامت الأمّ، ودفعت بيدها باب الغرفة؛ لتجده مغلقًا من الداخل، نادت عليها بصوتها المترافق مع القرع على الباب. أخيرًا أجابت: أنّها لا تريد أن تأكل إنّها تعبانة، فقط تريد أن ترتاح.

الأم تتساءل بغضب تريد أن تفهم شيئًا من ابنتها، لا يأتيها جواب. صَمْتُ شمسة زادها غضبًا، وانخرطت في نوبة صُراخ، وهياج بالسبّ، و الشّتم على بنات هذه الأيام، ورؤوسهنّ اليابسات كالصخر، والمدارس خرّبتْ عقولهنّ، و جعلتهنّ متمرّدات، العصا هي الحلّ.

الحيرة و الظّنون تنهش قلب شمسة، توقّف عقلها عن التفكير في أيّ اتّجاه، انسدّت كلّ دروب الحلّ في عينيها، لم تدر ما عليها أن تفعله، سوى الانتظار للمساء، والاتّصال مع رامز، لتخبره بما حصل لها من أمر الحمل. استغراقها في غمرة الحدث جعلها طرشاء؛ كأن في أذنيْها وَقْرًا، فلم تسمع شيئًا مما قالته والدتها.

طبيب المَخْبَرِ بعد انتهائه من دوامه الصباحيّ، ذهب للبيت كي يرتاح، ويتناول الغداء، زوجته صديقة للآنسة شمسة من أيّام المدرسة، أخذ نفسًا عميقًا، وقال: عندي لك خبر رائع ستفرحين لصديقتك شمسة بحملِها، اليوم عملتُ لها تحليلًا،

وكانت نتيجته إيجابيّة، أنا لم أتكلّم معها؛ لأنّ السكرتيرة هي التي سلّمتها الورقة، وانصرفت لطبيبها، لعرض الورقة عليه.

- الزوجة: لكن يا عزيزي، على ما أعلم أنّ شمسة ما زالت عزباء، لم تتزوّج للآن.

- أمعقول هذا يا زوجتي..!!.؟.

- الزّوجة: كلّ شيء جائز في هذه الأيام، إلا إذا كانت قد تزوّجت في غفلة منّي.

في اليوم التّالي سألت الزوجة، صديقة لها مشتركة بصداقتها مع شمسة أيضًا، هي ابنة عمّة شمسة، لم يأتِ مساء ذلك اليوم حتّى انتشر الخبر بين أقارب، وأبناء عمومة شمسة.

***

- **شمسة**: حبيبي رامز، عندي خبر مفاجئ لك.

- رامز: ما هو يا حبيبتي، هيّا تكلّمي بسرعة، الفرحة تنهش قلبي لسماع أخبارك، اشتقتُ لك كثيرًا.

- شمسة، حكتْ طويلًا عن مرضها، وهو يستمع لها، ويجاملها، ويتأوّه مع تأوّهاتها، متألّمًا لألمها: إلى أن قالت: أنا حامل.

- رامز سقطت السمّاعة من يده، وهي تنادي عليه، ولكنّه لم يجب، بعد لحظات انتبه من هول الصّدمة، وقال: أي مبروك عليكِ، ولكن ما يُدريني أنّكِ حملتِ منّي؟، مُشْ معقول من لقاء واحد، هناك أناس دفعوا ما فوقهم، وما تحتهم ليحصل عندهم حمل، ولم يحصل أبدًا.

- شمسة: ماذا تقول ..!!؟، أنا لم أعرف غيركَ أبدًا، وهذا ما ثبت بالتّحليل المخبريّ، يعني الأمر مؤكّد مئة بالمئة.

- رامز: عليك أن تُحدّدي أحدًا غيري، كانت عندي معلومات أنّك مارست الجنس مع شباب من القرية، وأنا لستُ وحدي، ربّما أكون أنا آخرهم، وكلامكِ بهذا الأمر احتمالٌ ضعيف.

- شمسة: يا كلب..، يا حقير..، سترى، وسيكون حسابك عسيرًا. أغلقت السّماعة، وغادرت بيت جيرانها.

من فورها صعدت إلى مقدّمة خياراتها المتاحة، فِكْرَة إخبار والدتها بالموضوع؛ لأنّها لا تستطيع مواجهته وحدها، لا بدّ من أحد يقف معها، المفاجأة ألجمت لسان أمها، وانخرطت في نوبة بكاء هستيريّة، ولم تنطق بأيّة كلمة حتّى اليوم الثّاني.

لم يطل وقت التّداول فيما بينهما، ليستقرّ رأيهما على تقديم شكوى لدى المحكمة، وحدّدت جلسة استماع للطرفين، ووجهت مذكرة دعوة للمدعو رامز، المذكرة جاءت بالبريد الرسميّ لفرع الأمن في المحافظة التّابع لها عن طريق مكتب المحافظ، وسجلت في دفتر البريد الوارد في الدّيوان، العقيد رئيس الفرع من فوره قام بكتابة تقرير إلى الإدارة بالحادثة، ولم يزل تأثير احتجاج أهل القرية، ونقله من مفرزة أمّ الخنافس، إلى مفرزة أخرى.

قبل موعد جلسة المحكمة، انطلقت مجموعة من أقارب شمسة على اتّجاهيْن، بعد التّشاور فيما بينهم، واتّخاذ الأمر بحزم وشدّة، حيث لا شفقة، ولا رأفة في مثل هذه الأمور، خاصّة فضائح الشّرف، أجمعوا أمرهم على التّنفيذ ليلًا. جاؤوا بأخيها مُحسن، ضغطوا عليه بشدّة بطريقة مُحكمة، أقنعوه بتبييض شرف العائلة، في منتصف اللّيل، الدّماء تغسل العار، وتكلّل شرف العائلة، وفي الاتّجاه الآخر انطلق ثلاثة أشخاص لمكان خدمة رامز، وفي نفس اليوم، كان قد صدر فيه قرار طرده من الخدمة، لتلويث الشّرف العسكريّ، وفي اللّيل عمّدوا شرف عائلتهم بدم شمسة، وعمّدوا شرف الدولة بدم رامز، من فورهم أجمعوا الرأي على ذهاب أخيها مُحسن، وابن عمّه المتماثل معه في العمر، بتسليم نفسيْهما إلى الشّرطة، وهم يعلمون أنّ جرائم الشّرف، لا يُحتَجزُون عليها في السّجن، لأكثر من شهرين، أو ثلاثة على أكثر تعديل، وسيخرجون بكفالة تحت المحاكمة.

سلّمَا نفسيْهما بشموخ، دخلا السّجن شامخيْن، وقفا أمام القاضي بشموخ أيضًا، وخرجا من السجن بعد فترة رافعي رأسيْهما، يتفاخران بتحقيق انتصارهما، وتبييض شرف العائلة.

***

أين أنت يا(أبو غليون)؟، أنت أملنا الوحيد، لا نعرف من نسأل عن المشورب، و لا ندري كيف لنا أن نعرف طريقه، يا أخي وصديقي فارس، الرّجل كأنه (***قَصٌّ ملح، وذاب***)، سألت الأستاذ عطاالله عنه، أخبرني أنّه لم يشاهده منذ يوميْن، وبيتهً مغلق لا أحد فيه، زوجته وأولادها سافروا إلى قريتهم في الشّمال، لرؤية والدتها المريضة، وأكّد أنّ أغراضهم ما زالت في البيت، ولكن ما يطمئن قلبي، أنّني علمتُ من مصدرٍ خفيٍّ، أنّ المشورب لم يُعتقل، كما حصل لمصطفى، بل صدر الأمر لـ (أبو غليون) بإحضار المشورب معه إلى العاصمة، مخاوف الأستاذ فهيم يبّثها لصديقه فارس، خلال لقائهما المسائيّ شبه المنتظم يوميًّا.

- فارس: شيءٌ محيّرٌ، صار الرّجل فينا، لا يعرف رأسه من رجليْه، أشعر أن (***الماء سايلة من تحتنا، ولا ندري***).

- الأستاذ فهيم: عندي حدس أنّ القرية مقبلة على حدث كبير، أكبر من حجمها، وحجم أهلها جميعاً.

- فارس: هل تتكهّنُ بأمر ما؟.

- الأستاذ فهيم: مجرّد حدس عميق، أخذ مجراه في عقلي وقلبي، لكن لا أستطيع تحديد ماهيَّته.

انتهى حديثهما على بوابة دكّان عكّاش، مَرًّا للاستراحة قليلًا من مشوارهما، ويطمئنّا عنه، لأنّهما منذ أسبوع لم يشاهداه، ويشربا فنجان قهوة من يد عكّاش، وينطلقا من فورهما، هكذا اتّفقا قبل وصولهما.

***

أبنائي عزموا الأمر على أن أسافر إليهم، منذ سنوات لم ألتق بهم، إلا من خلال اتّصالات تلفونيّة متباعدة زمانًا، تكوّنت غابة من الأشواق في قلبي إليهم، ووالدتهم أكثر منّي اشتياقًا، و إلتياعًا، هناك عندهم في دولة السُوَيْد، الحياة فيها رخاء وهناء، وكلّ إنسان في عمله، حرٌّ في تصرّفاته، لا أحد يتدخّل بخصوصيّات الآخرين من أصدقائه، أو زملائه، احترام للذّات الإنسانيّة بشكل كبير، وهذا الشيء لا وجود له في بلادنا للأسف، يا أخي فارس، لكننا في وادٍ، و قِيَمَنا ودِيننا وأخلاقنا في وادٍ آخر، حياتنا بعيدة كلّ البُعد عن ذلك، بعد طول نقاش، أقنعوني بالذهاب إليهم هناك، للإقامة و الاستقرار بجانبهم، للتّعويض عمّا فاتَنَا في بلادنا، حقيقة لقد فاتَنَا الكثير، و الكثير، عمرنا ضاع هكذا على عَتَبَات الإهمال، يأوي أحدُنا إلى فراشه مُتَلبّسًا بمعاطف الخوف من زوّار غير مرغوب بهم عند الفجر، وكلّ يوم نسمع عن أحد اختفى من الحياة، ولا ندري، أرَجَعُوا أم قضوا هُناك خلف جدران الظّلام؟.

تدمع عينا فارس، وهو يستمع لكلام الأستاذ فهيم فقط، والكلمات تتلجلج بين لسانه وشفتيْه، ولا تستطيع الخروج من بينهما، ينصت باهتمام، لكنّه أشبه بإهمال، ولا مبالاة، ويتابع الإنصات لكلام الأستاذ، بينما نسمات المساء المنعشة هذا اليوم، تبعث التفاؤل في النّفوس برونق عجيب، خاصّة إذا ما قورنت بلهيب الظّهيرة المتعب.

يعزّ عليّ هجر القرية، وذكرياتها وأناسها، لكنّني وصلتُ إلى نهاية النّفق، ولم أجد أو أصادف الشّمعة التي سعيتُ لها حثيثًا، وسلكت مشاقّ المسالك كلّها، استنفذتُ كلّ طاقتي الذهنيّة والجسديّة والنفسيّة، عدا الروحيّة هي طوق النّجاة الوحيد، أجد فيها بصيص أمل، وشعور بالرضا نوعًا ما. يتكلّم الأستاذ فهيم بنبرة مليئة بالأسى، والحسرة، عيناه ساهمتان في الأفق، وفي زرقة السماء، كأنّه يُعاين شيئًا على صفحتها.

- فارس: أرى أنّكَ وصلتَ لمرحلة اليأس، وأين هي أحلامك الورديّة؟، التي طالما زرعتها في الأجيال من طلّابك، ومنهم من وصل لدرجات علميّة عُلْيَا، وفي وجدان، وضمير أصدقائك، وممن عَرَفَك، واقترب منك بالتّعامل من أهل القرية.

- الأستاذ فهيم: غصة في حلقي، و انتكاسة في مسيرتي، حيرتي قاتلة، سأصدُقك القول، أنّني منذ فترة حجزت مكانًا في المقبرة، وجهزّت قبريْن لي، ولزوجتي فاطمة، بكلّ تأكيد يعزّ عليّ أن أتركهما، أو يوافيني أجلي في تلك البلاد البعيدة، ولا يلامس جسدي تراب قريتي.

- فارس، تبلّم الكَلام في فمه، يهزّ رأسه، لآلىء عزيزة تتساقط من عينيْه، بسبب ما سمع من أعزّ صديق على نفسه، وقال: لا أتصوّر نفسي، أن أستطيع العيش في القرية بدونك يا أستاذ.

- الأستاذ فهيم: انتهاك حرمة القرية، وسرقة كنوزها بهذه الطّريقة البشعة من المسؤولين في الدولة، أفقدتني ثقتي بنفسي، وأشعر بعمق ذلك في قلبي، كأنّه خنجر مسموم غرز به، وأنّه انتهاك لحرماتي الشخصيّة، فلا قانون ولا حسيب ولا رقيب، فما بالك إذا كان (***حاميها حراميها***).

***

ذات صباح كلّلته الدّهشة، أمّ الخنافس الغافية على سواعد أحلام أهلها، هدير محرّك الجرّافة حرق كلّ موانئ الهدوء، وأحالها نهبًا لظنون، وشكوك في عقول الناس، متطلّعين بلهفة متسائلين عمّا يحصل، يرتدّ إليهم صدى أسئلتهم، دوّامة ابتلعت آخر أحلامهم، وها هو مصطفى يعود مع الحملة، بعد أن ظنّوا أنّه لن يعود أبدًا، ومصيره كمصير من اعتُقِل من قبل، لا يخرجون إلا للقبر، وهو يشير إلى الموقع بدقّة متناهية، وكذلك المشورب عاد إلى أسرته سالمًا، فقد أدّى ما طُلِبَ منه بصمت، في استخدام قدراته الروحانيّة في عمل(مندل)، للتأكّد من وجود الكنز، وبالتّعاون مع شيخ مثله استطاعا السّيطرة على الرّصَد (الجنّ الحارس للكنز)، وفكّ طلاسمه، عند الظهيرة انتهى كلّ شيء، بريق أضاء سماء القرية، الجنود يُطوّقون المكان، فوّهات بنادقهم الرشّاشة مُصوّبة في كلّ

اتّجاه، ممنوع الاقتراب قطعيًّا، كلّ الطّرق مغلقة، طائرة (هيلوكوبتر) هبطت لمدّة ساعة ثمّ أقلعت، يحكي أحد العمّال أنّهم حَمّلوا خمسة وعشرين صندوقًا في الطّائرة. وأقلعت من جديد.

- ماجد: صرخ بأعلى صوته، سمعه معظم جيرانه في الحارة: (***سجّل عندك يا تاريخ***)، بانفعال شديد عبّر عمّا بداخله، لم ينتبه له أحد، الجّميع سادرون في دوّامة الغفلة، ومن سمع، قال: (الولد إنجَنّ، الله يثبت علينا العقل و الدّين).

فارس بعد لقائه ذاك المساء مع الأستاذ فهيم، اتّخذ قراره بمعاودة السّفر إلى الكُويْت من جديد، حيث استلم أولاده مكانه في العمل، ويمدّونه بكلّ متطلّباته. كيف لي أن أبقى هنا، بدون الأستاذ فهيم؟. هذه آخر عبارة قالها فارس، وهو يتخّذ قراره.

الأستاذ عطاالله، يغالب دموعه، رغمًا عنه، تنزل قطرة على خدّه، يمسحها بطرف كُمّه، يضرب كفًّا بكفّ، يضع رأسه بين يديْه، خيبة الأمل دخلت في طيّات كلامه، الحسرة تنهش قلبه، عندما عرف حقيقة (أبو غليون)، و قال: (***يا ما تحت السّواهي دواهي***)، حرامٌ عليّ أن أتكلّم بهذا الكلام، كي (***لا تنقطع النّخوة من رؤوس الرّجال***)، قال ذلك أمام عكّاش في دكّانه.

.....

.....

تمّت بعون الله